مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمى مراد

چين اير

لشارلوت برونتى



الجزء الثانى من القصة الكلاسيكية الخالدة

١٠ قروش

شارلوت برونتي

جين إير



JANE EYRE

BY: CHARLOTTE BRONTE

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السادس عشر

جين اير (الجزء الثانى)

تأليف : شـارلوت برونتى

ترجمـة : اسـماعيل كامل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثلاثة وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون . الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بيتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أميرة مصر . الامطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الاعداد : ٣٦ – ٣٧ – ٣٨ – ٣٩ – ٤٠ – ٤١ – ٤٢ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ – ٤٨ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ – ٥٣

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ماعدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : مايوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا : قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب . وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل)

عزيزى القارىء

• عندما اخترت قصة «جين اير» لاقدمها لك، كنت أدرك ان لابد لى ـ تمشيا مع رسالة « مطبوعات كتابى » ـ من أن أقدم لك شيئا من انتاج العبقرية الخالدة « شارلوت برونتى » ، وأن أقدم لك « جين اير » بالذات • فمع ان هذه الرواية كانت أول مجهود أدبى ينشر لشارلوت ، الا أن النقاد العالميين أجمعوا على انها ـ فى الوقت ذاته ـ أروع المجهودات التى نشرت للمؤلفة •• ويكفى دليلا على ذلك انها طبعت ثلاث مرات ولما يكتمل عام على ظهورها للمرة الاولى •• وانها لاتزال ـ رغم مرور ١١٠ أعوام على تلك المرة الاولى ـ تلقى رواجا يغرى الناشرين على أن يصدروا بها طبعات جديدة تباعا ••

وكنت أقدر الجهد الجبار الذى تتطلبه الترجمة الامينة الدقيقة لهذا الاثر الادبى الشامخ ، ولكن هذا الجهد لم يشغل بالى قدر ماشغله التفكير فى طريقة تقديم الرواية اليك • فلقد واجهتنى منذ اللحظة الاولى مشكلة محيرة •• تلك هى أن القصة بنصها الحرفى الدقيق تتطلب أكثر من ٦٥٠ صفحة بالبنط العادى • ووجدتنى أمام أكثر من حل : كان من المسلم به ـ منذ البداية ـ ان من المستحيل تقديم القصة فى عدد واحد ، ففكرت فى أن أجعلها فى عددين •• ولكننى لم ألبث أن تبينت ان العددين لن يسعاها ، ولو جمعت صفحاتهما كلها بالبنط الصغير • ووجدتنى مضطرا الى أن أقدمها لك فى ثلاثة أجزاء •• ومع هذا، فقد تبينت ان الاعداد الثلاثة لن تكفى ، اذا حرصت على ان تكون كلها بالبنط العادى ! •• وعلى هذا اضطررت الى أن أقدم لك قسما كبيرا من هذا العدد بالبنط الصغير، كما سأضطر الى أن أقدم لك قسما آخر فى العدد القادم بنفس البنط • • كل هذا لكى أعفيك من عناء انتظار جزء رابع ••

انني أدرك العناء الذي يترتب على الانتظار شهرا أو شهرين لكي تستكمل قراءة رواية .. وأحسبك تدرك ، بعد صحبتنا الطويلة التي اعتدت فيها ان أشركك معي في الرأى ، وان أطلعك على مايصادفني من متاعب .. أحسبك تدرك الآن مدى العناء الذى ألاقيه أنا الآخر من ناحيتي في سبيل التوفيق بين أحجام الشوامخ العالمية ، وبين حجم «مطبوعات كتابى» ، مع الاحتفاظ بالامانة التامة في الترجمة وفى نقل أسلوب المؤلف وتحليلاته وأفكاره ..

وعزاؤنا معا ، هو اننا نعمل متعاونين على سد فراغ في المكتبة العربية ، بنقل درر الادب العالمى الخالدة الى لغتنا ، واخراجها في طابع أنيق جذاب

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

چين إير

لشارلوت برونتي

الجزء الثاني



هكذا بدأت القصة ..
ملخص ماورد فى الجزء الاول

◆ كان أقصى ماتفتحت عليه عيناى ـ أنا « جين اير » ـ فى طفولتى ، هو اننى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال !.. فقد مات والداى ـ أحدهما اثر الآخر ، فى مدى شهر واحد ـ وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً، فكفلنى بعدهما خالى مستر « ريد » ، الـذى كان يعيش فى رخـاء ، فى قصر (جيتسهيد) ، ولكنـه لم يلبث ان توفى ، وتركنى فى رعاية ارملته مسـر « ريد » ..

ولم تكن حياتى فى قصر (جيتسهيد) نعيما .. كان « جون » ـ ابن خالى ـ يجد متعة فى ايذائى ، وكانت شقيقتاه « جورجيانا » و « اليزا » تتعاليان على ، بينما حرصت امهم مسز « ريد » على ان تعاقبنى بذنوبهم،وان تعمل على اذلالى.. كانت ترهقنى بالحرمان ، وتسومنى العذاب .. الى أن اصبت بالمرض ذات مرة، بعد ان حبستنى ارملة خالى فى غرفة مهجورة ، رهيبة ، استبد بى فيها الفزع. ودفعتنى الحالة النفسية التى خلفنى فيها هذا الحادث ، الى أن أروى للصيدلى ـ الذى عادنى وتولى علاجى ـ كل ما كنت ألاقيـه من عنت مسـز « ريد » واولادها وخدمها .. وحاول الرجل الطيب ان يساعدنى فيتصل بأى أقارب لى كى ينقذونى من الحياة فى قصر (جيتسهيد) ، ولكننى لم أكن أعرف أحدا من أقارب أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسز « ريد » من انهم فقراء ، وضيعون .. ولم أكن من الشـجاعة بحيث أشـترى حريتى بالفقر !.. ومن ثم اقترح الصيدلى على مسز « ريد » ان تلحقنى بمدرسةداخلية. ووجدت السيدة فى هذا الاقتراح وسـيلة للتخلص منى ، فألحقتنى بالفعـل بمدرسة فى (لو وود) ، تبعد عن القصر بمئـات الاميال

على اننى مالبثت ان علمت ان ارملة خالى لم تطوق عنقى بأى فضـل ، اذ كانت المدرسة معهدا خيريا لليتيمات !.. وكان خير عزاء لى فى حياتى الجديدة. ان مالت ناظرة المدرسـة ـ مس تمبـل ـ الى ، فراحت تغمرنى بعطفهـا ، وتشجعنى ..

* * *

◆ وقضيت فيالمدرسة ثماني سنوات:ستا منها كتلميذة ، واثنتين كمعلمة٠٠ وأتقنت فى تلك الاثناء العزف على (البيانو) ، والرسم ، كما أجدت اللغة الفرنسية ٠ ثم استبدت بى الرغبة فى مبارحة (لوورد) ، بعد ان تزوجت نصيرتى « مس تمبل » ، وغادرتها ٠٠ ومن ثم نشرت فى احدى الصحف اعلانا أنشد العمل كمعلمة ومربية لاطفال احدى الاسرات ٠٠ وسرعان ماتلقيت دعوة لاكون معلمة لتلميذة دون العاشرة من العمر ، لقاء ثلاثين جنيها فى العام ٠٠

وهكذا انتقلت الى قصر (ثورنفيلد) بالقرب من مدينة تدعى (ميلكوت) ٠٠ ولم يكن فى القصر سوى سيدة مسنة تدعى « مسز فيرفاكس » ـ عرفت فيما بعد انها المشرفة على القصر ، وليست ربته ـ وكانت تشرف أيضا على رعاية تلميذتى «اديل فارنس» ، التى كانت فى حوالى السابعة أو الثامنة من عمرها٠٠ وكانت نحيلة ، شاحبة ، لطيفة ، ولدت فى فرنسا ، وكفلها مستر «روشستر» ـ سيد القصر ـ فأحضرها الى انجلترا لتعيش فى كنفه ٠٠

ولم تكن « اديل » تذكر عن أبيها شيئا ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقنها ـ منذ طفولتها ـ الشعر والالقاء والرقص ٠٠ ولم ألق أنا بالا الى والدى تلميذتى ، فقد علمت انهما ماتا ٠٠ أما سيد القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس وأديل انه كان سيدا محترما ، يملك معظم أراضى المنطقة ، ويعتبره مستأجرو هذه الاراضى مالكا عادلا متحررا ٠٠ وكان كثير الاسفار والرحلات ، على شىء من الشذوذ ، وصفته مسز فيرفاكس بقولها : « ليس من السهل وصف ذلك الشذوذ ، وان كنت تحسينه عندما تتحدثين اليه، فلا تدرين أهو يمزح أم يجد ، أهو مسرور أو مستاء ٠٠ قصارى القول انه لايتسنى لك ان تفهميه جيدا ! » ٠٠ ولم أحفل بذلك كثيرا ، فقد كان السيد متغيبا ، وكان حنان مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتى بى ، وابهة القصر وفخامته وجمال المناظر المحيطة به٠٠كل هذه كانت تشغلنى عن السيد الغائب!

* * *

◆ ولم يكن فى القصر عدانا سوى مربية فرنسية جاءت مع أديل من اوربا ـ وتدعى « صوفى » ـ وحوذى يدعى « جون » وزوجته ، وخادم لتنظيف الدار تدعى « لياه » ٠٠ ولم يكن هؤلاء ينامون فى القصر ، وانما كانوا يشغلون صفا

من الحجرات الصغيرة خلف القصر ..

وكان يخيم على القصر طابع غريب ، يبدو فى أجلى صوره فى الطابق الثالث، الذى كان مكتظا بقطع من الاثاث عريقة فى القدم ، بل أثرية .. وأوحى الى جوه بالاشباح ، فسألت مسز فيرفاكس عما اذا كانت تظهـــر فى القصر أشباح ، فقالت : « لم أسمع عن وجود واحد منها .. ومع ذلك ، يقال ان افراد اسرة روشستر كان يغلب عليهم - فى الماضى - العنف ، ولعل هذا سر هدوئهم الآن فى قبورهم !

وفيما كانت مسز فيرفاكس تطوف بى حجرات هذا الطابق ، سمعت وسط الهدوء الشامل ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كئيبة !..وتكررت الضحكة فى جلجلة صاخبة ، من وراء باب احدى حجرات الطابق ، فقالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول ! .. فانى كثيرا ما أسمعهـــا ترسل مثل هذه الضحكة اذا مازارتها لياه وهى منصرفة الى الحياكة فى احدى الغرف ! » .. وأخذت الضحكة تتكرر بعد ذلك بشكل رهيب ، غير طبيعى ، تعقبها همهمة !.. فصاحت مسز فيرفاكس : «جريس !».. وما لبثت انأقبلت من احدى الغرف امرأة ربعة القوام ، بين الثلاثين والاربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الاسارير ، أقرب الى ان تكون شبحا مخيفا !.. وأخذت مسز فيرفاكس تؤنبها على الضحك ، فاستنتجت انها الخادم الغريبة الاطوار !

وأصبحت أسمع - فى خلواتى - هذه الضحكة الغريبة ، الرهيبة ، تجلجل ، ثم تعقبها غمغمة شاذة .. وكنت أرى « جريس » - فى بعض الاحيان - تغادر غرفتها وهى تحمل حوضا أو صحنا أو صينية ، تهبط بها الى المطبخ ، ثم تعود حاملة وعاء مليئا بالطعام .. وكان مظهرها يخالف تصرفاتها الصوتية الشاذة ، فقد كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة .. وكثيرا ماحاولت استدراجها الى الحديث ، فكانت تبدى زهدا فيه ، وتجيب باقتضاب يقطع على المرء أى أمل !

★ ★ ★

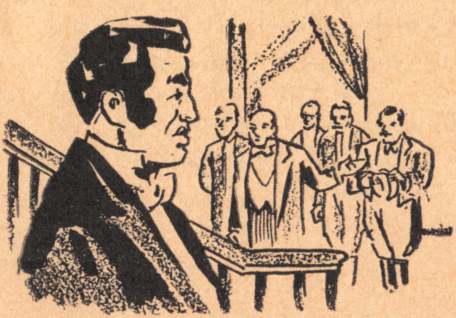
◆ وفى عصر أحد أيام شهر يناير - وكنت قد قضيت ثلاثة أشـــهر فى القصر - خرجت أسعى على قدمى الى قرية (هاى) التى كانت تبعد بمسافة لاتتجاوز ميلين .. وعندما بلغت طريقا ضيقا على سفح التل المفضى الى القرية ،

استبد بى الخوف ، اذ فوجئت بكلب ضخم يبرز من بين الاحراش ٠٠ ثم أعقبه سيد على ظهر جواد ٠٠ ولكن الجواد لم يلبث ان انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه ٠ وخففت الى مساعدته ، فتقبل المساعدة فى جفاء وخشونة ٠٠ وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، اسمر البشرة ، ذا قسمات جادة ، وحاجبين غزيرين يلتقيان فوق عينيه ٠٠

٠٠ ثم انطلق الفارس فى طريقه ، بينما تابعت سيرى الى القرية التى كنت أقصدها ٠٠ وعندما عدت الى القصر وقد هبط الليل ، وجدت حجرة المائدة الكبيرة مضاءة ، والنيران تتلظى فى مدفآتها ٠٠ وعلمت ان مستر « روشستر » سيد القصر قد عاد ٠٠ وانه أرسل فى استدعاء طبيب لان جواده قد انزلق به فى الطريق فالتوت قدمه !

... ...

والآن ، تستطيع أن تتابع قراءة هذه القصة الرائعة !



الفصل الثالث عشر

◆ **أوى** مستر روشستر الى فراشه مبكرا فى تلك الليلة بأمر الطبيب ـ فى الغالب ـ كما انه لم يستيقظ مبكرا فى الصباح التالى ٠٠ ولم يهبط من الطابق العلوى الا ليباشر أعماله ، لان وكيله وبعض مستأجرى أرضه كانوا قد وصلوا وراحوا ينتظرونه ليتحدثوا اليه

واضطررت أنا و « أديل » الى أن نخلى حجرة المكتبة ، لان الحاجة كانت تدعو الى استعمالها كغرفة لاستقبال الزوار ،ومن ثم أشعلت نارا فى حجرة أخرى بالطابق العلوى حملت اليها كتبنا ، وأعددتها لتكون فى المستقبل غرفة للدراسة ٠ **وتبينت خلال الصباح ان قصر (ثورنفيلد هول) قد أصبح شيئا آخر مغايرا لما كان عليه من قبل ٠٠ فلم يعد ساكنا سكون الكنيسة، بل كانت تتردد فى أرجائه ـ كل ساعة أو اثنتين ـ طرقات على أحد الابواب أو رنين من أحد الاجراس ، ثم كثرت الاقدام التى تذرع البهو ، وارتفعت فى الطابق الاعلى أصوات جديدة متباينة الايقاع ، وكأن نهرا من العالم الخارجى قد فاض خلال**

القصر بعد ان عاد اليه سيده !٠٠ على انى ابتهجت من ناحيتى لذلك !

أما « أديل » فلم يكن من السهل تلقينها الدرس فى ذلك اليوم ، اذ أنها لم تقو على المواظبة عليه ، بل ظلت تجرى الى الباب وتطل من أعلى « الدرابزين » لترى هل تستطيع الظفر بنظرة خاطفة الى مستر روشستر ! ٠٠ ثم أخذت تنتحل المعاذير للهبوط الى الطابق الاسفل لتسعى - فيما حسبت - الى المكتبة ، حيث لم يكن أحد فى حاجة اليها !٠٠ وكنت اذا تولانى بعض الغضب وأكرهتها على الجلوس والانصات للدرس ، أجدها تتحول الى الحديث بلا انقطاع عن « عزيزها مسيو ادوار فيرفاكس دى روشستر » ، كما كانت تلقب سيد القصر ! - ولم أكن قد سمعت بألقابه هذه من قبل - كما مضت تحدس أية هدايا جاء بها ، بعد ان قال فى الليلة الماضية ان بين متاعه القادم من (ميلكوت) حقيبةصغيرة ستجد فى بعض محتوياتها ما يهمها ٠ وأخذت تقول بالفرنسية : « معنى ذلك ان الصندوق يضم هدية لى ، وربما لك كذلك يا آنسة ٠٠ فقد تحدث السيد عنك ، وسألنى عن اسم « معلمتى » ، وعما اذا كانت صغيرة الجسم ناحلة ، شاحبة بعض الشىء ٠٠ فرددت عليه بالايجاب ، لان هذا هو الواقع ٠ أليس كذلك يا آنسة ؟ »

وتغديت مع تلميذتى كالعادة فى حجرة مسز فيرفاكس ٠٠ وجاء العصر عاصفا كثير الثلوج ، فقضيناه فى حجرة الدراسة ٠٠ حتى اذا هبط الظلام ، سمحت لاديل بأن تقصى كتبها وتكف عن عملها ، لتبادر بالهبوط الى الطابق الارضى ٠٠ بعد ان حدست من السكون النسبى الذى ساده ، ومن انقطاع رنين الجرس ، ان مستر روشستر قد فرغ من زواره ٠ ووجدتنى أخلو الى نفسى ، فمضيت الى النافذة ، غير اننى لم أستطع رؤية شىء خلالها ، لان الغسق وندف الثلج تضافرا معا على

زيادة كثافة الهواء واخفاء شجيرات المروج ٠٠ فأنزلت الستار، وعدت الى جانب المدفأة ، ورحت أترسم فى جذوات النـــار المتوهجة منظرا يشبهصورة أذكر اننى رأيتها لقلعة (هيدلبرج) على ضفاف (الراين) ٠٠ وما لبثت مسز فيرفاكس ان قدمت لتقطع بدخولها حبل تصوراتى ، وتبدد الخواطر الثقيلة التى بدأت تتزاحم على فى وحدتى ٠ وقالت : « يسر مستر روشستر أن تتناولى وتلميذتك الشاى معه فى حجرة الاستقبال هــذا المساء ، فقد شغلته أعماله طوال النهار عن طلب مقابلتك قبل الآن » ٠٠ فسألتها : « ومتى يتناول الشاى ؟ »

ـ فى السادسة ، فهو يراعى التبكير فى الريف ٠ ويجمل بك أن تغيرى ثوبك الآن ، وسأذهب معك لاعاونك ٠٠ ها هى ذى الشمعة

ـ وهل من الضرورى أن أغير ثوبى ؟

ـ نعم ٠٠ يحسن ذلك ، فاننى أتزين دائما فى المساء متى كان مستر روشستر هنا !

وبدا لى هذا الحرص على المظاهر ضربا من الابهة والفخفخة، فذهبت الى حجرتى واستبدلت بثوبى ـ بمعاونة مسز فيرفاكس ـ ثوبا من الحرير الاسود كان خير ما أملك ، فيما عدا ثوب رمادى كنت ـ فيما درجت عليه من آراء فى الزينة عندماكنت فى (لو وود) ـ أرى انه أبدع من أن أرتديه فى غير المناسبات الفريدة !

وقالت مسز فيرفاكس : « أنت فى حاجة الى بروش » ٠٠ وكان لدى دبوس واحد ذو رصيعة (بروش) ، كانت مسز تمبل قد منحتنى اياه كتذكار ، عندما افترقنا ٠ ومن ثم تزينت وهبطنا الدرج ٠ ولما كنت غير معتادة على مقابلة الاغراب ، فقد بدا استدعائى ـ بهــذا الشكل الرسمى ـ الى حضرة مستر روشستر ، بمثابة امتحان لى ٠ ولذلك تركت مسز فيرفاكس تتقدمنى الى حجرة المائدة ، ولازمت ظلها الى أن اجتزنا تلك

الفظ ، فلم يكن يفرض على أن ألتزم مسلكا متكلفا • بل ان الامر كان على النقيض ، اذ أتاح لى الصمت والارتقاب فرصة مواتية • فقد كانت البداية الشاذة مثيرة ، فرغبت فى ان أرى كيف سيمضى السيد فى مسلكه !

وظل فى جلسته كالتمثال ، لا يتكلم ولا يتحرك • ويبدو أن مسز فيرفاكس رأت أن من الواجب ان يكون أحدنا ظريفا ، فبدأت تتحدث حديثا رقيقا كالعادة ، مبتذلا لكثرة استعماله كالعادة ، فراحت تبدى اشفاقها عليه من كثرة أعمـــاله التى استغرقت النهار بأكمله ، ومن الآلام التى كانت تسـببها له قدمه الملتويه ، ثم أخذت تثنى على صبره ومثابرته ، بيد انها لم تلق جزاء على ذلك سوى قوله : « اننى أرغب ياسيدتى فى تناول الشـــاى » ! •• فأسرعت تدق الجرس ، ولما جاءت الصينية ، أخذت ترتب الاقداح والملاعق وغيرها ، بجدورشاقة. بينما مضيت أنا وأديل الى المائدة • ولكن السيد لم يغـــادر متكأه

وقالت لى مسزفيرفاكس : « أرجو انتقدمى لمستر روشستر قدحه ، خشية ان تريقه أديل » •• ففعلت ماطلبته •• وفيما كان يتناول القدح من يدى ، رأت أديل الفرصة مواتية لخدمتى فصاحت : « أليست هنـــاك هدية للآنســـة اير فى حقيبتك الصغيرة ياسيدى ؟ » • فأجاب بخشونة وفظاظة : « من هـــذا الذى يتحدث عن الهدايا ؟ أكنت تتوقعين هدية يامس اير ؟ هل أنت مغرمة بالهدايا ؟ »

وراح يتأمل وجهى بعينين ــ رأيتهما ــ سوداوين غاضبتين نفاذتين •• وقلت : « لا أعرف تماما ياسـيدى ، فان خبرتى بالهدايا ضئيلة ، ولكنها تعدبصفة عامة من الاشياء الشائقة !»

ــ تعد بصفة عامة ! وماذا تعدينها أنت ؟!

ــ اننى فى حاجة الى بعض الوقت قبل انأعطيك جوابا تتقبله:

الحجرة ، ثم مررنا تحت القوس المسدلة الستائر ، ودلفنا الى الحجرة الانيقة التى كانت خلفها • وكانت ثمة شمعتان على المائدة ، وأخريان على المدفأة ، وقد رقد « بايلوت » ـ الكلب ـ يصطلى فى ضياء الموقد وحرارته ، والى جانبه ركعت أديل ! • وكان مستر روشستر مضطجعا على أريكة ، وقدبسط قدميه على وسادة ، وراح يتأمل أديل والكلب ، ووهج النار ينعكس على وجهه • وتبينت فيه نفس المسافر الذى صادفته فى الطريق !•• عرفته بحاجبيه البارزين ، وجبينه العريض ، الذى ضاعف من عرضه شعره الاسود المنسق الى الخلف •كما ميزته بأنفه الذى كان ينم عن خلق حاسم أكثر مما كان ينطق بالجمال ! وبفمه وذقنه وفكه ، وكلها تدل على الصلابة •• أجل ، كانت هذه القسمات الثلاث جد متجهمة بلا ريب • أما قوامه ، فقد رأيته ـ بعد ان خلع معطفه ـ منسجما مع قسمات وجهه •• كان قواما رياضيا ، عريض الصدر ، نحيل الخصر ، ولكنه لم يكن فارع الطول أو ممشوقا

ولا شك ان مستر روشستر قد فطن الى دخول مسز فيرفاكس ودخولى ، ولكنه لم يكن متهيئا للنظر الينا ـ على مابدا ـ لانه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه • وقالت مسز فيرفاكس بطريقتها الهادئة : « ها هى ذى الآنسة اير ياسيدى » •• وعندئذ أحنى السيد رأسه ـ دون ان يرفع عينيه عن الكلب والطفلة ـ وقال : « دعى الآنسة تجلس »

وكان فى انحناءة رأسه المتكلفة الجافة ، وفى اللهجة الرسمية النافذة الصبر ، ماينطق برغبته فى القول : « ما الذى يعنينى بالله من وجود الآنسة اير أو عدمه ؟•• لست الآن راغبا فى التحدث اليها ! »

وجلست دون أن يساورنى شىء من الارتباك ، بل لعلنى كنت أرتبك لو انه استقبلنى بأدب جم ، فما كنت اذ ذاك لاعرف كيف أرد عليه ، فى تلطف ولباقة • أما هذا الجفاء

ان للهدية وجوها كثيرة ، أليس كذلك ؟ وعلى الانســان ان يدرسها كلها قبل ان يدلى برأيه فى ماهيتها !

ـ انك لست ساذجة نزقة مثل أديل التى تطالب فى ضجة وصخب بالهدايا بمجرد ان ترانى ،ولكنك تجسين النبض أولا !

ـ لاننى أقل من أديل ثقة باستحقاقى ، لذلك فهى تفضلنى بمعرفتها السابقة بك ، وبحقها عليك ، ثم بحكم العادة ٠٠ اذ تقول انك اعتدت دائما أن تعطيها لعبا ٠٠ أما أنا فقد يتولانى الارتباك لاننى غريبة ، ولاننى لم أفعل ما يؤهلنى لترقب المكافأة!

ـ أوه ٠٠ لا تبالغى فى الادب والتواضع ٠ لقـد اختبرت أديل ولمست ما عانيته أنت معها ٠٠ انها ليست ذكية ،وليست موهوبة ، ولكنها تقدمت فى فترة وجيزة تقدما محسوسا

ـ انك ياسيدى بهذا قد قدمت لى هديتى ، وانى لشـاكرة لان أشهى مايسعى اليه المعلمون هو اطراء تقدم تلاميذهم !

فشرب الشاى فى صمت ، حتى اذا رفعت الصينية قال : « اقتربى من الموقد ! »

★ ★ ★

• وكانت مسز فيرفاكس قد التزمت ركنـــا ، وانهمكت فى أشغال الابرة ، بينما كانت أديل تمسك بيدى وتطوف بى الحجرة لتفرجنى عـــلى الكتب الجميلة والزخـارف التى تعلو المناضد ٠ وصدعت بالامر ٠ وأرادت أديل ان تجنس عـــلى ركبتى ، ولكنه أمرها بأن تتلهى مع « بايلوت » ، ثم سألنى : « هل أقمت فى منزلى ثلاثة أشهر ؟ »

ـ نعم ياسيدى

ـ وجئت من ٠٠؟

ـ من مدرسة (لو وود) فى مقاطعة ٠٠٠

ـ آه ٠٠ مؤسسة خيرية ٠٠ كم قضيت هناك ؟

ـ ثمانى سنوات

ــ ثمانى سنوات ! لابد انك متشبثة بالحياة ٠ كنت أحسب ان نصف هذه المدة كاف للقضاء على أية بنيـــة ، فلا عجب أن تكونى كمن يعيش فى عالم آخر غير عالمنا ٠ ولقد تساءلت من أين لك هذا الوجه ــ عندما شاهدتك فى طريق هاى فى الليلة الماضية ــ ووجدتنى أفكر فى القصص الخرافيـــة ، وكدت أسألك هل سحرت لى جوادى ٠٠ وان كنت لا أزال فى ريب من ذلك ٠ من هم أهلك ؟

ــ ليس لى أحد !

ــ وأحسب ان لم يكن لك أحد من قبل ٠٠ أتذكرين والديك؟

ــ كلا

ــ هذا ما حدست ٠ ولذلك كنت تنتظرين قومك عنـــدما رأيتك تجلسين فوق حجر ناصية الدرب

ــ أنتظر من ياسيدى ؟

ــ ذوى الثياب الخضراء ! كان ضوء القمر مناسبا فى ذلك المساء لظهورهم ! ترى هل اخترقت أنا أحد الطلاسم التى كنت تنشرينها فوق ذلك الجليد اللعين على الجسر ؟

فهززت رأسى وقلت متظاهرة مثله بالجد : « ان ذوى الثياب الخضراء قد هجروا انجلترا منذ مائة سنة ، ولن تجد أثرا لهم فى طريق (هاى) ولا فيما حوله من حقول ، كما لا أعتقد ان القمر ــ سواء فى الصيف أو الشـــتاء أو موسم الحصـــاد ــ سيضفى ضياءه مرة أخرى على حفلاتهم الصـــاخبة وقصفهم المرح ، الذى ورد فى الاساطير » ٠٠ فتركت مسز فيرفاكس الشغل الذى كانت تطرزه ، ورفعت حاجبيها ، وكأنها تتساءل أى نوع من الحديث هذا ٠ واسترسل مستر روشستر يقول: « حسنا ٠٠ اذا كنت بلا والدين ، فلابد ان لك أقارب : أعمام أو عمات ؟ »

ــ كلا ٠٠ لم أر واحدا منهم !

ــ ومنزلك ؟

ـ ليس لى منزل !

ـ وأين يعيش اخوتك وأخواتك ؟

ـ لا اخوة لى ولا أخوات !

ـ من زكى مجيئك الى هنا ؟

ـ نشرت اعلانا ردت عليه مسز فيرفاكس !

فقالت السيدة الطيبة التى عرفت الآن موضوع حديثنا : « نعم ، وأنا أحمد الله فى كل يوم على ان وفقتنى العناية الى هذا الاختيار ، لان الآنسة اير غدت لى رفيقة لا سبيل الى تقدير قيمتها ، ومعلمة شفيقة شديدة العناية بأديل » · فرد مستر روشستر قائلا : « لا تتعبى نفسك فى امتداح أخلاقها ، فان الثناء لايحملنى على المحاباة ، وسوف أحكم عليها بنفسى بعد أن بدأت باسقاط جوادى » · فهتفت مسز فيرفاكس مشدوهة: « سيدى ! »

ـ ويجب ان أشكرها على هذا الالتواء !

فتجلت الحيرة على الارملة ، ولكنه استرسل يسألنى : « هل عشت من قبل فى احدى المدن يا آنسة ؟ »

ـ كلا ياسيدى

ـ وهل اختلطت كثيرا بالمجتمع ؟

ـ لم اختلط بغير التلميذات والمعلمات فى (لو وود) ·· ثم بأهل (ثورنفيلد) !

ـ هل قرأت كثيرا ؟

ـ لم أقرأ سوى ما صادفنى ـ فى حياتى المحدودة ـ من الكتب · وهى ليست متعددة ، ولا تحتوى جانبا كبيرا من الثقافة !

ـ لقد عشت مثل حياة الراهبة ، فانت بلا ريب ذات خبرة واسعة بأمور الدين·ان « بروكلهيرست» ـ الذى يدير (لو وود) فيما أعتقد ـ قسيس أو راعى كنيسة · أليس كذلك ؟

ـ نعم ياسيدى

- اذن فلعل البنات كن يعبدنه ، كما يعبد الدير الزاخر بالمتدينات مديره ؟

- أوه . كلا !

- يالك من باردة الطبع ! كيف لا تعبد راهبة قسيسها ؟ ان هذا يبدو نوعا من التجديف !!

- لقد كنت أكره مستر بروكلهيرست ، ولم أكن الوحيدة التى يساورها هذا الاحساس ، لانه رجل فظ ، مغرور ومتطفل معا .. أمر بقص شعرنا ، وبدافع من الاقتصاد اشترى لنا ابرا وخيطا يتعذر الحياكة والتطريز بها

وعادت مسز فيرفاكس تستولى على دفه الحديث ، قائلة : « كان أقتصادا زائفا ! » .. فتساءل مستر روشستر : « هل هذا كل ما أحنقكن عليه ؟ »

- لقد ضورنا جوعا عندما كان يتولى الاشراف على شئون التموين قبل تأليف اللجنة . كما كان يضايقنا بمحاضراته الطويلة فى كل أسبوع ، وبقراءات مسائية فى كتب من تأليفه، عن الموت المفاجىء والقصاص ، مما كان يجعلنا نخشى الذهاب الى أسرتنا !

- كم كان عمرك عندما ذهبت الى لو وود ؟

- نحو عشرة أعوام

- وقد مكثت هناك ثمانى سنوات ، فأنت الآن اذن فى الثامنة عشرة ؟

فرددت بالايجاب . واذ ذاك ، قال : « هأنتذى ترين فائدة الحساب ، فلولاه ما استطعت تقدير سنك ، لانه يصعب ان يقطع الانسان بما اذا كانت قسمات الوجه والاسارير لاتتفق مع حقيقة السن كما هو الحال معك . والآن .. ماذا تعلمت فى (لو وود) ؟ هل تستطيعين العزف ؟ »

- قليلا ..

ـ بالطبع ٠٠ هذا هو الرد الاكيد ! اذهبى الى المكتبة ٠٠ أعنى اذا سمحت !٠٠ ومعذرة على لهجتى الآمرة ، لاننى اعتدت ان أقول « افعل هذا » ، فاذا هو مفعول !٠٠ اذهبى اذن الى المكتبة ، وخذى شمعة معك ، واتركى الباب مفتوحا ، ثم اجلسى الى البيانو واعزفى لحنا

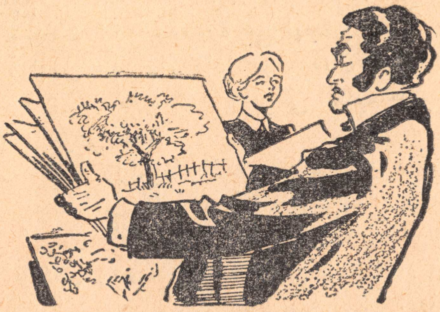
فذهبت اطاعة لاوامره ولكنه ما لبث بعد دقائق ان صاح : « كفى ! انك تعزفين كأية تلميذة انجليزية ٠ وقد تكونين أكثر اجادة من غيرك ولكنه عزف أقل مما ينبغى » ٠٠ فأغلقت البيانو ، وقفلت راجعة ، فاسترسل يقول : « ان أديل أرتنى صباح اليوم بعض رسومات تخطيطية قالت انها من رسمك ، وان كنت لا أدرى اذا كانت كلها من عملك أو ان أستاذا ساعدك فيها ؟ » ٠ فاعترضت قائلة : « كلا ، انها فى الواقع من عملى ! »

ـ آه ، هذا يمس كبرياءك !٠٠ اذن ، أرينى ماعندك اذا كنت تصرين على انه من رسمك حقا ، ولكن لاتقسمى الا اذا كنت متأكدة ، لاننى أستطيع ان أميز من الاعمال ماهو زائف أو منتحل

ـ اذن فلن أقول شيئا حتى تحكم بنفسك ياسيدى !

وأحضرت حافظتى من المكتبة ، فقال : « قربى المنضدة! » ٠٠ فدفعتها الى متكئه ، واقتربت أديل ومسز فيرفاكس لمشاهدة الصور ، فقال : « لا أريد تزاحما ٠ خذا الرسومات من يدى متى فرغت منها ، ولكن لا تدفعا وجهيكما نحو وجهى ! » ٠٠ وأخذ يطيل النظر والتمعن فى كل رسم ، ثم وضع ثلاثة منها جانبا ٠ حتى اذا انتهى من فحص الرسوم الاخرى ، طوح بها بعيدا عنه وقال : « احمليها يامسز فيرفاكس الى المنضدة الاخرى ، وتطلعى انت وأديل اليها

وبعد ذلك رنا الى ، ثم استطرد قائلا : « عودى الى مقعدك وأجيبى عن أسئلتى : أرى ان تلك الصور رسمتها يد واحدة



.. فهل هى يدك ؟ » .. قلت : « نعم »

– ومتى وجدت وقتا لرسمها ؟ لقد استغرقت وقتا طويلا وبعض التفكير !

– رسمتها أثناء الاجازتين الاخيرتين فى (لو وود) عندما لم يكن لدى عمل آخر

– ومن أين جئت بالنماذج ؟

– من رأسى !

– هذا الرأس الذى أراه الآن بين كتفيك ؟!

– نعم ياسيدى !

– وهل به رياش من الطراز الذى رسمتيه فى الصور الاخرى ؟

– أظن ذلك .. بل أرجو ان يكون به ماهو خير من ذلك وأبدع !

فبسط الصور أمامه وراح يتفحصها عدة مرات . وفيما هو منهمك فى ذلك ، سأخبر القارىء بما كانت تحويه . ويجب أولا آن أستهل بأنها لم تكن رائعة بحال ، وان موضوعاتها نبتت زاهية فى رأسى ، وكانت عندما رأيتها بعين الخيال – قبل ان أجسمها – أخاذة رائعة ، غير أن يدى لم تقو على معاونة

خيالى ، فجاءت صورة باهتة لما تمثلته من قبل !٠٠ وكانت الصور الثلاث مرسومة بالالوان المائية ، وتمثل أولاها سحبا قريبة زرقاء تتدحرج فوق بحر خضم ، وقد ظهرت نهاية الصورة من بعيد — كمقدمها القريب — غارقة فى الظلام ، والامواج ، اذ أن الصورة كانت خالية تماما من كل أرض ٠ ولم يكن يهتك ذلك الظلام سوى خيط من الضياء يكشف عن شراع غارق لنصفه ، وقد جثم عليه غراب من غربان البحر بجسمه الداكن وجناحيه المرصعين بالزبد ، بينما أمسك بمنقاره سوارا من ذهب تزينه أحجار كريمة استعنت فى رسمها بكل ماكان لدى من ألوان ،وجلوت تألقها بكل مافى قلمى الرصاص من قوة !٠٠ وتحت الطائر والشراع — بين المياه الخضراء — طفت جثة غارقة لايظهر منها سوى الذراع التى سقط منها السوار !

أما الصورة الثانية ، فكان جزؤها الامامى لايحوى سوى قمة تل معتم ، تكسوه حشائش وأوراق مالت مع النسيم ، وعلى مبعدة من التل وفوق هامته ، تنبسط سماء واسعةزرقاء بضوء الغسق ، بينما ترتفع نحو السماء صورة نصفية لامرأة يأتلق على جبينها نجم ، وتبدو قسماتها شاحبة ، وكأنهاملفوفة بضباب من البخار : عينان سوداوان تأتلقان ، وشعر ينساب كالظلال ، أو كسحابة قاتمة مزقتها يد الانواء ، أومستها كهرباء ، وعنق ينعكس عليه ضياء باهت كنور القمر !

أما الصورة الثالثة ، فكانت تمثل جبلا من جبال الثلج الشامخة ، وهو يناطح السماء فى شتاء المنطقة القطبية ، كما تمثل حشدا من أضواء الشمال شرعت رماحها الداكنة فى الافق الى مسافات بعيدة ، بينما ظهر فى صدر الصورة رأس يعتمد على يدين ، ويغطيه خمار رقيق تظهر من خلفه عين غائرة خالية من كل معنى سوى اليأس والقنوط ٠٠ وكانت على

الرأس عمامة سوداء يتألق بين طياتها هلال يرصعه شرار كالح اللون ، يمثل فى مجموعه تاجا !

وفجأة ، سألنى مستر روشستر : « هل كنت تشعرين بسعادة وأنت ترسمين هذه الصور ؟ »

– كانت تستغرقنى ياسيدى ، وكنت سعيدة بها ! وقصارى القول ، وجدت فى رسمها أعظم أسباب السعادة التى عرفتها فى حياتى !

– ليس فى هذا القول مبالغة ، اذ يبدو ان أسباب سعادتك – كما يؤخذ من أقوالك – كانت محدودة ، ولكنى أظنك كنت تعيشين فى عالم من أحلام الفنانين وأنت تمزجين وترتبين هذه الالوان العجيبة .. هل كنت تجلسين أمامها طويلا فى كل يوم ؟

– لم يكن لدى شىء آخر يشغلنى ، لاننى كنت فى عطلة ، فأخذت أجلس اليها من الصباح حتى الظهر ، ثم من بعد الظهر حتى الليل . وكان طول النهار فى أيام الصيف معينا لى على اشباع ميولى

– وهل ارتاحت نفسك لنتيجة هذه الجهود الجبارة ؟

– كلا .. لم ترتح على الاطلاق ، اذ كان يعذبنى الفارق الكبير بين مايرتسم فى ذهنى ، وما تصنعه يدى . وكنت فى كل مرة أتصور شيئا لا أقوى على ابرازه

– ليس هذا بالتعبير الصحيح ، فقد كنت متمكنة من الفكرة التى راودت خيالك ، ولكنك لم تؤت من العلم والمهارة الفنية مايجعل رسمك صورة حية كاملة . ومع ذلك ، فان هذه الصورة عجيبة بالنسبة لتلميذة ! .. أما عن الافكار ، فهى خرافية .. ولعلك شاهدت فى الحلم عينى المرأة السوداوين تأتلقان ، لان الكوكب الذى يضىء الصورة ويعلوهما كفيل بأن يبدد تألقهما ! ثم ما معنى ظهور العين غائرة ؟ ومن الذى علمك تصوير الرياح حتى ترسمى رياحا هوجاء عالية فى السماء فوق قمم التلال ؟!

وما كدت أحزم حافظة أوراقى ، حتى تطلع الى ساعته وقال فى غلظة واقتضاب : « الساعة التاسعة ! كيف تتركين أديل جالسة فى انتظارك طوال هذا الوقت ؟ امض بها الى فراشها !» .. فذهبت أديل تقبله قبل ان تغادر الحجرة ، واحتمل هو مجاملتها ، وان لم يتذوقها بأكثر مما لو كان كلبه « بايلوت » هو الذى فعل ذلك ! .. ثم أشار الى الباب اشارة من مل صحبتنا ورغب فى اقصائنا ، وقال : « طابت ليلتكما ! »

فتناولت حقيبتى وانحنينا له فى أدب ، ولكنه رد علينا بايماءة جافة . وهكذا انسحبنا ، حتى اذا لحقت بمسز فيرفاكس فى حجرتها بعد ان أسلمت أديل الى فراشها ، قلت لها : « لقد أخبرتنى ان مستر روشستر ليس على جانب ملحوظ من الشذوذ .. »

ـ نعم .. أليس هو كذلك ؟

ـ أظنه غاية فى التقلب والفظاظة !

ـ هكذا يبدو للغريب عنه ، ولكنى تعودت طباعه ولم أعد أعجب منها قط ! ومع ذلك .. اذا كان فى طباعه شذوذفيجب ان نتجاوز عنه !

ـ لماذا ؟

ـ لان هذه طبيعته من جهة ، فليس لنا حول ولا قوة فى ذلك ، ولان لديه ، من جهة أخرى ، أفكارا مؤلمة تنكد عليه صفوه وتعذب روحه !

ـ أية أفكار ؟

ـ ان له متاعبه العائلية .. من ناحية !

ـ ولكنه بلا عائلة ؟!

ـ ليست له أسرة الآن ، ولكن .. كان له بعض أقارب على الاقل .. وقد فقد أخاه الاكبر منذ سنوات قلائل

ـ أخاه الاكبر ؟

ـ نعم ، فان مستر روشستر الحالى لم يطل عهده بتولى

شئون هـذه الممتلكات ، انما آلت اليه منذ حوالى تسـع سنوات فقط

ـ ان تسع سنوات مدة معقولة ، فهل كان شـديد التعلق بأخيه بحيث يظل الى الآن غير قادر على احتمال فقده ؟

ـ كلا ٠٠ ربما كلا ، فانني أعتقد انه قد نشب بينهمـا سوء تفاهم نتيجة لان مستر رولاند روشستر لم يكن منصفا مع أخيه مستر ادوارد ، وربما كان قد أوغر عليه صدر والده ، اذ كان السيد الكبير يحب المال ، كما كان راغبا فى أن تظل أملاك الاسرة وحدة واحدة ، فلم يشأ أن يبددها بالتقسيم ، ومـع ذلك فانه كان شديد الرغبة فى ان يصيب مستر ادوارد ثروة ، هو الآخر ، ليحافظ على كرامة اسمه ٠ ولكن ما ان بلغ مستر ادوارد سن الرشد ، حتى اتخـذت بعض اجراءات لم تكن عادلة ، بل أنزلت به كثيرا من الضرر ٠٠ ثم اتحـد مستر روشستر الكبير مع مستر رولاند على ان يضعا ادوارد فى مركز اعتبره هو مؤلما ، وان كنت لا أدرى الى الآن طبيعة هذا المركز بالضبط ، ولكنه لم يشأ أن يصفح عنهما ، فقاطع أسرته ٠٠ ومنذ ذلك الحين ـ منذ سنوات عديدة ـ وهو يعيش حيـاة غير مستقرة ، ولا أحسبه أقام فى (ثورنفيلد) مرة لاكثر من أسبوعين كاملين ، لان وفاة أخيـه بلا وصية جعلته مالـكا للمقاطعة ، ولا عجب فى الحقيقـة اذا كان يعـرض عن المكان القديم

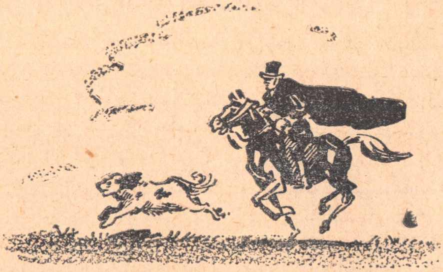
ـ ولماذا يعرض عنه ؟

ـ لعله يراه مقبضا للنفس !

وكان الرد ينطوى على مراوغة ، فى حين اننى كنت أطمع فى ان يكون أكثر صراحة ووضوحا ٠ ولكن الظـاهر ان مسز فيرفاكس لم تكن تملك مايمكنها من الافصاح ، أو انها لم تشأ أن تدلى الى بمعلومات أكثر صراحة عن أصل وطبيعة المحن التى

كان مستر روشستر يعيش فيها . وقد أكدت لى ان فى الامر سرا لم تكن تعلمه ، وان ما تعرفه كان من باب الحدس والتخمين . وكان واضحا جليا انها ترغب فى ان نسقط هذا الموضوع من حسابنا ، ففعلت بناء على رغبتها !

الفصل الرابع عشر



لم أر مستر روشستر فى بضعة الايام التالية الا لماما .. فقد كان يبدو فى الصباح جد مشغول بأعماله ، أما بعد الظهر فكان بعض السادة من (ميلكوت) أو البقاع المجاورة يزورونه ويمكثون أحيانا حتى يتعشوا معه . وعندما تحسن التواء قدمه وبات فى وسعه امتطاء جواده ، راح يكثر من الخروج به ، ولعله كان يرد هذه الزيارات ، لانه لم يكن يعود الا فى ساعة متأخرة من الليل

وفى تلك الاثناء ، كان يندر أن يدعو أحدا - حتى أديل - الى حضرته ، كما ان مقابلاتى له لم تتعد حدود اللقاء العابر فى الردهة ، أو على الدرج ، أو فى القاعة الكبرى ، فكان يمر بى أحيانا فى تعاظم وبرود دون أن يعير وجودى أكثر من ايماءة عن كثب ، أو نظرة فاترة ، أو انحناءة ، أو ابتسامة فى بعض الاحيان - كما يفعل السادة اذا تلطفوا !.. ولم تكن هذه التغيرات فى مزاجه تكدر صفوى ، لاننى لم أكن أرى لنفسى يدا فى تقلباتها ، بل كان مدها وجزرها يرجعان الى أسباب لا تمت الى بأية صلة !

وذات يوم ، دعا السيد جماعة للعشاء ، وأرسل فى طلب حافظة أوراقى لكى يستعرض محتوياتها بلا ريب ، ثم خرج السادة بعد ذلك مبكرين لحضور اجتماع عام فى (ميلكوت) ، كما بلغنى من مسز فيرفاكس . ولما كانت الليلة

مطيرة قاسية ، فان مستر روشستر لم يخرج فى رفقتهم ، فما ان رحلوا ، حتى دق الجرس وجاءتنى دعوة لكى أنزل مع أديل الى الطابق الارضى ،فنسقت لها شعرها وهندمت ملابسها ٠ وبعد ان استوثقت من اننى قد ارتديت ثوبا مناسبا لايحتاج الى اصلاح ٠٠ ثوبا غاية فى الاحتشام والبساطة ، نزلنا معا ، وأديل تتساءل اذا كان الصندوق الصغير قد جاء - أخيرا - بعد أن تأخر حضوره بسبب بعض الاخطاء ؟!٠٠ وعندما دخلنا حجرة الطعام أرضاها أن شاهدت علبة من الورق المقوى على المائدة ٠ ويبدو انها أدركت انها بغيتها بغريزتها ، اذ صاحت وهى تجرى الى المائدة : « صندوقى ! صندوقى ! »

فقال مستر روشستر بصوته العميق الساخر ، وهو مضطجع فى مقعد كبير بجوار الموقد : « حذار أن تضايقينى باسئلتك عن تفاصيل عملية تشريح الدمية أو عن حال أحشائها !٠٠ شرحيها بنفسك فى صمت والزمى السكون ياطفلتى»

ويبدو أن أديل لم تكن فى حاجة الى هذا التحذير ، اذ سرعان ما انسحبت بكنزها الى احدى الارائك ، وانهمكت فى حل (الدوبارة) التى كانت تربط الغطاء ، حتى اذا أزالت ذلك العائق ، ورفعت بعض أغلفة فضية من ورق (السلوفان) ، صاحت بالفرنسية : « أوه ٠٠ يا للسماء ! كم هى جميلة ! » ٠٠ ولم تزد ، بل مكثت غارقة فى تأملاتها الذاهلة ٠ وعندئذ قال السيد وهو ينهض قليلا عن مقعده ليتطلع الى الباب الذى كنت لا أزال واقفة بجانبه : « هل الآنسة اير هنالك ؟ آه ٠٠ حسنا ، تقدمى ٠٠ اجلسى هنا ! » ٠٠ ثم جر مقعدا الى جوار مقعده وقال :

- اننى لا أحب ثرثرة الاطفال ، فأنا كأعزب عريق لا أملك ذكريات سارة تتصل بلثغتهم ٠٠ وما أرانى أحتمل ان أقضى مساء برمته أتسامر مع طفل ! لاتبتعدى عنى بمقعدك يامس « اير » ، بل اجلسى حيث وضعته تماما ٠ ٠ هكذا ، من فضلك ! ٠٠ ألا قبحا للمجاملات المتكلفة ، فاننى لا أفتأ أنساها ، ومن ثم فلست أروق للعجائز الساذجات !٠٠ وبهذه المناسبة ، يجب أن أذكر عجوزى ، فلا يجمل ان أغفلها ، لانها من آل فيرفاكس ، أو بالاحرى كانت زوجة لواحد منهم ٠٠ والدم ، كما يقال ، أشد كثافة من الماء !

ثم دق الجرس وأرسل يدعو مسز فيرفاكس ، فسرعان ماقدمت وبيدها سلة أشغال الابرة ، فقال لها : « طاب مساؤك ياسيدتى ٠ لقد أرسلت أدعوك لغرض خيرى ، اذ اننى منعت أديل من ان تحدثنى عن هداياها ، ولذلك فهى مفعمة ، تكاد تنفجر ، فتفضلى بأن تكونى مستمعة لها وكليمة ، وسيكون هذا من أعظم الاعمال الخيرية التى قمت بها فى حياتك ! »

والواقع ان أديل لم تكد ترى مسز فيرفاكس ، حتى دعتها الى الاريكة ، ثم بادرت تملأ لها حجرها بمحتويات الصندوق الخزفية والعاجية والشمعية،

كما راحت فى الوقت نفسه تفيض بالشرح والايضاح بقدر ما مكنتها درايتها الكليلة باللغة الانجليزية .. بينما عاد المستر روشستر الى مخاطبتي قائلا :

ـ أما وقد قمت بدور المضيف الكريم ، اذ دبرت الوضع بحيث تسلى كل من الضيفتين زميلتها ، فانني فى حل من أن أنصرف الى مافيه تسليتي .. قربى مقعدك مسافة أخرى يا آنسة اير ، فأنت مازلت على منأى منى ، بحيث لا أستطيع أن أراك دون أن أتحول عن الوضع المريح فى هذا المقعد ، وهو ما لا أعتزم أن أفعله !

وصدعت بما أمر ، رغم أنني كنت أوثر أن أظل فى مجلسي ، متوارية بعض الشيء فى الظلال . على ان مستر روشستر كان ذا طريقة فى القاء الاوامر ، لايبدو معها مفر من الاطاعة فورا !.. وكنا ـ كما قلت ـ فى حجرة المائدة ، والثريا تغمر المكان بفيض من النور يشرح النفس ، كما كانت نيران الموقد حمراء متألقة ، والستائر الارجوانية تتدلى فى اناقة امام النافذة والقبو المرتفع .. وكان السكون يغشى كل شيء ، لا يكاد يعكره سوى حديث أديل الخافت ـ اذ لم تكن تجرؤ على رفع صوتها ـ يتخلل فترات الصمت فيه وقع المطر وهو يصفع الالواح الزجاجية للنافذة

★ ★ ★

وبدا مستر روشستر ـ فى جلسته على المقعد المكسو بالدمقس ـ مختلفا عما رأيته من قبل ، اذ كان أقل تجهما . وكانت على شفتيه ابتسامة ، وفى عينيه بريق يأتلق ، بفعل الخمر أو بغيرها .. فلست واثقة من ذلك ، وان كنت أراه جد محتمل !.. وقصارى القول ، كان السيد بعد العشاء فى حالة نفسية أكثر انشراحا وابتهاجا ، وأكثر تساهلا مما كان عليه فى الصباح من صرامة وجفاء . ومع ذلك ، فقد لاح على قدر غير قليل ـ نسبيا ـ من العبوس، وهو يسند رأسه الضخم على ظهر مقعده المنتفخ ، ويتلقى وهج النيران على قسمات كأنها قدت من صوان ، وعينين كبيرتين سوداوين ـ اذ كانت عيناه واسعتين ، داكنتى السواد ـ بديعتين كذلك ، وان لم تكونا تخلوان من بعض تغير يتراءى فى أعماقهما أحيانا .. تغير اذا لم يكن لطيفا ، فهو ـ على الاقل ـ يوحى اليك باللطف !.. وكان قد قضى دقيقتين يتفرس فى النار ، حين التفت الى فجأة ، ووجد نظراتي عالقة بسحنته ، فقال : « انك تتفحصينني يا مس اير .. أفترينني جميلا ؟! »

وكان خليقا بى ـ لو اننى فكرت ـ ان أجيب عن هذا السؤال بعبارة مبهمة، مهذبة ، تتمشى مع ما اصطلح عليه الناس من مجاملات . ولكن الجواب انزلق من لسانى بطريقة ما ، قبل ان أفطن : « لا ياسيدى ! » .. فقال : « آه ..

لعمرى !٠٠ ان فيك شيئا غير عادى ، فأنت تشبهين الراهبة الصغيرة فى غرابة أطوارها ، وهدوئها ، ورزانتها ، اذ تجلسين هكذا ، ويداك مبسوطتان أمامك، وعيناك منكستان عادة على البساط ، لا تفارقانه الا عندما تصوبان الى وجهى نظرات نافذة ، كما فعلت منذ قليل ، مثلا !٠٠ فاذا وجه أحد اليك سؤالا ، او أبدى ملاحظة تضطرين الى التعقيب عليها ، قذفت برد يكون لاذعا ـ على الاقل ـ ان لم يكن جافا باردا ٠٠ ما الذى عنيته بردك ؟! »

ـ لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغى ياسيدى ، فأسألك المعذرة ٠ كان يجدر بى أن أجيب بأنه ليس من السهل ان أصدر جوابا مرتجلا عن سؤال يخص المظهر والهيئة ، وبأن الاذواق تتباين الى حد كبير ، وبأن الجمال لايهم كثيرا ٠٠ أو بشىء من هذا القبيل !

ـ بل ما كان ينبغى ان تجيبى بذلك ٠٠ ان الجمال لايهم كثيرا ، بالفعل ! ولكنك تغرسين مطواة خبيثة خلف أذنى ، بدعوى التخفيف من الاساءة السابقة ومحاولة تلطيف وقعها على نفسى !٠٠ ألا قولى لى : أى عيوب تجدينها فى ، من فضلك ؟٠٠ اننى فيما أعتقد مكتمل الاطراف ، والقسمات ، كأى رجل آخر ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ دعنى أنكر ردى الاول يامستر روشستر ، فما كنت أنتوى أى رد قاس، ولكنها كانت زلة لسان فقط !

ـ هو ذلك ، على ما أرى ، ولكنك ستؤاخذين بهذه الذلة ، فانتقدينى : ألا يروق لك جبينى ؟

ورفع شعره المتموج الذى كان متهدلا على حاجبيه ، فكشف عن جبين تنطق صفحته بالذكاء ، ولا يعتوره عيب سوى نقص ماينم عن الاريحية وحب الخير ٠٠ واستطرد : « والآن ياسيدتى ٠٠ هل أنا أبله ؟ »

ـ كلا ، على الاطلاق ياسيدى ٠٠ ولعلك ترمينى بالفظاظة اذا سألتك بدورى : هل أنت محب للانسانية والخير ؟

ـ أعدنا ثانية !؟٠٠ وخزة أخرى من المطواة ، وانت تتظاهرين بأنك تربتين رأسى ، لمجرد ماقلته من انى لا أطيق معاشرة الاطفال والنساء العجائز ! (ولنخفض صوتنا هنا !) ٠٠ كلا ياسيدتى الصغيرة ٠٠ لست محبا للبشر والانسانية بصفة عامة ، ولكنى أحمل ضميرا بين جنبى (وأشار الى المكان الذى تنم عنه كلماته) ٠ هذا الى أنه كان لى فيما مضى قلب رقيق ٠٠ وكنت فى سنك ، انسانا شديد الحساسية ، يعطف على كل من لم يستكمل نضجه ، وكل من لا يجد من يعوله ، وكل من يخونه الحظ ، بيد أن القدر عادانى منذ ذلك الوقت ٠٠ بل انه طحننى بيديه ! واننى لاطرى الآن نفسى على أن غدوت صلبا جامدا ، ككرة صماء من المطاط ، وان كان لايزال بهذه

الكرة شق أو اثنان ، كما لاتزال تتوسطها نقطة حساسة ، فهل يتيح لى ذلك سبيلا الى أمل أو رجاء ؟

ـ رجاء فى أى شىء ياسيدى ؟!

وقلت فى نفسى : « لاشك أنه أفرط فى احتساء الخمر ! » .. ولم أدر بماذا ينبغى ان أرد على سؤاله العجيب هذا ، كما تساءلت كيف أقطع بأنه قادر على أن يتحول أو يتبدل من جديد !.. وعاد يقول :

ـ ان الحيرة البالغة تتجلى عليك يا آنسة اير ، ومع انك لاتفوقينني جمالا، الا أن هذه الحيرة تلائم مظهرك ، فضلا عن أنها تريحنى لانهـا تقصى عن سحنتى هاتين العينين المنقبتين وتشغلهما عنى بتأمل زهور السجادة الصوفية ! .. أمعنى فى حيرتك ، وثقى ياسيدتى الصغيرة أننى الليلة ميال الى أن أكون اليفا محبا للاجتماع بالغير !

★ ★ ★

◆ وما ان قال هذا حتى نهض من مقعده فوقف ، ثم اتكأ على ذراع الموقد الرخامى ، فتجلت فى وقفته هذه حقيقة شكله ووجهه ، وصدره المفرط فى الاتساع افراطا لا يتسق مع طول أطرافه . ولا ريب عندى فى أن معظم الناس كانوا خليقين بأن يعتبروه دميما . على انه كان فى هيئتـه ماينم عن كثير من الكبرياء غير المفتعلة ، وعن بسطة فى الخلق ، وعن عدم اكتراث بمظهره ، مع اعتداد متعال بقوة فضائله الاخرى ـ سواء أكانت ذاتية أو عرضية ـ مما كان يعوض ما يفتقر اليه من جاذبية المظهر الخارجى ، ويحمل من يراه على أن يثق به ثقة عمياء !

وعاد يكرر قوله : « ان بى الليلة ميلا الى أن أكون أليفـا محبا للاختلاط بالغير ، ولذلك أرسلت فى طلبك ، لاننى لم أجد فى الموقد والثريا رفقة كافية .. ولا فى « بايلوت » ، اذ أن أيا من هذه لايستطيع الكلام .. ومع ان اديل أفضل من هؤلاء درجة ، الا انها ما زالت دون الدرجة التى تصلح فيهـا للايناس والمسامرة ، وكذلك مسز فيرفاكس ! .. أما أنت ، فانا مقتنع بان فى وسعك ـ اذا شئت ـ ان تكونى زميلة مناسبة ، وان حيرتنى فى أمرك فى أول ليلة دعوتك فيها للنزول الى هنا . ولقد نسيتك تماما بعد ذلك ، لان رأسى ازدحم بأفكار أخرى أقصتك بعيدا ، ولكنى أعتزم الليلة ان أريح نفسى فأبتعد عما يضايقنى من أفكار وأجتلب منهـا مايسرنى . والآن .. يسعدنى أن أستدرجك لازداد بك معرفة ، فتكلمى ! »

وبدلا من ان أتكلم ، ابتسمت ، وان لم تكن ابتسامة بشوش أو مستسلمة .. فراح يستحثنى : « تكلمى ! »

ـ فيم ياسيدى ؟

ـ فيما يعجبك ، فسأترك لك اختيار الموضوع وطريقة معالجته

ولكنى لم أنبس بحرف ، بل قلت أحدث نفسى : « اذا كان يتوقع أن أتكلم لمجرد الكلام والتظاهر ، فسوف يكتشف انه قد أخطأ الاختيار ! »

ـ هل أنت بكماء يامس اير ؟!

فظللت بكماء ، وعندئذ مال برأسه نحوى قليلا ، وغاص فى عينى بنظرة عاجلة ثم قال : « عنيدة ؟٠٠ ومتضايقة ؟٠٠ هذا فى موضعه ، لاننى ألقيت طلبى عليك بطريقة سخيفة تكاد تكون وقحة ، فأسألك المعذرة يامس اير ٠ والواقع أننى لا أرغب بحال فى ان أعاملك معاملة من هم دونى منزلة ٠٠ (ثم قال مصححا) أعنى أننى لا أدعى لنفسى عليك تفوقا ، الا ماتحتمه عشرون عاما تفصل بين عمرينا ، وقرن من الزمن أسبقك به فى الخبرة ٠ وهذا حق مشروع أتمسك به ـ كما تقول أديل بفرنسيتها ـ وبحق هذا التفوق وحده أرغب فى أن تتكرمى بالحديث معى الآن قليلا ، وأن تحولى أفكارى التى يفسدها ارتكازها على نقطة واحدة ٠٠ فهى تتآكل كالمسمار الصدىء ! »

ولقد أراد بهذا الشرح أن يكون أشبه باعتذار ، ولكنى لم أدع هذا التنازل يستخفنى ، ولو لمجرد التظاهر ، فقلت : « بودى أن أسليك ياسيدى ما استطعت الى ذلك سبيلا ، ولكن ليس فى وسعى ان أقدم موضوع الحديث، اذ كيف لى أن أعرف مايسرك ٠ سلنى ماتشاء وسأبذل قصاراى للرد »

ـ اذن أخبرينى أولا : هل توافقيننى على ان لى الحق فى شىء من السيادة ، والفظاظة ـ وربما التدقيق ـ للاعتبارات التى ذكرتها ٠٠ أعنى اننى فى سن والدك ، واننى خضت تجارب من كل لون ، مع رجال من مختلف الشعوب ، واننى جبت مايزيد على نصف الكرة الارضية ، بينما قضيت أنت حياتك فى هدوء ، ومع فريق واحد من الناس ، فى منزل واحد

ـ لك ما تشاء ياسيدى

ـ ليس هذا جوابا ٠٠ أو هو بالاحرى جواب غاية فى الاثارة ، لانه يتسم بكثير من المراوغة ٠ أجيبينى بصراحة !

ـ لست أرى ياسيدى أن لك الحق فى فرض أوامرك على لمجرد أنك تفوقنى سنا ، أو لانك خبرت العالم أكثر منى ٠٠ ان دعواك فى السيادة تستند الى الطريقة التى أفدت بها من وقتك وتجاربك !

ـ اف !٠٠ انك تستدرجيننى ، ولكننى لن أقر رأيك ، اذ انه لاينطبق على حالى ، بل يظهرنى بمظهر الذى يستغل الميزتين ـ السن والخبرة ـ فى غير اكتراث ، ان لم أقل استغلالا سيئا ٠٠ فلندع السيطرة جانبا ، وليكن واجبك ان تتلقى منى الاوامر من حين الى آخر ، دون ان تستائى أو تتأذى من لهجة الامر ٠٠ فهل تقبلين ؟

فابتسمت وقلت فى نفسى ان مستر روشستر رجل شاذ ، فقد نسى انه يدفع لى ثلاثين جنيها فى السنة مقابل ان أتلقى أوامره . ولاحظ هو على الفور ما ارتسم على وجهى فقال : « ان الابتسامة حسنة جدا ، ولكن .. تكلمى أيضا ! »

– كنت أفكر ياسيدى فى أن قليلا جدا من السادة يكلفون أنفسهم عناء السؤال عما اذا كان اتباعهم المأجورون يستاءون أو يتأذون من تلقى أوامرهم !

– أتباع مأجورون !.. ماذا ؟.. هل أنت تابعة مأجورة عندى ؟.. آه ، نعم .. نسيت المرتب !.. حسنا اذن .. هل تقبلين على هذا الاعتبار –اعتبار الارتزاق – أن أتسفه قليلا ؟

– كلا ياسيدى ، ليس على هذا الاعتبار ، ولكن على اعتبار ان تنسى ذلك وان تعنى بالسؤال عما اذا كان من تعوله مستريحا فى علاقته معك .. عندئذ أقبل بكل سرور !

– وهل تقبلين التجاوز عن كثير من الاشكال والعبارات المصطلح عليها دون أن ترى فى التجاوز عنها شيئا من القحة ؟!

– أنا واثقة ياسيدى من اننى لن أخطىء التمييز بين رفع الكلفة وبين الوقاحة .. ولعلنى أفضل أولاهما ، ولكن الثانية لايرضى بها من ولد حرا ، ولو تقاضى فى مقابلها أجرا !

– غش وخداع ! ان معظم من يولدون أحرارا يتقبلون أى شىء مقابل الاجر ! .. تحدثى عن نفسك فقط ، ولا تتجاوزى الى العموميات التى تجهلينها . ومع ذلك ، فاننى أصافحك بعقلى على جوابك برغم عدم دقته .. أما الطريقة التى قيل بها ، والمادة التى اشتمل عليها ،فتنطويان على الصراحة والاخلاص .والمرء لا يصادف كثيرا هذا الطبع ، وانما يلقى – على العكس – تكلفا ، أو فتورا ، أو غباء ، أو سوء فهم للمعانى نتيجة ضيق العقل . ولا توجد ثلاث معلمات بين ثلاث آلاف يستطعن الاجابة عن سؤالى بمثل مافعلت .. لست أتملقك بذلك .. ولكن ، اذا كنت قد خلقتفى قالب غير قوالب غالبية البشر ، فلا فضل لك فى ذلك ، لانه من فعل الطبيعة ، بيد اننى أتسرع فى أحكامى ، اذ ما الذى أعرفه عنك ؟.. انك قد لا تكونين أفضل وأمثل من غيرك اذ قد تكون فيك نقائص وعيوب لا تحتمل ، فى مقابل محاسنك القليلة !

فقلت فى نفسى : « وقد تكون أنت كذلك ! »

★ ★ ★

◆ والتقت عينى بعينه عندما طافت هذه الفكرة برأسى ، ويبدو انه قرأها اذ أجاب وكأننى حدثته بما يدور بخاطرى : « نعم ، نعم ، انك على حق .. ان لى كثيرا من العيوب التى أعرفها ولا أحب ان ألتمس لها المبررات ، ومن

ثم فحاشا لله أن أكون قاسيا ازاء عيوب الآخرين ٠ ان لى تجارب ماضية ، ومجموعة من الافعال ، ولونا من الحياة ، أكتمها فى صدرى ، لانها قد تجلب على كثيرا من هزء معارفى ولومهم ٠ وقد بدأت ، أو قدر لى ان أبدأ ـ لاننى أحب كغيرى من الخاطئين أن أضع اللوم على عاتق سوء الحظ والظروف المعاكسة ـ بسلوك معوج ، مذ كنت فى الحادية والعشرين من عمرى ، ولم أعد الى السراط المستقم منذ ذلك العهد ٠ وكان محتملا ان أكون شيئا آخر ، بل لعلنى كنت أغدو مثلك طيبة وطهارة ، وربما أرجح عقلا !٠٠ وانى لاغبطك على راحة البال ، وعلى نقاء ضميرك ، وذاكرتك التى لم يدنسها شىء ٠٠ ألا اعلمى يافتاة أن الذاكرة التى لا تشوبها أية وصمة أو دنس لابد ان تكون كنزا نفيسا ، ومعينا لاينضب من الانتعاش النقى ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ كيف كانت ذاكرتك وانت فى الثامنة عشرة ياسيدى ؟

ـ على خير مايمكن : صافية ، مليئة بالصحة ، لم يلوثها ماء آسن يحولها الى غدير كريه الرائحة ٠ كنت فى الثامنة عشرة مثلك ٠٠ مثلك تماما ، فقد كانت الطبيعة تريد ان تجعل منى رجلا طيبا يا آنسة اير ٠٠ رجلا من أحسن الرجال ، وهاأنتذى ترين اننى لست كذلك ٠٠ قد تقولين انك لاترين ذلك ، وأنا أطرى نفسى اذا قلت لك اننى أقرأه فى عينيك ـ وبهذه المناسبة ، أحذرك مما تعبر عنه عينك لاننى سرعان ما أترجم لغتها ! ـ وأقسم لك أننى لست شريرا ، ولست وغدا ، ولا ينبغى أن تظنينى كذلك أو تنسبى لى مثل هذه الوصمة ، ولكن ٠٠ لظروف خاصة أحاطت بى ، ولا أقول لعيب فى طبيعتى ، أصبحت مبتذل الاخلاق ، وآثما مهينا ، تردى فى كل الملذات الرخيصة التى يحاول الاغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم ٠ هل يدهشك أن أجاهرك بذلك ؟٠٠ اعلمى أنك ستجدين نفسك ـ فى مستقبل حياتك ـ مختارة على الرغم منك لتكونى مستودع أسرار معارفك ٠٠ سيجد الناس بالغريزة ـ كما وجدت أنا ـ ان ميزتك ليست فى الحديث عن نفسك ، وانما فى الانصات عندما يتحدث الآخرون عن أنفسهم ، وسيشعرون كذلك أنك لا تصغين اليهم وفى نفسك احتقار وسخط على نزقهم وطيشهم ، وانما بعطف غريزى يسرى ويشجع ، لانه خال من التطفل !

ـ وكيف تعرف ؟ وكيف تستنتج هذا كله ياسيدى ؟

ـ أعرف ذلك جيدا ، وعلى هذا أمضى فى حرية وانطلاق ، وكأننى أدون أفكارى فى مذكراتى اليومية ٠٠ قد تقولين انه كان ينبغى أن أسيطر على الظروف ٠٠ نعم كان ينبغى ان أفعل ذلك ، ولكنك ترين أننى لم أفعل ٠ وعندما ظلمنى القدر ، لم أوت من الحكمة ما يبقينى باردا غير مكترث ، بل استبد بى اليأس ، فترديت ٠٠ واذا أثار اشمئزازى اليوم رجل أخرق ،

بخسته وبذاءته ، فانى لا أكذب على نفسى زاعما اننى خير منه ، ولكنى أضطر الى الاعتراف بأننى وهو فى مستوى واحد ! كم كنت أود الثبات ، والله على ما أقول شهيد !٠٠ نصيحتى اليك أن تخشى تأنيب الضمير يامس اير ، اذا صادفت مايغرى على تنكب الطريق الصحيح ، لان تبكيت الضمير هو سم الحياة !

ـ يقال ان التوبة شفاء له ياسيدى !

ـ انها ليست شفاء له ، ولكن قد يكون الاصلاح هو الشفاء ٠ ولقد كنت أقوى على الاصلاح وما زلت أقوى عليه للآن اذا ٠٠٠ ولكن أية فائدة فى التفكير ، وانا مثقل بالعراقيل والاعباء واللعنات ؟!٠٠ وفضلا عن ذلك ، لما كانت السعادة قد حرمت على ـ دون ما سبيل لتفادى الحرمان ـ فمن حقى أن أنتزع السرور من الحياة ، وسوف أناله ، مهما يكن الثمن !

ـ اذن فسوف تمعن فى الهبوط الى الحضيض ياسيدى !

ـ ربما ، ولكن لماذا أنحدر الى الحضيض اذا كان فى وسعى ان أحصل على متعة حلوة طازجة ؟ ٠٠ وقد أحصل عليها فى حلاوة وجدة العسل الذى يجمعه النحل من أقذر الاحراش !

ـ ولكنها ستلدغك ، وستكون مرة المذاق ياسيدى !

ـ كيف علمت ذلك وانت لم تجربيها قط ؟ كم تتجلى عليك أمارات الجد والوقار ، فى حين أنك تجهلين الامر كل الجهل ! ٠٠ ليس لك الحق فى أن تعظينى ٠٠ أنت التى لم تتخط عتبة الحياة بعد ، ولا تعلم شيئا عن أسرارها مطلقا !

ـ اننى أذكرك بكلماتك انت ياسيدى ، فقد قلت ان الخطأ يسبب الندم ، كما قلت ان الندم وتقريع الضمير سم الحياة !

ـ ومن ذا الذى يتحدث عن الخطأ الآن ؟٠٠ لا أكاد أعتقد ان الفكرة التى ومضت فى خاطرى كانت خطأ ، بل أومن بأنها وحى أكثر منها اغراء ٠٠ ولقد كانت مريحة ، وفيها عزاء !٠٠ وها هى ذى قد أتت مرة أخرى ! انها ليست وسوسة من الشيطان ٠٠ فان كانت ، فلابد انها تتزيا بمسوح الملائكة النورانية ٠ ولذلك أرى من الواجب أن أتقبل مثل هذه الضيفة الحسناء ، اذا طلبت الدخول الى قلبى !

ـ لا تثق بها ياسيدى لانها ليست « ملاكا » حقيقيا !

ـ مرة أخرى ٠٠ من أين علمت بذلك ؟ ٠٠ وبأية غريزة تدعين أن فى وسعك التمييز بين « ملاك » ساقط من الهوة ، وبين رسول قادم من العرش السرمدى ٠٠ بين هاد وبين مضلل ؟

ـ حكمت على ذلك من وجهك ياسيدى ، فقد اضطرب عندما قلت ان الفكرة

قد عاودتك !٠٠ وأنا أشعر شعورا صادقا بأنها ستضاعف من تعسك وشقائك، اذا أنت أصغيت اليها

ـ كلا ٠٠ مطلقا !٠٠انها تحمل أعظم رسالة كريمة خيرة فى العالم ٠ أما فيما عدا ذلك فلست أراك وصية على ضميرى ، فلا تشغلى بالك ٠٠ ادخلى أيتها الهائمة الظريفة !

٠٠ فاه بذلك وكأنه يخاطب رؤيا من الرؤى لا تبصرها غير عينيه ، ثم عقد ذراعيه ـ اللتين كان قد بسطهما ـ على صدره ، وكأنه يحتضن تلك الرؤيا غير المنظورة ، ثم استطرد يحدثنى : « الآن استقبلت الهائمة القدسية ٠٠ الربة المتنكرة ، كما أعتقد اعتقادا جازما ٠ ولقد أفادتنى كثيرا لان قلبى كان أشبه بمقبرة ، وسيغدو الآن محرابا ! »

ـ الحق ياسيدى ، اننى لا أفهمك مطلقا ، فليس بوسعى ان أتعقب الحديث، لانه انبعث من أعماقى ٠٠ كل ما أدريه هو أمر واحد ٠٠ ذلك هو ماقلت من أنك لست من الطيبة بالقدر الذى كنت ترجوه ، وانك تندم على نقائصك ٠ كما اننى أدركت شيئا هاما ، وهو أن الذاكرة المكتئبة عذاب مقيم ٠ ويخيل الى أنك اذا ناضلت بكل قوتك فانك لن تلبث أن تتبين أنه من السهل أن تصبح الشخص الذى كنت تشتهى أن تكونه ، وأنك لو بدأت منذ اليوم فى اصلاح أمورك وأفكارك بعزيمة جبارة ، لوجدت بعد سنوات قلائل زادا كبيرا من الذكريات الجديدة التى لا تشوبها شائبة ، بحيث يمكن ان ترجع اليها وأنت مغتبط مسرور

ـ تفكير عادل وقول صائب يا آنسة ، وانى فى هذه اللحظة لارصف الجحيم بكل همة ونشاط !

ـ سيدى ؟!

ـ اننى أرسى نوايا طيبة فى متانة الحجر الصوان ٠ ولا ريب فى ان رفاقى وهواياتى ستصبح غير التى كانت بالامس

ـ بل خيرا منها ؟

ـ خيرا منها بكثير ٠٠ فسوف تكون كالذهب الخالص بالنسبة الى المعدن الخسيس الزائف ! يبدو انك فى شك من ذلك ، ولكننى شخصيا لا يساورنى ادنى شك ، اذ اننى أعرف هدفى كما أعرف العوامل التى تدفعنى اليه ٠ وأنا فى هذه اللحظة أصدر قانونا كقوانين الميديين والفرس العادلة التى لا تتغير !

ـ هذا غير ممكن ياسيدى ، والا لاحتاجت هذه القوانين الى هيئة تشريعية جديدة تقرها

ـ نعم تحتاج الى هيئة جديدة يامس اير ، مكونة من مجموعة من الظروف لم

يسمع بمثلها ، تحتاج بدورها الى قواعد لم يسمع بها كذلك !

— هذه الحكمة تبدو خطرة ياسيدى ، لان فى وسع الانسان أن يرى فى الحال انها عرضة لان يساء استعمالها !

— يالك من حكيمة سديدة الرأى !٠٠ فلتكن كذلك ، ولكنى أقسم بأرباب أسرتى ألا أسيء استعمالها !

— انك من البشر ومعرض للزلل !

— انى لكذلك ، وانت مثلى ٠٠ فماذا تقصدين ؟

— ينبغى على البشر المعرضين للخطأ ان لاينتحلوا قوة لا يؤتاها سوى القديسين والكاملين من البشر !

— أية قوة ؟

— قوة القول عن كل غريب غير مشروع من الاعمال « ليكن هذا حقا » !

— « ليكن هذا حقا » ٠٠ هذه هى الكلمات الصحيحة ٠ لقد نطقت بها !

— قد يكون هذا صحيحا اذن !

ثم قمت بعد ان رأيت أن من العبث أن أمضى فى حديث كنت أتخبط فى ظلماته ، فضلا عن اننى وجدت أن شخصية محدثى كانت أعمق من ان أنفذ الى أغوارها ، أو أن أبلغ سطحها الراهن على الاقل ٠٠ كما ساورنى القلق ٠ ٠ ذلك الشعور المبهم بعدم الامان ، الذى يرافق اليقين بالجهل !

و قال السيد : « الى أين أنت ذاهبة ؟ »

— سأسلم أديل الى فراشها ، اذ فات موعد نومها

— هل أنت خائفة منى لاننى أتحدث فى غموض أبى الهول ؟!

— ان لغتك غامضة ياسيدى ، ولكنى غير خائفة بحال ، وان كنت فى حيرة !

— بل أنت خائفة ، لان حبك لنفسك يحملك على الخوف من الزلل والعثار !

— اننى أحس بالخوف فعلا ، من هذه الناحية ، ولا رغبة لدى فى حديث فارغ !

— اذا كان الخوف يساورك حقا ، فان رزانتك وهدوءك لم يتخليا عنك حتى اننى حسبتك غير خائفة !٠٠ ألا تضحكين أبدا يا آنسة ؟٠٠ لا تكلفى نفسك عناء الرد ، فانه قل ان أراك تضحكين ، وان كان فى وسعك دائما أن تضحكى فى مرح وابتهاج ٠٠ ثقى أنك لست عابسة بطبيعتك ، بأكثر مما أنا شرير أثيم بطبيعتى ٠ ويبدو أن قيود (لو وود) مازالت تؤثر فيك الى حد ما ، وتتحكم فى معالم وجهك ، وتخافت من صوتك ، وتشل من أطرافك ، وتجعلك تستشعرين الخوف فى حضرة رجل لك ان تعتبريه أخاك أو أباك أو مخدومك أو من تشائين ٠ وانت بسبب هذا الخوف لا تبتسمين ، ولا تتكلمين بحرية ، ولا تتحركين بسرعة ، ولكنك سوف تصبحين — فى الوقت المناسب — على

سجيتك وطبيعتك معى ، وعندئذ سوف تكتسب نظراتك وحركاتك حياة لاتجرئين الآن على اظهارها ، اذ أننى ألمح فى عينيك بين الفينة والاخرى نظرة طائر من نوع غريب ، حبيس خلف قضبان ، كأسير دائب القلق ولكنه ثابت العزم ، فلو أطلق سراحه لانطلق يحلق فى كبد السماء ٠ أما زلت مصرة على الانصراف ؟

ـ لقد دقت الساعة التاسعة ياسيدى

ـ لا يهم ٠٠ انتظرى لحظة فان أديل لم تتهيأ بعد للذهاب الى فراشها ٠ ان وقفتى يا آنسة اير ، وظهرى الى الموقد ووجهى الى الحجرة ، ساعدتنى على ملاحظة الكثير ٠ ففيما كنت أتحدث اليك ، أتيحت لى الفرصة لمراقبة أديل ـ فان لدى أسبابا خاصة تدعونى الى اعتبارها مادة عجيبة للدراسة ٠٠ أسبابا ربما ، بل سوف أفضى بها اليك يوما ما ـ فرأيتها تخرج من صندوقها ثوبا قرنفليا صغيرا ، ما ان بسطته أمامها حتى أشرق وجهها حبورا ، لان « الغندرة » تجرى فى دمائها وتمتزج بعقلها وتتبل نخاع عظامها ٠٠ وقد سمعتها تهتف « يجب ان أجربه ٠٠ فى هذه اللحظة ! » ، ثم اندفعت تغادر الحجرة ٠ وهى الآن مع صوفى ـ مربيتها الفرنسية ـ ترتدى الثوب ، وسوف تعود بعد دقائق ٠٠ وانى لاعرف ما سوف أرى ٠٠ صورة مصغرة من الممثلة « سيلين فارنس » ، وهى على خشبة المسرح ٠٠ ولكن لا داعى لهذا الآن ، فان مشاعرى المرهفة توشك أن تصاب بصدمة ٠٠ هذا ما أتنبأ به ، فانتظرى لترى هل تتحقق هذه النبوءة !

وبعد قليل ، سمع وقع قدمى أديل وهى تخطر برشاقة فى الردهة ، ثم دخلت وقد تحولت الى الصورة التى تنبأ بها الوصى عليها ، اذ كانت ترتدى ثوبا من الحرير الوردى اللون ، منتفخا عند (الجونلة) ـ بدل الثوب الرمادى الذى كانت ترتديه من قبل ـ وقد وضعت حول جبينها أكليلا من أكمام الورد ٠ بينما لبست فى قدميها جوربين من الحرير ، وصندلين صغيرين أبيضين من الحرير نفسه !

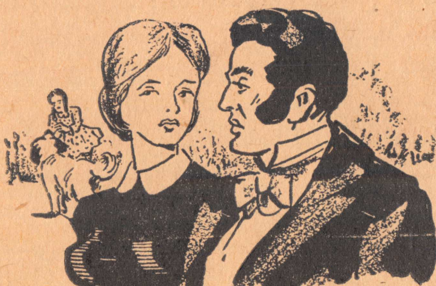
وصاحت بالفرنسية ، وهى تثب الى الامام : « هل ثوبى جميل ؟ وحذائى ؟ وجوربى ؟ انتبها لاننى سوف أرقص ! »

ثم بسطت ثوبها وراحت ترقص عبر الحجرة ، الى أن وصلت الى مستر روشستر ، فدارت أمامه على أطراف أصابع قدميها فى خفة ورشاقة ، ثم ركعت على ركبة واحدة وهتفت : « أشكرك ألف مرة ياسيدى على طيبتك ! » ٠٠ ثم نهضت وأردفت تقول : « هكذا كانت تفعل ماما ٠ أليس كذلك ياسيدى ؟ »

فكان الرد : « تماما ٠٠ هكذا ! لقد فتنتنى وجعلتنى أنفق عليها بغير حساب ، اذ كنت غض الاهاب ، مخضر العود يامس اير ، لا ينعشك من

الشباب الآن أكثر مما كان ينعشنى اذ ذاك . ولكن ربيعى قد ولى ، وان خلف لى هذه الزهرة الفرنسية الصغيرة ، التى أتمنى أحيانا ان أتخلص منها . ولما كنت الآن لا أقدر « الجذر » الذى نبتت منه بعد ان اكتشفت انه من النوع الذى لا ينمو الا بسماد من ذهب ، فاننى لا أميل اليها كل الميل ، لاسيما عندما تظهر بمظهر مصطنع متكلف كما ظهرت الآن .. اننى آويها وأربيها تطبيقا للمبدأ الرومانى الكاثوليكى الذى يقضى بالتكفير عن الخطايا العديدة كبيرها وصغيرها ، بعمل واحد مجيد .. وسوف أشرح لك ذلك يوما ما .. طابت ليلتك ! »

الفصل الخامس عشر



◆ **وبالفعل**، شرح لى مستر روشستر الامر فى فرصة تالية .. فى عصر يوم قابلنى فيه مصادفة مع أديل فى الحقل . وفيما كانت الصغيرة تلعب مع « بايلوت » وباحدى لعبها ، طلب الى ان نذرع طريقا تظلله أشجار الزان على مشهد من الفتاة . ثم أخبرنى ان أديل ابنة راقصة الاوبرا الفرنسية «سيلين فارنس»، التى أحبها يوما ما حبا جارفا ، قابلته هى - حسب اعتراف الراقصة له - بحب اشد عنفا ، حتى خيل اليه رغم دمامته انه معبودها ، اعتقادا منه بأنها كانت تؤثر قوامه الرياضى على جمال ورشاقة « أبوللو بلفيدير » ! .. ومضى يقول :

ـ ولقد ازدهانى وخدعنى ، يامس دير ، هـذا الايثـار من الغانية ابنة بلاد (الغال) ، للمسخ البريطانى ، فأنزلتهـا فى أحد الفنادق ، وزودتها بحاشية كاملة من الخـدم ، وبعربة ، وأثواب من الكشمير ، وماسـات ، ودانتلا ٠٠ وغـير ذلك ٠ وقصارى القول ، بدأت عملية افلاس نفسى ككل مغرم غبى!٠٠ ويبـدو اننى لم أوت من ملكة الابتكار مايمكننى من ان أختـط لنفسى طريقا جديدا الى الخزى والخراب ، وانما سلكت الطريق القديم بدقة حمقاء ، جعلتنى لا أحيد قيد أنملة عن مجراه !٠٠

ولذلك حق على ان ألاقى مصير أولئك المدنفين الحمقى ! فقـد اتفق أن زرت « سيلين » ذات مساء ـ ولم تكن تتوقع قدومى ـ فوجدتها فى الخارج ٠٠ ولكن الامسـية كانت حارة ، وكنت متعبا من التجول فى أنحاء باريس ، فجلست فى مخدعها سعيدا بأن املأ رئتى بالهواء الذى اكتسب قداسة لانه حف بها ٠٠ كلا ٠٠ اننى أبالغ ، لاننى لم أر فيها قط أية فضيلةمقدسة٠٠ على انها تركت فى مخدعها رائحه من روائح «الباستيليا» تشبه المسك والعنبر أكثر مما تشبه رائحة القداسة ٠ وبدأت أشعر ولكنك لن تلبثى ان تتلقى الصدمة التى توقظها !٠٠ أفحسبت النافذة ، وأن أخرج الى الشرفة ٠ وكان القمر ومصابيحالشارع ترسل أشعتها ، والسكون والهدوء يخيمان ، كما كانت الشرفة مؤثثة بمقعد أو اثنين فجلست وأخرجت سيجارا٠٠٠وسأتناول الآن واحدا اذا سمحت !

وتوقف بعد ذلك فترة شغل فيها باخراج سيجار واشعاله، حتى اذا وضعه بين شفتيه ونفث سحابة من دخان « الهافانا » الشذى فى الهواء المتجمد الذى زايلته الشمس ، استرسـل يقول : « كنت أحب الحلوى كذلك فى تلك الايام يامس اير ، فرحت أتلذذ ـ واغفرى لى هذا التعبير السخيف ـ بالتهام قطع الشيكولاتة تارة ، وبالتـدخين تارة أخـرى ، وأنا أراقب فى الوقت نفسه المارة فى الشوارع الحديثة الطراز ، وهم يتجهون

نحو دار الاوبرا ، الى ان شاهدت عربة انيقة مغلقة يجرها جوادان انجليزيان جميلان • واستطعت – فى أضواء المدينة المشرقة – أن أتبين انها العربه المطهمة التى أعطيتها لسيلين • اذن فقد كانت عائدة ! وبالطبع خفق قلبى نافد الصبر وأنا خلف القضبان الحديدية التى أعتمد عليها • وتوقفت العربة كما كنت أتوقع عند باب الفندق ، ثم هبطت شعلتى – وهو الاسم الذى يلائم حبيبتى راقصة الاوبرا – وعلى الرغم من أنها كانت تختفى تحت معطفها ، وهو حمل باهظ لم تكن له ضرورة فى أمسيه حارة كهذه من أمسيات شهر يونية، فقد عرفتها فى الحال من قدمها الصغيرة التى أطلت من أهداب ثوبها وهى تضعها على سلم العربة • **وانحنيت على الشرفة لاغمغم : « ياملاكى ! » ، بصوت لاتسمعه سوى اذن الحب وحده ، وعندئذ وثب شخص خلفها من العربة وقد تدثر هو الآخر بمعطف ، وجلجل كعبه المهموز على الافريز ، ثم مر بقبعته تحت قوس باب الفندق**

« هل شعرت بالغيرة مرة فى حياتك يامس اير ؟ كلا بالطبع! ولا حاجة بى الى سؤالك لانك لم تشعرى بالحب قط ، ولكنك سوف تجربين الاثنين فيما بعد •• ان روحك تغط فى النوم ، ولكنك لن تلبثى أن تتلقى الصدمة التى توقظها ••! أفحسبت ان الوجود كله يمضى فى مجرى هادىء كالمجرى الذى يسير فيه شبابك ؟!• فطالما ظللت طافية بعينين مغلقتين وأذنين مصمومتين ، فلن ترى الصخور القائمة غير بعيد عنك فى المجرى ، ولن تسمعى الامواج وهى ترغى وتزبد عند سفوحها ، **ولكنى أقول لك – وأصغى الى ماأقول – انك ستصلين الى مضيق صخرى سوف ينقطع عنده استرسال مجرى الحياة كله ، ليتحول الى دوامة وصخب وزبد وضوضاء ، وعندئذ اما أن تتفتتى الى ذرات فوق الصخور ، أو ترفعك احدى الموجات وتحملك الى تيار أهدأ كما هو الحال معى الآن !**

« اننى أحب يومى هذا ٠٠ وأحب هذه السماء الصلبة وأحب من الدنيا عبوسها وهدوءها تحت هذا الصقيع ٠٠ وأحب قصر (ثورنفيلد) بآثاره العتيقة وعزلته الموحشة،وأشجاره القديمة المليئة بالاشواك ، وبواجهته الحالكة ، ونوافذه المظلمة التى تعكس غيوم السماء٠٠ومع ذلك فكم كرهت ـ زمنا طويلا ـ مجرد التفكير فيه ، وفررت منه فرارى من منزل موبوء بالطاعون ؟ وكم مازلت أمقت ٠٠٠ »

وصرف على أسنانه ، ثم أخلد الى الصمت ٠ وتوقف عن السير ليضرب الارض بقدميه ، كما لو كانت قد استبدت به فكرة بغيضة ، فقيدته الى مكانه بحيث لم يقو على الحراك خطوة أخرى ٠ وكان توقفه هذا ـ ونحن نرقى الطريق ـ أمام القصر، فرفع عينيه الى شرفاته العالية ورمقها بنظرة لم أر مثيلا لها من قبل ٠٠ نظرة زاخرة بالالم ، والخزى ، والحنق ، ونفاد الصبر ، والتقزز ، والكراهية التى كانت تصطرع فى انسان عينه الكبير المنبسط تحت حاجبه الغزير ٠ وكان الاصطراع رهيبا بالغا ، ولكن شعورا آخر ما لبث أن تولد وتغلب ٠٠٠ شعورا كان ينم عن صلابة وحزم وارادة ، فاستقر باله وهدأت نفسه الثائرة ، وتبدلت أسارير وجهه ، ثم استرسل يقول : « انما لذت بالصمت فى تلك اللحظة لاننى كنت أسوى أمورى مع مصيرى ٠٠ فقد تراءى لى هناك طيف ، كاحدى تلك الجنيات الساحرة اللاتى ظهرن لماكبث فى مروج (فوريس) ، وقالت وهى ترفع أصبعها : « أتحب ثورنفيلد ؟ » ، ثم كتبت فى الهواء على واجهة القصر ، بين صفي النوافذ الاعلى والادنى ، بخط هيروغليفى : « أحببها اذا استطعت ! أحببها اذا جرؤت ! » ، فقلت : « سأحبها ، وانى لاجرؤ على حبها ! » ٠٠ **ولسوف أبر بوعدى ، فأحطم العقبات التى تعترض سبيلى الى السعادة والخير ٠٠ أجل ، الخير !٠٠ لاننى أود أن أكون خيرا مما كنت ومما أنا عليه الآن ٠٠ سأفعل مافعله حوت « أيوب » اذ حطم**

الحربة والنبلة والمزراق ٠٠ كل هذه الاسلحة التى يعتبرها الآخرون حديدا ونحاسا، سأعتبرها قشا وخشبا باليا منخورا» (١)

وأقبلت اذ ذاك « أديل » تجرى أمامه بلعبتها ، فصاح فى خشونة : « ابتعدى !٠٠ اجرى بعيدا أيتها الطفلة ، أو اذهبى الى صوفى فى داخل القصر » ٠٠ ثم استأنف سيره فى صمت ٠ وما لبثت أن تجاسرت على أن أذكره بالنقطة التى انقطع الحديث عندها فجأة ، اذ قلت : « وهل غادرت الشرفة ياسيدى عندما دخلت الآنسة فارنس ؟ »

وكنت أتوقع منه أن يصدم شعورى بعد هذا السؤال الذى كان لايناسب الموقف فى تلك اللحظة ، ولكنه ـ على العكس ـ انتبه من ذهوله العابس، واتجه نحوى بعينيه ، ثم قال : « آه!٠ لقد نسيت سيلين ٠٠ حسنا سأستأنف الحديث : عندما وجدت فاتنتى تدخل الفندق ، وفى رفقتها ذلك الفارس ، خيل الى اننى أسمع فحيحا ، ثم رأيت حية الغيرة الخضراء على ضوء القمر وقد رفعت رأسها فى الشرفة ، ثم تسللت تحت سترتى ، وبادرت تنهش سويداء قلبى ٠ يا للعجب ! »

وقطع الحديث مبديا تعجبه، ثم عاد يستأنف موضوعه قائلا: **« يا للعجب !٠٠ كيف اخترتك من دون الناس جميعا لافضى اليك بكل هذه الاسرار ؟٠٠ وأعجب من هذا أن تصغى الى فى هدوء ، وكأنه أمر عادى لديك ان يروى رجل مثلى قصص ممثلات الاوبرا لفتاة غريبة عديمة التجاريب مثلك ! ولكن الغرابة الاخيرة تفسر الاولى ، فانك ـ كما قلت لك من قبل ـ انما خلقت بهذه الجاذبية والرصانة والحذر لتكونى مستمعة**

---

(١) جاء فى التوراة وصف للوياثان ـ أو حوت أيوب ـ بأن ٠٠ « فى عنقه تبيت القوة ، وقلبه صلب كالحجر وقاس كالرحى ، عند نهوضه تفزع الاقوياء ٠٠ سيف الذى لايلحقه لايقوم ولا رمح ولا مزراق ولا درع ! (أى أنه أقوى من كل هذه الاسلحة !)

للاسرار • هذا فضلا عن اننى أعرف أى نوع من العقول أربطه بعقلى ، انه نوع لايمكن ان تنتقل اليه العدوى لانه شاذ فريد فى نوعه ، كما اننى ـ لحسن الحظ ـ لا أرمى الى ايذائه•• بل اننى لو فعلت فلن يصيبه منى الاذى • ومن ثم فكلما تحدثت كان ذلك أفضل ، اذ سيكون فى وسعك ان تسرى عنى ، ما دمت لا أملك لك ضرا »

وعاد يستأنف الموضوع الاصلى ، بعد ان حاد عنه ، فقال : « بقيت فى الشرفة حتى يدخلا مخدعهما كما حدست •وفكرت فى أن أكمن لهما ، ومن ثم مددت يدى من النافذة المفتوحة ، فجذبت الستارة عليها تاركا فتحة أستطيع المراقبة منها ، ثم أغلقت النافذة كلها ، عدا ثغرة تتسع لأن تنفذ منها وعود العاشقين وعهودهما الهامسه • ثم عدت متسللا الى مقعدى فى الشرفة ، واذا بالاثنين يدخلان المخدع • وسرعان ماكانت عيناى على الفتحة • ودخلت وصيفة سيلين فأشعلت المصباح ووضعته على المنضدة ، ثم انسحبت •• ورأيت العاشقين أمامى بوضوح ، وقد أخذ كل منهما يخلع معطفه • وظهرت سيلين متألقة فى ثوبها الحريرى اللامع ومجوهراتها التى كانت من هداياى بالطبع ، كما ظهر رفيقها فى بزة ضابط ،فعرفت فيه « فيكونت » شابا ، طائشا ، فاسدا ، كنت ألتقى بهأحيانا فى المجتمعات •• ولم أفكر قط فى ان أكرهه ، لاننى احتقرته احتقارا بالغا • فما ان تبينت شخصيته حتى تكسرت أنياب الغيرة ، لان نار حبى لسيلين انطفأت فى الحال ، اذ أن المرأة التى أقدمت على خيانتى من أجل منافس كهذا ، لم تكن آهلا لاى نضال فى سبيلها ، ولم تكن تستحق سوى الاحتقار ، لاسيما من رجل مثلى ، كان غريرا سهل الانخداع !

« وأخذا يتحادثان ، فخفف حديثهما من انفعالى وثورتى الى حد كبير ، لانه كان حديثا طائشا ، مصطنعا ، جامدا ، مجردا من العواطف ، يبعث الملل فى السامع أكثر مما يثير حنقه •

وكانت على المنضدة بطاقة باسمى ، فلما وقع نظرهما عليها تحول حديثهما الى ، فجعلا يسبانني بأفحش مافى وسعهما ، على طريقتهما الرخيصة ، لاسيما سيلين التى راحت تعدد عيوبى الخاصة ، أو « عاهاتى » كما أسمتها !٠٠ مع انها كانت ـ عادة ـ تتحدث بحماسة شديدة عمن تسميه « رجلها الجميل » ٠٠ أنا ! وهى فى هذا تختلف كل الاختلاف عنك أنت التى صارحتنى فى المقابلة الثانية بأنك لاترينني جميلا٠ ولقد أذهلنى الفارق وقتذاك و ٠٠٠ »

★ ★ ★

• وجاءت أديل تجرى مرة أخرى لتقول : « لقد جاء جون ياسيدى ليخبرك بأن وكيلك قدم ويرغب فى مقابلتك »

ـ آه ٠٠ فى هذه الحالة ، يجب أن أوجز : فتحت الباب ودهمتهما ، وحررت سيلين من رعايتى وحمايتى ، ثم أنذرتها بمغادرة الفندق ، وقدمت لها كيسا مليئا بالنقود لنفقاتها العاجلة ، غير حافل بعويلها ، ونوباتها الهستيرية ، وتوسلاتها واحتجاجاتها وانتفاضاتها ٠٠ ثم حددت مع « الفيكونت » موعدا فى غابة (بولونيا) ٠ وفى الصباح التالى حظيت بمنازلته ، ثم غادرته برصاصة فى احدى ذراعيه القاصرتين الضعيفتين ضعف جناح الفروج (الكتكوت) عند فقسه ، ظانا اننى قد انتهيت من الاثنين ٠ ولكن ٠٠ شد ماكان أسفى، اذ كانت سيلين قد جاءتنى بهذه الصغيرة « أديل » قبل الحادث بستة أشهر ، مؤكدة أنها ابنتى ٠٠ ولعلها كذلك ، وان كنت لا أجد على محياها أية قرينة تنم عن أبوتى لها ٠٠ بل ان كلبى « بايلوت » يشبهنى أكثر منها !!٠٠ وبعد انقضاء سنوات على انقطاع صلتى بالام ، هجرت المرأة طفلتها وهربت الى ايطاليا مع موسيقى أو مطرب ٠ ولم أكن أعترف بأى حق طبيعى لاديل يلزمنى بالانفاق عليها ، لاننى لست والدها ، بيد اننى سمعت بأن الطفلة مهملة اهمالا تاما ، فانتشلتها من

أوحال باريس ، ونقلتها الى هنـــا لتترعرع نظيفـــة فى تربة حديقة انجليزية بالريف • وقد إهتدت اليك مسز فيرفاكس لتعلميها • ومن المحتمل بعد أن عرفت الآن أنها ابنة غيرشرعية لراقصة فرنسية ، أن ترى رأيا آخر فى وظيفتك والطفلة التى تحت رعايتك • وقد تجيئينى يوما ما لتنذرينى بأنك وجدت مكانا آخر وتطلبى الى أن أبحث عن معلمـــة أخرى •• أليس كذلك ؟

ـ كلا •• ان أديل غير مسئولة عن أخطاء أمها أو أخطائك• وانا أعزها •• بل اننى بعد أن عرفت الآن أنها عديمة الابوين، منبوذة من أمها ، وغير معترف بها منك ياســيدى ، سأزداد تشبثا بها عن ذى قبل • وكيف يمكن أن أفضل فتاة مدللة من أسرة غنية قد تكره معلمتها كراهيتهـــا لشىء مزعج مقلق للراحة ، على يتيمة صغيرة وحيدة يمكن الاطمئنان الى صداقتها ؟!

ـ أهذا هو الضوء الذى تنظرين فيه الى الامر ؟! حســنا ، يجب ان أذهب الآن ، وأنت أيضا ، لان الظلام يهبط

ولكننى مكثت بضع دقائق أخرى مع آديل و « بايلوت »• وجريت مع الصبية نتسابق ، ثم لعبنا بالكرة والمضرب • ولما دخلنا ، خلعت عنها قبعتها ومعطفها ، ثم أجلستها على ركبتى، وتركتها ساعة تثرثر كما شاءت ، دون ان أحاول ردعها ، بل دون أن أفكر فى تأنيبها على بعض الهفوات التافهة التى كانت ترتكبها عندما تشعر بأن ثمة من يحصى عليهـــا تصرفاتها ، والتى كانت تكشف عن سطحية فى سلوكها ، لعلها وزثتها عن أمها •• فلقد كانت لها ـ رغم ذلك ـ فضائل ، وكنت ميالة الى أن أقدر فيها كل ماهو طيب الى أقصى حد • ورحت أتفرس فى محياها وملامحهـــا ، بحثا عن شـــبه يقربها من مستر روشستر ، ولكنى لم أفز بطائل ، اذ لم أجد مايؤكد الصلة بينهما ، ومن ثم أسفت للفتاة التى كانت خليقة بأن تلقى منه مزيدا من العناية لو ثبت أى شبه بينها وبينه !

* * *

• **ولم** يتح لى استعراض القصة التى رواها لى مستر روشستر الا حين أويت الى غرفتى الخاصة فى الليل . وكما قال هو ، كان من المحتمل ان مادة القصة لم تحو – فى حد ذاتها – شيئا غير عادى : فان هيام رجل انجليزى موسر براقصة فرنسية ، وخيانتها له ، كانا مما يحدث فى المجتمع كل يوم ولا ريب . بيد أنه كان ثمة شىء عجيب – بكل تأكيد – فى نوبة الانفعال التى تملكته وهو يعبر عن رضائه الحالى بطباعه ، وعن سروره المتجدد حديثا بالقصر القديم وما حوله. ومضيت أتأمل طويلا هذه الحال ، ولكننى أقلعت تدريجا عن التفكير فيها ، بعد أن وجدتنى لا أستطيع فهمها فى الوقت الحاضر . ثم تحولت الى التفكير فى مسلكه الشخصى معى .. فى الثقة التى وجدنى أهلا لان يضعها فى ، تقديرا منه لحصافتى وفطنتى ، والتى تقبلتها – من ناحيتى – على هذا الاعتبار !

كان مسلكه نحوى منذ أسابيع ، أكثر اتساقا من ذى قبل. ولم أكن أحاول ان أعترض طريقه قط ، ولكنه كان اذا لقينى مصادفة يرحب بى ويتبادل معى بعض العبارات . وكان أحيانا يبتسم لى .. واذا دعانى رسميا الى حضرته ، كان يؤثرنى باستقبال ودى يبعث فى نفسى الشعور بأن لى القوة حقا على تسليته ، وانه انما كان ينشد هذه الاحاديث المسائية لادخال السرور على نفسه ، كما كنت أنا أنشدها لأفيد منها ! .. فقد كنت – فى الحقيقة – أقل من حديثى نسبيا لانصت اليه ، وهو يتحدث كيفما يشاء . وكان بطبيعته محدثا لبقا ، محبا لان يفتح أذهان من يجهلون العالم لتلقى ومضات من مناظره وطرائقه .. ولست أعنى مناظره الفاسدة وطرائقه الخبيثة ، وانما أقصد تلك التى تشتق طرافتها من جدتها وذيوعها . وكنت شديدة الاغتباط باستقبال الآراء الجديدة

التى كان يقدمها ، وبتخيل الصور الجـديدة التى يرسمها ، وبتتبعه الى المناطق الجديدة التى يكشف عنها الستار دون ان يروعنى أو يزعجنى باطاعة تضايقنى أو تؤذى مشاعرى !٠٠ **ولقد حررتنى بساطة أخلاقه من قيود التحفظ الاليم ، كمـا جذبتنى اليه صراحته الودود ، المستقيمة ، المخلصـة ، التى أخذ يعاملنى بها ، حتى كان يخيل الى أحيانا انه قريبى أكثر منه مخدومى** ! ٠٠ على انه ظل رغم ذلك يسـتبد فى بعض الاحيان برأيه فى لهجة آمرة ، ولكنى لم أكن أهتم لذلك ، اذ أدركت طباعه وطريقته ٠ ولقد بلغ من شعورى بالسـعادة والامتنان بهذا اللون الجديد من ألوان الاهتمام فى حياتى ، أن كففت عن الحنين الى ان يكون لى أقارب ، وبدا لى ان مصيرى الذى كان كالهلال الصغير أخـذ يكبر وينمو ، وأن الثغرات التى كانت فى كيانى قد امتلأت ، وأن صحتى تحسنت ، واننى ازددت قوة وبدانة !

أتراني كنت بعد ذاك أرى مستر روششتر دميما ؟ كلا أيها القارىء ، فان الاعتراف بالجميل وبالعديد من خصاله ـ وكلها كانت تبعث على السرور والايناس ـ جعل وجهـه أحب شىء أرغب فى رؤيته ، كما كان لوجوده فى أى غرفة اشراق يفوق أكثر النيران تألقا !٠٠ ولكننى ـ فى الواقع ـ لم أنس أخطاءه ، ولم يكن فى وسعى نسيانها ، لانه كان يذكرها دائما أمامى ٠ اذ كان متعاليا ، ساخرا ، قاسيا عـلى من هم دونه ، وكنت أعرف فى طوايا نفسى أن عطفه علي تقابله شدة جائرة عـلى كثيرين آخرين ٠ **ثم انه كان دائب الهم والاكتئاب الى درجـة كبيرة ٠٠ وكم كنت أجده ـ عندما يرسل فى طلبى لاقرأ له ـ جالسا فى مكتبته بمفرده ،ورأسه معتمد على ذراعيه المعقودتين ٠ فاذا رفع رأسه ، رأيت عبوسـا مكتئبا ، بل خبيثا ، يظلم أساريره ! ولكني كنت أعتقد أن همه وصرامته وذنوبه الخلقية السابقة ـ وأقول السابقة اذ بدا انه أصلح من شأنها ـ انما**

نشأت من احدى صدمات القدر القاسية ٠٠ وكنت أعتقد انه بسليقته رجل ذو ميول طيبة ، ومبادىء سامية ، وأذواق صافية ، تفوق مانمته فى نفسه الظروف ، وما بثه فيه التعليم، وشجعه عليه القدر ٠٠ بل كنت أعتقد كذلك ان فيه خامات طيبة وان بدت اذ ذاك مضطربة معقدة ٠ ولا سبيل الى أن أنكر اننى كنت أحزن لما يحزنه مهما يكن ، ولا أضن بالكثير من أجل التخفيف عنه !

★ ★ ★

وبالرغم من اننى أطفأت الشمعة ورقدت فى الفراش ، الا اننى لم أستطع النوم ، اذ رحت أفكر فى نظرته عندما توقف فى الطريق ، وأخبرنى كيف تمثل له مصيره شبحا منتصبا وأغراه على أن يكون سعيدا فى (ثورنفيلد) ٠ وتساءلت :

– لم لا ؟! ما الذى يبعده عن المنزل ؟٠٠ وهل سيغادره مرة أخرى عن قريب ؟ ٠٠ لقد أخبرتنى مسز فيرفاكس أنه قل أن أقام هنا أكثر من أسبوعين كاملين ، وها هو ذا الآن قد مكث ثمانية أسابيع ، فلو رحل لكان هذا التحول باعثا على الحزن والغم ! ٠ ولنفرض انه تغيب طوال الربيع والصيف والخريف، فكم ستبدو أشعة الشمس مقبضة والايام فارغة ، اذ ذاك ؟

ولست أدرى هل استسلمت للنوم ، أو اننى ظللت مستيقظة بعد هذه الخواطر ٠٠ وانما الذى أدريه هو اننى انتبهت مفزوعة على صوت همهمة غامضة ، شاذة ، كئيبة – خلتها تنبعث من الحجرة التى تقع فوق حجرتى مباشرة – فتمنيت لو اننى كنت قد تركت الشمعة موقدة ، لان الليلة كانت رهيبة الظلام ، ولان روحى المعنوية كانت مثقلة ٠ واستويت جالسة فى فراشى ، أرهف السمع ، ولكن الصوت كان قد سكت ٠ وحاولت ان أنام من جديد ، ولكن قلبى راح يخفق

قلقا ٠٠ كانت طمأنينتى قد تبددت ٠ ودقت الساعة التى فى الطرف الاقصى من البهو معلنة الثانية ٠٠ وفى تلك اللحظة ، خيل الى أن شيئا مس باب غرفتى ، وكأن أصابع قد احتكت بألواحه وهى تتحسس طريقها فى الردهة المظلمة ٠٠ وقلت : « من هناك ؟ » ٠٠ ولكننى لم أتلق ردا ، فسرت فى كيانى برودة الخوف ٠٠ ثم تذكرت فى الحال ان الذى مر بغرفتى ربما كان « بايلوت » الذى كان كثيرا ما يتخذ سبيله الى عتبة غرفة مستر روشستر ، اذا قدر لباب المطبخ أن يترك مفتوحا وقد رأيته بنفسى راقدا هناك فى أكثر من صباح !٠٠ وهدأت نفسى لهذا الخاطر هونا ما ، فرقدت من جديد ٠ وأخذ الصمت يهدىء أعصابى ، ولما كان السكون الشامل يغشى البيت كله ، فقد بدأت أشعر بالنعاس يعاودنى ٠ بيد انه لم يكن مقدورا لى ان أنام فى تلك الليلة ، فما كاد أحد الاحلام يراودنى ، حتى ولى مذعورا وقد أفزعه حادث جمد له النخاع فى عظامى !

وكان الحادث فى هذه المرة ضحكة شيطانية خافتة ،مكبوتة، عميقة ، خيل الى أنها انبعثت فى ثقب مفتاح باب غرفتى بالذات ٠٠ وكان رأس سريرى قريبا من الباب ، فخيل الى فى أول الامر أن الضحكة الشيطانية قد وقفت بجانب سريرى ، أو بالاحرى ربضت عند وسادتى ، فنهضت وجعلت أتلفت حولى، ولكننى لم أر شيئا ٠ وفيما كنت أحملق ، عادت الضحكة غير الطبيعية ، وأدركت انها جاءت من خلف الالواح الزجاجية ٠ وكان أول مافكرت فيه ان أنهض وأحكم رتاج الباب، ولكن الخاطر الثانى أهاب بى أن أصيح « من هناك ؟ »

٠٠ كان هنالك شىء يخور ويئن !٠٠ وبعد قليل ، سمعت خطوات تبتعد فى الردهة الى سلم الطابق الثالث وكان قد أقيم أخيرا باب يمنع الوصول الى ذلك السلم ، فسمعت هذا الباب يفتح ويغلق ، ثم ران السكون ٠٠ فقلت فى نفسى : « أكانت هذه جريس بول ؟ وهل يتملكها الشيطان ؟ » ٠٠

وصار من المستحيل أن أظل منفردة بنفسى بعد هذا ، بل يجب ان أذهب الى مسز فيرفاكس ، فبادرت أرتدى معطفى وشالى ، ثم سحبت المزلاج وفتحت الباب بيد ترتعد • وكانت بالبهو شمعة تشتعل ، خارج الباب مباشرة ، وعلى البساط ، فدهشت للامر • ولكن دهشتى كانت أشد عندما رأيت الجو ملبدا وكأنه امتلأ بالدخان !•• وفيما كنت أتطلع الى اليمين والى اليسار ، لاتبين مصدر هذه الجدائل الزرقاء من الدخان ، فطنت الى رائحة احتراق قوية

ثم سمعت صوت صريف ينبعث من باب موارب •• هو باب حجرة مستر روشستر •• وتبينت ان الدخان كان يندفع منه أشبه بسحابة كثيفة ، فلم أعد أفكر فى مسز فيرفاكس أو فى جريس بول أو فى الضحكة • **وفى لحظة واحدة كنت بداخل الغرفة ، فاذا بألسنة اللهب تندلع حول الفراش ، والستائر تشتعل • وفى وسط اللهيب والدخان ، كان مستر روشستر مستغرقا فى النوم لايتحرك ولا يريم ! فصحت وأنا أهزه : « أفق !•• استيقظ ! » •• لكنه لم يفعل أكثر من أن تقلب وغمغم ، فقد ذهب الدخان بوعيه وسلبه رشده •• ولم تكن هناك لحظة يمكن اضاعتها ، اذ أن أغطية السرير نفسه كانت قد اشتعلت • فاندفعت الى الحوض والابريق •• ولحسن الحظ كان أحدهما واسعا والآخر عميقا ، كما كان كلاهما مملوءا بالماء ، فحملتهما عاليا وأغرقت الفراش ومن فيه • ثم أسرعت الى حجرتى فعبأت بابريقى وأغرقت الفراش من جديد •ووفقت بعون الله الى اخماد النار التى كانت تلتهمه**

وأخيرا ، أفاق مستر روشستر على أزيز النار وهى تنطفىء بفعل الماء ، وعلى صوت تحطيم الابريق الذى طوحته من يدى بعد أن أفرغته ، وعلى رذاذ الماء الذى صببته عليه متعمدة ، قبل كل شىء •• وأدركت رغم الظلام انه قد استيقظ ، لاننى سمعته يهدر بألوان عجيبة من اللعنات ، عندما وجد نفسه

راقدا فى بركة من المياه · ثم صاح : « هل ثمة فيضان ؟ »··
فأجبته : « كلا ياسيدى ، ولكن كان ثمة حريق · قم فقد غرقت وسآتيك بشمعة »
ـ بحق شياطين البلاد المسيحية كلها ، هل هذه «جين اير» ؟ ماذا فعلت بى أيتها الساحرة العرافة ؟! من بالحجرة غيرك ؟ هل تآمرت على اغراقى ؟
ـ سآتيك بشمعة ياسيدى ، فأستحلفك بالله أن تقوم اذ دبر لك بعضهم شيئا ، وليس فى وسعك أن تكشف فى الحال عمن هو المدبر وما الذى دبره !
ـ ها قد قمت الآن ، ولكنك تخاطرين باحضار الشمعة · انتظرى دقيقتين حتى أجد ثيابا جافة اذا كان قد بقى شىء جاف ·· أجل ، ها هو ذا ثوب الغرفة (الروب دى شامبر) ·· اجرى اذن !
وهرعت وجئت بالشمعة التى كانت لا تزال فى الردهة فتناولها من يدى ثم راح يتأمل الفراش الذى اسود واحترق ، والى الملاءات المبتلة ، والبساط السابح فى المياه ·· وسألنى : « ماهذا ؟ ومن فعله ؟ » ·· فرويت له فى ايجاز ماجرى : الضحكة العجيبة التى سمعتها فى البهو ·· وقع الاقدام الصاعدة الى الطابق الثالث ·· الدخان ورائحة النار التى قادتنى الى حجرته ·· أية حالة كانت الامور عليها هنالك ، وكيف أغرقته بكل ما وقع بين يدى من مياه ·· وكان يصغى الى فى اهتمام ورزانة ، وكلما أوغلت فى حديثى تجلى على وجهه من آيات القلق فوق ما كان عليه من أمارت الدهش · ولم يتكلم على الفور بمجرد أن انتهيت من روايتى · فسألته : « هل أستدعى مسز فيرفاكس ؟ »
ـ مسز فيرفاكس ؟ كلا ·· لماذا بالله تستدعينها ؟ ما الذى فى وسعها ان تفعله ؟ ·· لا تعكرى صفو نومها !
ـ اذن سأجىء بالخادمة « لياه » وأوقظ جون وزوجته

ـ كلا مطلقا ٠٠ بل التزمى الهدوء !٠٠ أراك تتلفعين بشال، فاذا كان لايدفئك جيدا فخذى عباءتى التى هناك وتدثرى بها ثم اجلسى على المقعد ذى المسندين ٠ والآن ضعى قدميك على الكرسى الصغير لتبعديهما عن البلل ٠ سوف أتركك بضع دقائق ، وسآخذ معى الشمعة ، فأبقى حيث أنت الى أن أعود ، والتزمى سكون الفئران ، اذ لابد لى من ان أزور الطابق الثالث ٠٠ وتذكرى ان عليك أن لا تتحركى أو تستدعى أحدا !

وذهب ، فظللت أرقب النور وهو يبتعد معه ٠ واجتاز الردهة فى خطى خفيفة للغاية ، ثم فتح باب السلم بأدنى جلبة مستطاعة وأغلقه خلفه قبل أن تختفى آخر أشعة للشمعة ٠٠ وهكذا تركنى فى ظلام دامس ٠ وأرهفت السمع فلم تتناه الى أذنى أية ضوضاء ٠ وانقضى وقت طويل ٠٠ وما لبث السأم أن تملكنى ، وشعرت بالبرد رغم العباءة ٠٠ وأخيرا ، لم أجد أية فائدة فى الانتظار ما دمت لن أوقظ أحدا من أهل المنزل٠ وهممت بأن أتعرض لغضب مستر روشستر ـ اذ يعود فيجدنى قد عصيت أوامره ـ ولكننى ما لبثت أن سمعت قدميه تدوسان بساط الردهة ، فقلت فى نفسى : « أرجو أن يكون هو ،وليس شيئا أسوأ ! » ٠٠ وأقبل هو ـ فعلا ـ شاحب الوجه ، بادى الاكتئاب ، ثم قال بعد أن وضع الشمعة على منضدة الاغتسال: « لقد اكتشفت كل شيء ووجدته كما قدرت ! »

ـ كيف ياسيدى ؟

فلم يحر جوابا بل وقف ويداه معقودتان ، ورأسه مطرق الى الارض ٠ وبعد دقائق سأل فى صوت يغلب عليه الشذوذ : « لقد نسيت ماقلت لى ٠٠ هل قلت انك شاهدت شيئا عندما فتحت باب مخدعك ؟ »

ـ كلا ياسيدى ٠٠ كانت الشمعة على الارض فقط

ـ ولكن ، ألم تسمعى ضحكة عجيبة ؟٠٠ وما أرى الا انك سمعت هذه الضحكة من قبل ، أو شيئا من هذا القبيل !

ـ نعم ياسيدى .. فهنـاك امرأة تتولى الحيـاكة ـ وتدعي « جريس بول » ـ تضحك بتلك الطريقة .. انهـا مخلوقة عجيبة !

ـ تماما ، جريس بول !.. لقد أصاب حدسك !.. انهـا كما تقولين عجيبة .. جدا ! حسنا سـأفكر فى الامر ، وفى الوقت نفسه يسرنى أنك الشخص الوحيد ـ ماعداى ـ الذى يلم بالتفاصيل الدقيقة لحادث الليلة . أنت لست ثرثارة حمقاء فلا تتحدثى بشىء عن ذلك لاحد !

ثم أشار الى الفراش وعاد يقول : « والآن عودى الى حجرتك وسأرتاح كل الراحة بقية الليل على أريكة بحجرة المكتبة .. لقد قاربت الساعة الرابعـة وسـوف يستيقظ الخـدم بعـد ساعتين

ـ طابت ليلتك اذن ياسيدى !

ثم هممت بالرحيل فتظاهر بدهشة تناقض غاية التناقض ما طلبه من مبادرة بالعودة الى حجرتي وصاح : « ماذا ! هـل تغادريننى فى الحال ، وبهذه الطريقة ؟ »

ـ ألم تقل ان فى وسعى العودة !

ـ ولكن ، ليس دون أن تستأذنى .. ليس دون كلمـة أو اثنتين أعبر بهما عن تقديرى وعرفانى ... وبالاختصار ، ليس بهذه الطريقة المبتسرة الجافة . انك أنقذت حياتى . بل انك انتزعتنى انتزاعا من أنيـاب ميتة مروعة ، أليمـة . فكيف تفارقينني كما لو كنا غريبين لايعرف أحدنا الآخر ؟! صافحينى على الاقل !

وبسط يده ، فناولته يدى . واذ ذاك أمسك بها أولا فى احدى يديه ، ثم أطبق عليها راحتيه وقال : « لقدأنقذت حياتى ، ويسرنى أن أدين لك بهذا الدين الضخم ، وليس فى مقدورى أن أقول أكثر من هذا .. بل اننى ماكنت لاحتمـل ان أدين

لمخلوق على قيد الوجود بمثل هذا الالتزام ٠ بيـــد ان الامر يختلف معك ، فلست أشعر بأن فضلك هذا عبء يثقل عـلى ياجين » ٠٠ وتوقف عن الكلام ، وأخذ يتفرس فى ، والكلمات تضطرب على شفتيه ، ولكنه حبسها ، فقلت : « طابت ليلتك مرة أخرى ياسيدى ، وليس فى الامر دين أوفضل أو التزام! »

ـ كنت أعرف انه سينالنى خير على يديك بطريقة ما ، وفى وقت ما ٠٠ قرأت ذلك فى عينيك يوم شاهدتك لاول مرة ،ولم تكن عبثا نظرتك وابتسامتك اللتان أدخلتا البهجة على نفسى ٠ ان الناس يتحدثون عن العواطف الطبيعية ، كمـــا سمعتهم يتحدثون عن وجود « الملاك ، الطيب » ، وقد آمنت الآن بأن فى الخرافات ـ مهما تشتط فى الخيال ـ بذورا من الحقيقة ٠٠ طابت ليلتك يا حافظتى العزيزة !

وكانت فى صوته حيوية عجيبة ، وفى نظرته نار غريبة ، فقلت : « يســعدنى ياسـيدى أننى كنت لا أزال متيقظـــة ، بالمصادفة ! » ٠٠ ثم هممت بالانصراف فقال : « ماذا !٠٠ هل ستنصرفين ؟ »

ـ اننى أشعر ببرد ياسيدى

ـ ببرد ؟ ٠٠ أجل ٠٠ بل انك تقفين فى بركة ماء ! اذهبى اذن ياجين !

ولكنه ظل ممسكا بيدى ، فلم أستطع تخليصها ٠ وفكرت فى حيلة أتذرع بها ، فقلت : « أظننى سمعت مسز فيرفاكس تتحرك ياسيدى » ٠٠ فأرخى أصابعه وقال : « حســـنا ٠٠ فارقينى ! » ٠٠ وانصرفت ، فعدت الى فراشى ، ولكننى لم أفكر فى النوم اطلاقا ، بل ظللت ـ الى أن لاحت تباشير الفجر ـ كمن يطوح بها بحر بهيج وسار ، ولكنه ليس هادىء الصفو ، وانما تنساب تحت أمواج مباهجه تيارات العناء والمتاعب ٠٠ وكان يخيل الى أحيانا أننى أرى خلف مياهه العنيفة شاطئا

جميلا ، ثم لا يلبث الامل بين حين وآخر أن يوقظ زوبعة منعشة تحمل روحى ظافرة الى هدفى ٠٠ الى ذلك الشاطىء الجميل ، ولكننى لم أستطع بلوغه حتى فى الخيال ، لان عاصفة مضادة كانت تجرنى الى الخلف ، أى اننى كنت بين عاملين : كان العقل يقاوم الهذيان ، والتمييز يحذر من الهوى ٠٠ واستحال على أن أستريح وأنا محمومة هكذا ، فنهضت بمجرد أن طلع فجر اليوم !

الفصل السادس عشر



◆ كنت أتمنى ـ بقدر ما كنت أخشى ـ ان أقابل مستر روشستر فى اليوم التالى لتلك الليلة الليلاء الساهدة ٠٠ كنت أصبو الى أن أسمع صوته مرة أخرى ٠ ومع ذلك كنت أرجف من أن تلتقى عيناى بعينيه ٠ وكنت طوال الهزيع الباكر من الصباح أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى ٠٠ ومع انه لم يعتد أن يدخل الى حجرة الدراسة ، الا انه كان يعرج عليها فى بعض الاحيان، ولذلك كان بى هاتف يؤكد لى أنه سيزور الحجرة فى ذلك اليوم ٠٠ غير ان الصباح انقضى كالعادة ، دون ان يقع مايعوق سير الدرس ٠ على أننى لم أكد أنتهى من تناول الافطار ، حتى سمعت لغطا بجوار مخدع مستر روشستر ، وكان مزيجا من أصوات مسز فيرفاكس و « لياه » والطاهية ٠٠ بل وصوت

زوجها « جون » بلهجته الغليظة ، وتناهت الى أذنى - خلال اللغط - صيحات متعددة : « من رحمة الله ان السيد لم يحترق فى فراشه ! » .. « من الخطر دائما أن تظل احدى الشموع موقدة فى الليل » .. « من عناية الله أن أوتى من حضور الذهن ما جعله يتذكر ابريق الماء » .. « من عجب أنه لم يوقظ أحدا ! » .. « عسى أن لايصاب ببرد بعد نومته على أريكة المكتبة » .. الخ .

ودار لغط كثير ، أعقبته أصوات مسح الحجرة وتنظيفها ، وترتيب محتوياتها .. وعندما مررت بتلك الحجرة فى طريقى لتناول الغداء بالطابق الاسفل ، شاهدت من خلال الباب المفتوح أن كل شىء قد استعاد نظامه التام ، فيما عدا الفراش الذى كان مجردا من ستائره . وكانت «لياه» منتصبة فوق قاعدة النافذة ، تمسح ألواحها الزجاجية التى جعلها الدخان معتمة . وهممت بأن أخاطبها رغبة فى معرفة السبب الذى يعزى اليه ذلك الحادث ، ولكننى ما ان تقدمت حتى شاهدت شخصا آخر فى الحجرة : امرأة تجلس على مقعد بجوار الفراش ، وتخيط دوائر أستار جديدة .. ولم تكن تلك المرأة سوى « جريس بول » !

هنالك تجلس رابطة الجأش ، مخلدة الى الوجوم كالعادة ، بثوبها البنى الفضفاض ، ومرولتها - ذات المربعات - ومنديلها وقلنسوتها الناصعتى البياض . وكانت منهمكة فى عملها الذى بدا انها استغرقت فيه بكل أفكارها، دون أن يتراءى على جبينها الجامد ، أو على أساريرها المألوفة شىء من الامتقاع أو القنوط الذى يتوقع المرء أن يراه على أسارير امرأة شرعت فى ارتكاب جريمة قتل فى الليلة السالفة ، فاذا بالضحية المقصودة تتبعها الى عرينها ، وتتهمها - كما اعتقدت - بالجريمة التى أرادت تنفيذها .. لذلك تولتنى الدهشة وتملكتنى الحيرة .. وفيما كنت أتفرس فيها ، رفعت عينيها دون أن ترتاع أو يتضرج وجهها بحمرة أو شحوب ينم عن انفعال فى النفس أو شعور بالاثم أو خوف من اكتشاف أمرها . بل انها قالت بلهجتها الفاترة المقتضبة : «صباح الخير يا آنسة » ، ثم تناولت دائرة أخرى وشريطا آخر ، واسترسلت فى خياطتها ، فقلت أحدث نفسى : « سوف أجرى عليها بعض بعض الاختبار ، فان مثل هذا التكتم المطلق يفوق كل تصور وادراك ! » .. ثم قلت لها : « صباح الخير ياجريس . هل حدث شىء هنا ؟.. لقد خيل الى اننى سمعت جميع الخدم يتبادلون الحديث منذ هنيهة ! »

- كل ما هنالك ان السيد كان يقرأ فى فراشه ليلة أمس ، فاستغرق فى النوم والشمعة موقدة ، فشبت النيران فى الستائر .. ولكنه لحسن الحظ تيقظ قبل أن يمتد اللهب الى مفارش السرير والى النوافذ والابواب ، فتمكن من اخماد الحريق بماء الابريق

فقلت بصوت خافت : « ياله من أمر عجيب ! » .. ثم سددت اليهانظراتى وقلت : « هل أيقظ مستر روشستر أحدا ؟ .. ألم يسمعه أحد يتحرك ؟ » .. فرفعت عينيها الى مرة أخرى ، وكان فيهما فى هذه المرة ما يعبر عن الشعور بالجرم . وبدا لى أنها تتفحصنى بحذر شديد ، ثم أجابتنى قائلة : « انالخدم ينامون بعيدا جدا كما تعلمين ياآنسة ، فمن المحتمل انهم لم يسمعوا شيئا . أما حجرة مسز فيرفاكس وحجرتك فاقرب الحجرات الى غرفة السيد ، ولكن مسز فيرفاكس قررت انها لم تسمع شيئا على الاطلاق لان من يطعنون فى السن يثقل نومهم »

ثم توقفت قليلا قبل أن تستطرد ، وهى تتظاهر بعدم المبالاة ، رغم ما كان فى لهجتها من دلالة ومغزى : « ولكنك شابة يا آنسة ، بل أنت أخف نوما ، فلعلك سمعت ضجة ما ؟ » .. فقلت وأنا أخافت من صوتى حتى لا تقوى على سماعه « لياه » التى كانت لاتزال تصقل ألواح النوافذ الزجاجية : « لقد سمعت فعلا .. وظننت فى أول الامر انها من بايلوت ، ولكن بايلوت لايستطيع الضحك . وانا واثقة من اننى سمعت ضحكة .. ضحكة عجيبة ! » .. فتناولت خيطا جديدا شمعته بعناية ، ثم أدخلته فى ثقب الابرة بيد ثابتة ، وقالت برباطة جأش تامة : « ليس من المحتمل - فيما أعتقد - أن يضحك السيد وهو فى مثل هذا الخطر .. فلا شك أنك كنت تحلمين يا آنسة ! »

فقلت بشىء من الانفعال بعد أن أثارتنى ببرودها السليط : « بل اننى لم أكن أحلم ! » .. فتطلعت الى مرة أخرى بنفس العين المتفحصة الواعية ، ثم سألتنى : « هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكة ؟ »

- لم أجد فرصة للتحدث اليه فى هذا الصباح

فعادت تسألنى : « ألم تفكرى فى فتح بابك والتطلع الى الردهة ؟ » .. وبدا انها تستجوبنى وتحاول أن تنتزع أخبارى دون أن أفطن . وخطر لى أنها اذا اكتشفت أننى أعرف أو أرتاب فى جرمها ، فقد تحاول ان تأتى معى بعض ألاعيبها الخبيثة . لذلك رأيت من الحكمة ان أكون على حذر ، فقلت : « بل على العكس .. أغلقت بابى بالمزلاج ! »

- اذن فليس من عادتك أن تغلقيه بالمزلاج فى كل ليلة قبل ان تأوى الى فراشك ؟

يا للشيطانة ! .. انها تود ان تعرف عاداتى لترسم خططها على هذا الاساس !.. وتغلب الحنق على حكمتى فأجبتها بحدة : « كنت - قبل الآن - كثيرا ما أغفل اغلاقه بالمزلاج ، لاننى لم أكن أجد ضرورة لذلك ، ولا كنت أعلم بوجود خطر يتهددنى أو كدر أخشاه فى قصر (ثورنفيلد) .. أما فى المستقبل (وضغطت على مخارج الكلمات التالية) فسوف أبذل اهتماما بالغا لاتخاذ كل

حيطة وضمان قبل أن أجرؤ على الاستلقاء على فراشى ! » .. فكان جوابها : « من الحكمة أن تفعلى ذلك ، فان منطقتنا هذه هادئة – فيما أعلم – ولم أسمع فى حياتى قط ان اللصوص حاولوا السطو على القصر منذ اتخذ سكنا، رغم مابه – كما هو معروف – من صحاف فى صوان الآنية ، تساوى مئات الجنيهات ، ورغم ان عدد الخدم هنا قليل جدا بالنسبة الى قصر كبير كهذا ، نظرا لان السيد لايقيم هنا طويلا ، فاذا جاء – وهو أعزب – لم يحتج الى خدمة كثيرة . ولذلك فاننى ارى دائما ان من الافضل اتخاذ الحيطة ، بايصاد الباب بمجرد ولوج المرء مخدعه ، كما يحسن وضع المزلاج ليحول بين الانسان وبين أى شر قد يحوم حوله . ان كثيرا من الناس يا آنسة يكلون كل شئ للعناية الالهية ، ولكنى أؤكد لك ان العناية الالهية لاتمنع من اتخاذ الحيطة ، وان الله يبارك هذه الوسائل اذا ما استعملت بحذر وفطنة ! »

وعندئذ انتهت من القاء خطبتها .. وكانت خطبة طويلة بالنسبة لصمتها المألوف ، وقد ألقتها برزانة المحتالات الدجالات ، بينما ظللت أنا واقفة جد مبهوتة أمام مابدا لعينى من رباطة جأشها النادرة ، وريائها العويص ، ثم ما لبثت الطاهية ان دخلت لتقول لها : « ان غداء الخدم يامسز بول سيعد على التو فهل تتفضلين بالنزول ؟ »

– كلا .. فقط ضعى شرابى وبعض العصيدة على صينية ، وسوف أحملها الى الطابق العلوى

– ألا ترغبين فى قليل من اللحم ؟

– قطعة صغيرة منه ، وقطعة من الجبن .. فقط !

– والساغو ؟ (نشاء من جمار النخل)

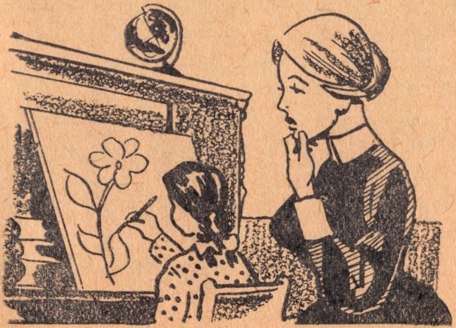
– لا داعى له الآن .. سأنزل قبل موعد تناول الشاى وأصنعه بنفسى

★ ★ ★

◆ وعندئذ التفتت الطاهية نحوى لتخبرنى بأن مسز فيرفاكس فى انتظارى ، فانصرفت اذ ذاك . ولكنى لم أكد أسمع شيئا من حديث مسز فيرفاكس عن حريق الستائر ، لاننى كنت – أثناء تناول الطعام – مستغرقة بكل أفكارى الحائرة فى أطوار « جريس بول » التى بدت لى لغزا غامضا ، كما كنت أشد استغراقا فى محاولة ادراك مركزها فى (ثورنفيلد) ، وفى التساؤل : لماذا لم يلق بها فى غيابة السجن فى ذلك الصباح ، أو – على الاقل – لماذا لم تطرد من خدمة سيدها ؟.. لقد أعلن فى الليلة الماضية جرمها فيما يشبه الجزم والتأكيد ، فأى سبب خفى منعه من اعلان اتهامه لها ؟ ولماذا طلب منى كذلك أن أخفى الامر وأتكتمه ؟.. كان من العجيب أن يبدو هذا السيد الجسور ، المنتقم ، المتعالى ، تحت رحمة خادمة من أحط خدمه بحيث لايجرؤ – بعد ان

رفعت يدها للقضاء عليه ـ على أن يتهمها علانية ، على الاقل ، بمحاولة اغتياله، ان لم يسع الى عقابها على جرمها !٠٠ ولو أن « جريس » كانت شابة وجميلة، لوجدت مايحملني على الظن بأن ثمة عـواطف واحساسـات أرق من التبصر والخوف ، هي التي ألانت قلب مستر روشستر نحوها ، أما وهي على ماكانت عليه من دمامة وكهولة ، فان هذا الظن لم يكن مستساغا ٠٠ ورحت أقـول لنفسي : « ولكنها كانت شابة في يوم من الايام ، وكان شبابها معـاصرا لشباب سيدها ـ فقد أخبرتني مسز فيرفاكس انها تقيم هنا منذ سـنوات عديدة ـ ولا أحسب انها كانت حسناء ، ولكن لعلها كانت تنعم باصالة في الرأى وقوة في الاخلاق عوضاها عمـا كان ينقصها من الميزات الشخصية ٠ ان مستر روشستر من هواة الخلق الحازم والاطوار الغريبة ٠ وجريس غريبـة الاطوار على الاقل ، فماذا لو أن نزوة من نزواته السابقة ـ وهى فلتة تجوز جدا بالنسبة لطبيعة رجل مثله على جانب كبير من سرعة الانفعال وصـلابة الرأى ـ اسلمته الى رحمتها ، فمكنها نتيجة لعدم تبصره من أن تفرض عـلى اعماله سلطة خفية لايقـوى على الافلات منها ، ولا يجرؤ على اغفالها ؟!٠٠ ولكن ما ان بلغت هذه النقطة من الحدس والتخمين ، حتى تمثلت لخيالى جريس ـ أو مسز بول ـ بقامتها الربعة الخالية من الرونق ، وبوجهها الدميم الجاف ٠٠ بل الغليظ ، فقلت لنفسي : « كلا ٠٠ مسـتحيل ! ان افتراضي لايمكن ان يكون صحيحا ٠٠ ومع ذلك ـ وهنا هتف بى الصوت الخفى الذى ينبعث عادة من قلوبنا ـ فأنت كذلك لست جميلة ، ومن المحتمـل أن مستر روشستر يستلطفك ، أو على أية حال هذا ما طالما أحسست به ٠٠ وفي ليلة أمس ٠ ٠ تذكرى كلماته ٠٠ تذكرى نظراته ٠٠ تذكرى صوته ! »

وتذكرت كل ذلك بجلاء ٠٠ تجددت بوضوح ذكرى لهجته ، ونظرته ، ولغته ٠٠ وكنت اذ ذاك في حجرة الدرس وأديل ترسم ، فملت عليها وأمسكت قلمها



الرصاص أوجهه ، فنظرت الى وكأنها روعت ثم قالت بالفرنسية : « ماذا بك يا آنسة ؟٠٠ ان أصابعك ترتعد كورقة من أوراق الشجر ، ووجنتيك متوردتان ٠٠ فى حمرة الكريز ! »

ـ اننى أشعر بالحر بسبب انحنائى !

فعادت الى رسمها ، وعدت الى تفكيرى : بادرت أقصى من رأسى تلك الفكرة البغيضة التى استبدت بى بشأن جريس ٠٠ تلك الفكرة التى جعلتنى أشمئز ٠٠ ولقد قارنت نفسى بها فوجدت اننا نقيضان ٠٠ ألم تقل بيسى ليفن ـالمربية السابقة بقصر جيتسهيد ـ حين زارتنى فى (لو وود) ، اننى سيدة بكل مافى الكلمة من معنى ؟ ٠٠ لقد كان ما قالته حقا ٠٠ بل اننى أصبحت أبدو خيرا مما كنت عندما رأتنى بيسى ، اذ ازداد لونى توردا ، وجسمى امتلاء ٠٠ وغدوت أكثر حيوية ونشاطا بعد ان ازدهرت آمالى وتضاعفت أسباب هنائى

وتطلعت ناحية النافذة وأنا أقول : « ان المساء يقترب وقد انقضى النهار دون أن أسمع صوتا لمستر روشستر او وقعا لقدميه فى المنزل ، ولكننى سأراه بكل تأكيد قبل أن يحل الليل ! » ٠٠ وبقدر ماكنت أخشى لقاءه فى الصباح أخذت أتلهف عليه الآن لان طول الارتقاب أعيانى ، حتى غدوت نافدة الصبر لا أقوى على مزيد من الاحتمال ٠٠ وعندما أسدل الغسق أستاره بالفعل ، وغادرتنى أديل لتمضى وتلعب مع مربيتها الفرنسية « صوفى » فى غرفة الاطفال ، اشتدت بى اللهفة ، فرحت أترقب رنين الجرس عسى ان يدوى فى الطابق الاسفل ، كما رحت أتنصت لعل « لياه » تصعد برسالة لى ٠ وكان يخيل الى أحيانا أننى أسمع وقع قدمى مستر روشستر فكنت أستدير الى الباب متوقعة أن يفتح ليدخل السيد عندى ٠٠ ولكن الباب ظل مغلقا ، ولم تدخل سوى الظلمة التى أقبلت خلال النافذة ٠٠ بيد أن الوقت لم يكن قد تأخر كثيرا ٠٠ فقد اعتاد أن يرسل فى طلبى فى السابعة أو الثامنة ٠ ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد ، ولا شك أن آمالى لن تخيب تماما فى هذه الليلة لان لدى أشياء كثيرة أريد ان أفضى بها اليه ٠٠ لسوف أتناول مرة أخرى موضوع جريس بول لاسمع رده ٠٠ سأسأله ببساطة : هل يعتقد حقيقة أنها هى التى أقدمت فى الليلة الماضية على تلك المحاولة البغيضة ؟! ٠٠ واذا كان الامر كذلك ، فلماذا يحتفظ بشرها سرا مكتوما ؟ ٠٠ ولن أحفل اذا اثاره فضولى وأغضبه ، فقد أصبحت أعرف كيف أغضبه ثم أرضيه ، على التوالى ٠٠ بل اننى لاجد فى ذلك متعة كبيرة!ولكن غريزة أمينة كانت تمنعنى من التغالى الى أبعد من حدود الاثارة ٠ وعند هذه النهاية ، كان يلذ لى أن أجرب مهارتى ، وأنا محتفظة بكل آيات الاحترام ، وبكل ما يليق بمركزى ، فأجادله بلا خوف أو انفعال مما يليق بى وبه على السواء

وأخيرا ، دوى وقع أقدام على السلم ثم ظهرت « لياه » ٠٠ على انهـا لم تأت الا لتخبرنى بأن الشاى معد فى غرفة مسز فيرفاكس ، فتأهبت على الفور مغتبطة بنزولى ، لان ذلك يقربنى - عـلى الاقل وكمـا توهمت - من مستر روشستر ٠ فلما اجتمعت بالسيدة فى حجرتها قالت : « لاشك فى أنك بحاجة الى فنجان من الشاى ٠٠ لقد أكلت قليلا جدا فى الغداء ، وأخشى ان لا تكونى اليوم بصحة جيدة ، لاننى أراك متوهجة الوجه محمومة ! »

- أوه ٠٠ أنا بخير ، بل أحسن حالا من أى وقت مضى

- اذن وجب ان تبرهنى على ذلك بما تبدين من شهوة للطعام ٠٠ هـل تسمحين بملء وعاء الشاى الى أن أنتزع هذه الابرة من الخيوط ؟!

وبعد أن أنجزت مهمتها قامت تسدل ستار النافذة ، بعد ان كانت قد رفعته لتنعم فيما أعتقد بأكبر قسط من ضياء النهار ، بعد ان ادلهم الغسـق ، واشتدت الظلمة ٠٠ وعادت تقول : « الجو معتدل هذا المساء ، ولو ان السماء ليست صافية الاديم ولا تكشف عن نجومها ٠ وعلى كل فلا شك أن مستر روشستر قد نعم بيوم يناسب رحلته »

- رحلته ؟ هل رحل مستر روشستر الى مكان ما ؟ ٠٠ لم أكن أعرف انه رحل

- أوه ! ٠٠ لقـد خرج فور تناوله طعـام الافطار ٠٠ ذهب الى قصر مسـتر ايشتون فى (لياس) ، على مسافة عشرة أميال من الجانب الآخر لقرية (ميلكوت) ٠ وأغلب الظن أن هناك جماعة ستلتقى هناك : اللورد انجرام ، والسير جورج لين ، والكولونيل دنت ، وغيرهم

- وهل تتوقعين عودته الليلة ؟

- كلا ، ولا غدا ٠٠ بل أظن من المحتمل جدا ان يمكث أسبوعا أو أكثر ، فان هؤلاء القوم الظرفاء ، العصريين ، اذا اجتمعوا ، أحاطت بهم الاناقة والرشاقة وأسباب البهجة والانشراح ، وتوفرت لهم من أسباب اللهو والتسلية ما لايجدون معه داعيا الى سرعة تفرق الشمل ٠ وفى هذه المناسبات - بوجه خاص - يكون الرجال مبتغين ، منشودين ٠ وان لمستر روشستر فى المجتمعات من مواهبه العديدة وخفة روحه مايجعله محبوبا لدى الجميع ٠٠ ان السيدات يشغفن به ، وان لم تصدقى ان شكله يرشحه لان يروق فى أنظارهن بالذات ٠٠ ولكنى أعتقد ان له من مؤهلاته ومواهبه ، وربما من ثروته وكرم محتده ، مايعوض أى عيب فى مظهره !

- وهل توجد فى (لياس) سيدات ؟

- هناك مسز ايشتون وبناتها الثلاث - سيدات شابات فى غاية من الاناقة فى الحقيقة - كما أن هناك النبيلة بلانش والنبيلة مارى انجرام ، وهمـا من أجمل النساء فيما أعتقد ٠ والواقع اننى شاهدت بلانش منذ ست أو سـبع سنوات عندما كانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، اذ قدمت لتشـهد

حفلة راقصة أقامها مستر روشستر فى عيد الميلاد • وياليتك رأيت حجرة الطعام فى ذلك اليوم ، وكيف كانت مزدانة بأغلى زينة ، ومضاءة بالانوار المشرقة ، كما أعتقد أن الحاضرين بلغوا خمسين من السيدات والسادة ، كلهم من أكبر الاسرات فى المقاطعة • وكانت مس بلانش انجرام أجمل الموجودات فى ذلك المساء !

ـ تقولين انك رأيتها يامسز فيرفاكس ، فما شكلها ؟

ـ نعم رأيتها ، لان أبواب حجرة الطعام كانت مفتوحة على مصاريعها ، ولمناسبة عيد الميلاد سمح للخدم بأن يجتمعوا فى القاعة ليستمعوا الى بعض السيدات وهن يغنين ويعزفن • ودعانى مستر روشستر للدخول فجلست فى ركن هادىء أراقب وأشاهد ، فلم أر فى حياتى مثل ذلك المشهد الرائع ، وكانت السيدات ترتدين أفخر الثياب •• معظمهن أو الشابات على الاقل • • فتجلى جمالهن ولكن مس انجرام كانت ملكتهن بكل تأكيد !

ـ ماذا كان شكلها ؟

ـ فارعة القامة ، جميلة الصدر ، منحدرة الكتفين ، ذات نحر طويل رشيق ، ومحيا أسمر صاف فى لون الزيتون ، وقسمات نبيلة ، وعينين كعينى مستر روشستر : سوداوين كبيرتين لهما وميض المجوهرات •• هذا الى شعر جميل حالك السواد ، تفننت فى تسويته وعقصته من الخلف على هيئة تاج من الضفائر ، وأسدلته من الامام خصلات لم أر فى حياتى مايفوقها طولا ونعومة واتساقا •• وكانت ترتدى ثوبا ناصع البياض ، وتضع على كتفها وصدرها وشاحا بلون الكهرمان ، عقدته على جانب من خصرها وأرخت أهدابه الطويلة المزركشة الى ماتحت ركبتيها • وكذلك كانت تضع فى شعرها زهرة بلون الكهرمان ، تناقض لون جدائلها الفاحمة

ـ لقد كانت بالطبع موضع اعجاب شديد ؟

ـ نعم فى الحقيقة لا لجمالها فحسب ، وانما لمآثرها ومحاسنها الاخرى • فقد كانت واحدة ممن غنين بمصاحبة سيد عزف على البيانو ، كما غنت مع مستر روشستر

ـ مستر روشستر ؟ لم أكن أعرف انه يحسن الغناء !

ـ أوه •• ان له صوتا عميقا جميلا ، وذوقا موسيقيا مرهفا

ـ ومس انجرام •• كيف ترين صوتها ؟

ـ صوت غنى وقوى جدا • وكانت تغنى بادية الابتهاج والمرح ، وقد نعمنا بالاصغاء اليها •• ثم عزفت فيما بعد ، ولست ممن يستطيعون الحكم على الموسيقى ، ولكن مستر روشستر يستطيع ذلك وقد سمعته يقول ان أداءها على جانب ملحوظ من المهارة

ـ وهذه السيدة الحسناء ذات المواهب •• ألم تتزوج بعد ؟



.. وفى وسط اللهيب والدخان ، كان مستر روشستر مستغرقا فى النوم (ص ٥٣)

- لايبدو ذلك ، فلست أظنها وأختها تملكان ثروة كبيرة ، لان معظم أملاك اللورد انجرام العجوز كانت موقوفة على وريث معين ولذلك استولى ابنه الاكبر على كل شىء تقريبا !

- ولكنى أتساءل : لماذا لم يمل اليها أحد من النبلاء الاثرياء أو السادة .. مستر روشستر مثلا .. انه غنى ، أليس كذلك ؟

- بلى ، ولكن الفرق بين عمريهما كبير كما ترين ، فان مستر روشستر فى حوالى الاربعين من عمره بينما هى فى الخامسة والعشرين

- وماذا فى هذا ؟.. ان كثيرا من الزيجات غير المتعادلة تعقد فى كل يوم

- هذا صحيح ، ولكنى لا أتصور ان لدى مستر روشستر أية فكرة فى هذا الصدد .. انك لم تأكلى قط ، بل انك لم تذوقى شيئا تقريبا منذ بدأت فى تناول الشاى !

- كلا .. اننى شديدة العطش ، بحيث لا أقوى على أكل شىء ما ، فهل تسمحين لى بقدح آخر ؟

وكنت أهم بالعودة مرة أخرى الى احتمال زواج مستر روشستر ببلانش الحسناء ، لولا ان أديل دخلت اذ ذاك ، فاتخذ الحديث مجرى آخر !..وعندما خلوت مرة ثانية الى نفسى ، رحت استعرض المعلومات التى حصلت عليها ، وجعلت أتطلع الى قلبى لاسبر غور أفكاره ومشاعره ، وأحاول أن أعيد ماجمح منها فى بيداء الخيال الشاسعة الى حظيرة العقل والادراك . وأقمت محكمة من نفسى ، استدعيت اليها الذاكرة شاهدة على الامانى والرغبات والمشاعر التى خالجتنى منذ ليلة أمس ، وشاهدة على حالتى العقلية العامة التى انغمست فيها منذ أسبوعين تقريبا ، ثم تقدم العقل فروى بطريقته الهادئة قصة واضحة غير منمقة ، أظهر فيها كيف رفضت ماهو حقيقى ، والتهمت بسرعة ماهو مثالى خيالى .. ثم نطقت بالحكم التالى :

لم يتنسم نسيم الحياة قط من هو أحمق من « جين اير » .. بل ليس ثمة من يبزها بلاهة وتعلقا بالخيال وهى تتخم نفسها بالاكاذيب المعسولة ، وتبتلع السم كأنه رحيق الحياة !

وقلت أحدث نفسى : « أأنت ... أثيرة عند مستر روشستر ؟ هل أوتيت القدرة والقوة على مرضاته ؟ هل أنت من الاهمية بمكان عنده ؟.. اليك عنى فان حماقتك تسئمنى ! لقد استقيت السرور والابتهاج من عبارات عابرة تدل على الايثار .. عبارات ذات معنيين يبديها سيد كريم المحتد ، ورجل خبير بالعالم ، نحو مرؤوسة غريرة . كيف تجرئين أيتها الغرة المسكينة الحمقاء ؟.. ألم يقو حبك لذاتك ومصلحتك الخاصة على جعلك أحكم وأعقل من ذلك ؟.. ألم تعيدى لنفسك فى هذا الصباح المشهد القصير الذى وقع فى الليلة

الماضية ؟٠٠ ألا غطى وجهك واخجلى !٠٠ لقد قال شيئا فى امتداح عينيك ، أليس كذلك أيتها الدمية العمياء ؟٠٠ ألا فافتحى جفونهما الذابلة ، وتبينى تفاهتك اللعينة !٠٠ ليس يجدى امرأة ان يغازلها من هو أرفع منها ، ولا يمكن ان يعتزم الزواج منها ٠٠ بل انه لجنون من النساء جميعا أن يدعن الحب ينفذ فى قلوبهن ، لانه اذا لم يقابل بمثله ، أو اذا لم يدركه أحد ، فسوف يلتهم الحياة التى تغذيه ٠٠ وحتى اذا اكتشف أمر هذا الحب ولقى من يستجيب له ، فلا بد من ان يؤدى الى سراب خادع ٠٠ الى قفار موحلة لا خلاص منها ولا نجاة ٠٠

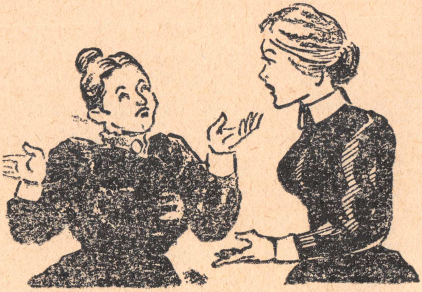
« الا اصغى اذن ياجين اير الى الحكم الصادر عليك : غدا ضعى المرآة أمامك، وارسمى بالطباشير صورتك بكل أمانة ونزاهة دون ان تقللى من شأن أىعيب أو نقص فيك،ودون أن تحذفى أى سطر من سطور التجاعيد الخشنة ، أو تخففى أى شذوذ لايعجبك ، ثم اكتبى تحتها « صورة معلمةعديمة الاهل ، عديمة المال، عديمة الجمال » ٠٠ وخذى بعد ذلك قطعة من العاج الناعم ـ ولديك قطعة معدة فى صندوق الرسم ـ ثم اخرجى لوحة الالوان ، وامزجى أحدثها وأجملها وأزهاها ، واختارى أرق الاقلام المصنوعة من شعر الجمل ، ثم ارسمى أجمل وجه يمكن ان تتصوريه بأخف الظلال ، وأبدع الالوان ، طبقا للوصف الذى سمعته من مسز فيرفاكس عن بلانش انجرام ٠ ولا تنسى حلقات شعرها الاسود كجناح الغراب أو عينيها الشرقيتين ٠٠٠ ماذا ! انك ترتدين بخيالك الى مستر روشستر ، لتتخذى منه نموذجك !٠٠ النظام ! لاتدعى أنفك يسيل، ولا مجال للعواطف أو الاسى ، ولن أحتمل منك سوى التعقل والحزم ! تذكرى الاسارير الجليلة المهيبة ، ولكنها مع ذلك منسجمة متناسقة ٠٠ وتذكرى الجيد والنحر الاغريقيين ٠٠ ووضحى للعين الذراع الملفوفة التى تبهر الانظار ، وكذلك اليد البضة الرقيقة ٠ واياك أن تحذفىالخاتم الماسى ، والسوار الذهب، وارسمى الثوب بأمانة بما فيه من دنتللا عالية ، ودمقس يأتلق ٠٠ وكذا الوشاح الجميل والوردة الذهبية ٠٠٠ ثم سمى ذلك « بلانش ٠٠ سيدة مهذبة عريقة الاصل » ٠٠ وكلما خيل اليك فى المستقبل أن مستر روشستر يحسن بك الظن ، اخرجى هاتين الصورتين ، وقارنى بينهما ، وقولى : « من المحتمل أن يظفر مستر روشستر بحب هذه السيدة النبيلة اذا هو آثر النضال من أجل هذا الحب ، ولكن هل يحتمل أن يعير فكرة جدية لهذه العامية المعدمة الحقيرة ؟ »

وقلت فى حزم : « سوف أفعل ذلك » ٠٠ واذ وطدت نفسى على ذلك العزم، هدأت ثم استغرقت فى النوم

وبررت بوعدى ٠٠ وكفتنى ساعة أو اثنتان لكى أرسم صورتى رسما

تخطيطيا بالقلم . وفى أقل من أسبوعين أتممت صورة مصغرة فى لون العاج من بلانش انجرام كما تخيلتها ، فبدت بوجهها الجميـل الذى ما ان قارنته برأسى الذى رسمته بالطباشير ، حتى ظهر الفارق شاسعا يضطرنى الى مزيد من ضبط النفس .. ولقد أفدت من هذه المهمة ، لانها شغلت رأسى ويدى ، كما عززت وثبتت الانطباعات الجديدة التى وددت ألا تمحى من قلبى .. وقبل أن ينقضى زمن طويل ، كنت محقة فى ان أهنىء نفسى على النظام الناجع الذى أرغمت مشاعرى على الاذعان له ، اذ اننى استطعت بفضله ان أواجه الاحداث التالية بهدوء يليق بى ، ولولا هذا التأهب لمواجهة الاحـداث ، لمـا أصبحت قادرة على الاحتفاظ بهدوئى ـ ولو ظاهريا ـ أمامها !

الفصل السابع عشر



◆ انقضى أسبوع ولما تصل أنباء جـديدة عن مستر روشستر . واكتملت عشرة أيام دون أن يعود . وقالت مسز فيرفاكس انها لن تدهش اذا هو غادر (لياس) فاتجه مباشرة الى لندن ، ومنها الى أوربا ، فلا يرى أحد وجهه فى (ثورنفيلد) قبل مضى عام .. فلقد طالما غادرها من قبل فى هدوء .. بغتة ، وعلى غير توقع !.. وبدأت ـ عندما سمعت هذا منها ـ أشعر ببرودة عجيبـة تتملك قلبى . كنت أسلم نفسى ـ فى الواقع ـ لاحساس بخيبة الامل ،يجعلنى عليلة سـقيمة .. بيد اننى سرعان ما تمالكت زمام رشـدى ، واستجمعت مبادئى ، فما لبثت ان هيمنت على مشاعرى ، وتغلبت بقدرة عجيبة على الخطل الذي كنت أتخبط فيه اذ ذاك ، وأخذت أستبين مدى الخطأ الذي أوحي الى بأن

لحركات مستر روشستر أهمية حيوية بالنسبة لى . ولست أعنى اننى حقرت من شأن نفسى بالتفكير الذليل فى اننى دونه شأنا ومكانة ، بل اننى - على العكس - رحت أقول لنفسى : « ليس لك بسيد (ثورنفيلد) شأن ، فيما عدا انك تتناولين المرتب الذى يمنحك اياه فى مقابل تعليم الفتاة التى يكفلها ، فخليق بك ان تحمدى له فضله اذا هو أولاك المعاملة المحترمة الكريمة التى يجوز لك ان تتوقعيها عندما تؤدين واجبك .. وثقى ان هذه هى الرابطة الوحيدة التى يجوز قيامها بينك وبينه ، فلا تتخذيه محورا لمشاعرك المرهفة ، من اغتباطات ، الى شجون ، الى غير ذلك .. انه ليس من طبقتك ، فالزمى مقامك ، واحترمى نفسك ، ولا تغدقى كل مافى قلبك وروحك وقواك من حب مشبوب على شخص لا ينشده ، وحيث لا يقابل مثل هذا الحب بغير الازدراء ! »

ومضيت أؤدى عملى اليومى فى هدوء . ولكن أفكارا مبهمة ظلت تراود رأسى بين الفينة والاخرى عن أسباب تبرر لى مبارحة (ثورنفيلد) .. وظللت - على الرغم منى - أصوغ فى ذهنى اعلانات ، وأؤلف تكهنات بشأن المراكز الجديدة التى قد أحصل عليها اذا أنا بارحت مركزى الراهن .. ولم أر داعيا لكبح هذه الافكار عسى أن تنبت وتؤتى ما وسعها من ثمرات

وبعد أن انقضى على غياب مستر روشستر زهاء أسبوعين ، جاء البريد بخطاب الى مسز فيرفاكس . فالتفتت ناحيتى وقالت : « انه من مستر روشستر ، وأظننا سنعلم الآن ما اذا كانت عودته متوقعة أو غير مرتقبة ! »

وفيما كانت تفض الخاتم الشمع وتتصفح الخطاب ، استرسلت فى تناول قهوتى ، اذ كنا على مائدة الفطور . وكانت القهوة ساخنة فعزوت اليها ذلك الوميض المتقد الذى تورد به وجهى فجأة .. أما لماذا أرتجفت يدى ، ولماذا انسكب برغمى فى الطبق نصف ماكان فى الفنجان ، فأمور لم أشأ ان أفكر فيها

وقالت مسز فيرفاكس وهى مازالت تمسك بالخطاب أمام منظارها : « حسنا .. اننى افكر أحيانا فى اننا نعيش فى سكون مفرط ، ولكن ها هى الفرصة قد سنحت للانهماك فى العمل ، لفترة وجيزة على الاقل ! » .. وقبل أن اسمح لنفسى بأن أسألها ايضاحا ، ربطت شريطا فى مرولة أديل صادف أن انفك ، كما قدمت لها قطعة من الفطائر ، ثم أعدت ملء كوبها باللبن .. وأخيرا قلت فى غير اكتراث : « أظن من غير المحتمل ان يعود مستر روشستر فى القريب العاجل ؟ »

- بل انه سيعود بكل تأكيد .. بعد ثلاثة أيام كما يقول ، أى فى يوم الخميس القادم . ولن يكون بمفرده ، وان كنت لا أدرى كم من سادة (لياس) سيأتون معه ، فقد أرسل يوصى باعداد خير حجرات النوم ، وبتنظيف المكتبة وحجرات الاستقبال . وسوف أستعين بفندق جورج - فى ميلكوت - وبأى مكان آخر ، على تزويد المطبخ بالايدى العاملة .. فضلا عن ان السيدات

سيصطحبن وصيفاتهن ، وسيأتى السادة بخدمهم ، ومن ثم فسوف يمتلىء البيت !

ثم التهمت مسز فيرفاكس فطورها ، وهرعت لتبدأ فى القيام بواجباتها • ولقد ازدحمت الايام الثلاثة بالعمل كما توقعت ، وكنت أحسب ان جميع حجرات (ثورنفيلد) نظيفة ومرتبة أحسن ترتيب ، ولكننى تبينت اننى كنت مخطئة مما دعا الى الاستعانة بثلاث نسوة • ولم أر فى حياتى من قبل أو منذ ذلك الحين ماشاهدته من كنس ومسح ، ومن غسل الابواب والنوافذ ، ونفض الابسطة ، وانزال الصور ثم اعادتها الى أماكنها ، وصقل المرايا والثريات ، واشعال النار فى مدفآت المخادع ، وتهوية أغطية الاسرة وحشياتها • وكانت أديل تتواثب بين هذا كله ، وكأنما استخفها الطرب لمشاهدة الاستعدادات التى كانت تتخذ لاستقبال الجماعة ، والامل المرتقب فى وصولهم • وكانت تدعو صوفى للعناية بزينتها وملابسها واعداد ماكان بحاجة منها الى الكى ، وتهوية الجديد منها ، ثم ترتيبها ! •• ولم يكن لها من شاغل سوى ان تحوم فى الحجرات الامامية ، وتثب فوق الاسرة ، وتستلقى على الحشيات والوسائد المتراكمة أمام المدفآت التى كانت النار تتلظى فيها وتئز خلال مداخنها • أما الواجبات الدراسية ، فقد أعفيت أديل منها ، لان مسز فيرفاكس حملتنى على معاونتها ، فكنت أقضى النهار فى مخزن الاطعمة ، أعاونها والطاهية ، أو بالاحرى أعوقهما !•• وتعلمت كيف أصنع حلوى (الكسترة) ، والكعك المحشو بالجبن ، والفطائر الفرنسية ، وكيف أنظف الطيور من ريشها ، وأزين صحاف الحلوى

★ ★ ★

◆ وكان من المرتقب ان تصل الجماعة بعد ظهر يوم الخميس ، وان يعد العشاء فى الساعة السادسة • ولم يعد لدى ــ فى تلك الفترة ــ وقت للاستغراق فى أفكارى الواهمة ، بل أعتقد اننى كنت كغيرى ، بادية النشاط والاغتباط • على اننى كنت أصاب ــ بين فترة وأخرى ــ بصدمة يفتر معها سرورى ، فاجدنى قد انتقلت على الرغم منى الى عالم من الشكوك والهواجس والتخمينات الكئيبة •• وذلك عندما كانت عيناى تقعان مصادفة على الباب القائم على السلم المفضى الى الطابق الثالث • وكان قد ظل مغلقا بصفة مستمرة فى الفترة الاخيرة • وكنت أراه من حين لآخر يفتح ببطء ، ثم تتفلت خلاله جريس بول بقلنسوتها النظيفة ، ومرولتها البيضاء ، ووشاحها الناصع •• وكنت أطير سرورا عندما كنت أراها تنساب الى خارج الباب ، وتتسلل فى الردهة بخطاها الهادئة المكتومة ــ وهى تنتعل خفيها الرقيقين ــ وعندما كنت أشاهدها تتطلع الى مخادع النوم المليئة بالهرج والمرج ، ثم تلقى لاحدى الخادمات ، من اللائى

استؤجرن مؤقتا ، بنصيحة عن خير وسيلة لصقل المدفأة ، أو تنظيف رفها الرخامى ، أو ازالة البقع عن الجدران المكسوة بالورق ، ثم تهبط الى المطبخ - وكان من عادتها أن تذهب اليه مرة فى اليوم - فتتناول غداءها ، أو تدخن غليونا ، ثم لا تلبث ان ترجع - حاملة عشاءها - الى صومعتها ٠٠ الى الحجرة المعتمة التى أفردت لها فى الطابق العلوى ٠ ولم تكن تقضى مع زميلاتها سوى ساعة واحدة من كل يوم ، أما بقية وقتها ، فكانت تقضيه فى احدى الحجرات المنخفضة السقف ، والمبنية بخشب البلوط ، فى الطابق الثالث ، حيث تجلس منهمكة فى الحياكة ، دون ما أنيس أو رفيق ، وكأنها سجينة فى « زنزانة » !

وكان أغرب الامور كلها ، ان أحدا من أهل القصر لم يكن يرقبها أو يعجب لعاداتها ، أو يتحرى عن مركزها وعملها ، أو يرثى لوحدتها وعزلتها ، سواى ٠٠ وان كنت قد تسمعت مرة الى جزء من حديث دار بين « لياه » واحدى الاجيرات ، وكانت « جريس » محوره ٠٠ وكانت لياه قد قالت شيئا لم أسمعه ، فأجابتها الخادمة : « ولعلها تحصل على أجر طيب ؟ » ٠٠ فقالت لياه: « نعم ٠ ليتنى أتناول مثل أجرها ٠ لا أعنى بذلك اننى أتذمر من ضآلة أجرى ، (اذ لا بخل ولا تقتير فى ثورنفيلد) ولكنه لايعدل خمس ما تتناوله جريس ، وهى خاملة بلا عمل سوى ان تذهب الى المصرف فى (ميلكوت) كل ثلاثة شهور ، فلا عجب اذا ادخرت مايكفى لان تعول نفسها لو أنها شاءت أن ترحل !٠٠ بيد انها - فيما أعتقد - قد ألفت الحياة فى القصر ، كما أنها لم تتجاوز بعد الاربعين من عمرها ، وما زالت قوية قادرة على أى شىء ، فلم يؤن بعد أن تعتزل العمل »

فقالت الخادمة : « أظنها تجيد العمل ؟ » ٠٠ فقالت لياه بلهجة لها مغزاها: « آه ٠٠ انها تفهم مايجب عليها عمله ٠ وليس كل انسان يستطيع ملء مكانها ، ولو أعطى الاجر الذى تتناوله ! »

- ليس الامر كذلك ! اننى لاتساءل هل السيد ٠٠؟

وكانت تهم بالاسترسال فى حديثها ، لولا أن حانت من « لياه » التفاتة فشاهدتنى ٠٠ واذ ذاك وكزت رفيقتها بمرفقها ٠٠ وسمعت المرأة تهمس : « أهى لاتدرى ؟ » ٠٠ فهزت لياه رأسها ، وانقطع الحديث بطبيعة الحال ، وكل ما أدركته هو انه يوجد فى (ثورنفيلد) سر واننى أقصى عمدا عن الالمام بهذا السر

★ ★ ★

◆ وقدم يوم الخميس ٠٠ وكان كل شىء قد أعد تماما فى الليلة السابقة ٠٠ فازدانت الاسرة بستائر وشيت بالزهور ، وبالحفة مشرقة ناصعة البياض، وبمناضد للزينة منسقة ، وأثاث مصقول ، وزهور انتظمت فى أوان ٠٠وبدت

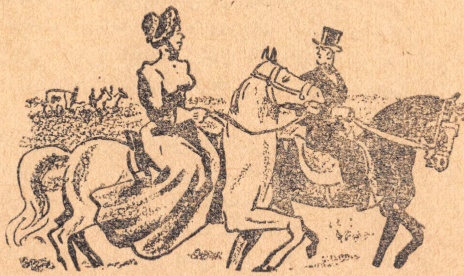
الحجرات والقاعات فى أبهى مايمكن ان تصنعه أيدى البشر ·· كما كان البهو لامعا ، وقد صقلت الساعة الكبيرة ودرجات السلم وسياجه ، حتى بدت براقة كالزجاج ·· وفى حجرة المائدة ، كان الصوان يأتلق بما ضم من صحاف ، بينما انتشرت فى قاعة الاستقبال ومخدع النـــوم الرئيسى أوان حفلت بأينع الزهور

واذ حان الاصيل ، ارتدت مسز فيرفاكس ثوبا من « الساتان » الاسود ـ كان خير ما لديها من ثياب ـ وقفازا ، وساعة من الذهب · فقد كان منوطا بها أن تستقبل السيدات وترافقهن الى الحجرات المعدة لهن ، وغـــير ذلك · أما أديل ، فلم تكن أمامها ـ كما اعتقدت ـ فرصة لاستقبال المدعوين فى ذلك اليوم ، فأمرت مربيتها بأن تلبسها ثوبا قصيرا من الحرير ، ارضاء لها ·· وأما أنا ، فلم تكن بى حاجة الى تغيير ملابسى ، لاننى لن أدعى لمغادرة حجرة الدراســة التى غدت « ملاذا ارتاح اليه فى أويقات الضيق » !

وكان اليوم من أيام الربيع الصافية ، المعتدلة ، التى تكثر فى أواخر مارس وأوائل ابريل ، فتفيض على الارض بهاء وكأنها تبشر بوفود الصيف · وبدأ النهار يعتكر ، ولكن المساء كان حارا ، فجلست فى غرفة الدراسة أشتغل ، وقد تركت النافذة مفتوحة ·· ودخلت مسز فيرفاكس ترفل فى ثوبها ثم قالت: « لقد تأخر الوقت ، ولكنى سعيدة لاننى أمرت باعداد الطعام بعد الموعد الذى ذكره مستر روشستر بساعة ·· فها هى ذى الساعة قد بلغت السادسة ولم يحضروا · وقد أرسلت جون ليراقب الطريق ، اذ لا سبيل الى التطلع الى مسافة بعيدة فى اتجاه ميلكوت » ·· ثم مضت الى النافذة وقالت : « هاهو ذا ! » ·· وأطلت من النافذة تسأل : « هل من أنباء ياجون ؟ » ·· فكان جوابه : « انهم قادمون ياسيدتى ، وسيصلون بعد عشر دقائق ! »

وجرت أديل الى النافذة ، فتبعتها متوخية أن أقف جانبا خلف الستائر ، بحيث أستطيع ان أرى دون أن يرانى أحـــد ·· وبدت الدقائق العشر التى ذكرها « جون » طويلة جدا ، ولكننى سمعت أخيرا جلبة العجلات ، ثم تقدم أربعة فرسان تتبعهم عربتان مفتوحتان تمتلئان بأوشحة ترفرف وريش يتماوج ·· وكان بين الفرسان ســيدان فى زهرة الشباب ، تتجلى عليهمـــا الجرأة والجسارة ، بينما كان الثالث مستر روشستر نفسه ، على جواده الاســـود ـ الذى كان يسميه « مسرور » ـ وقد أخذ « بايلوت » يتواثب أمامه ·· والى جانبه كانت تركب سيدة ، على جواد آخر ·· وكان الاثنان فى طليعة الجماعة ·· وكانت بزة ركوب السيدة طويلة ، تكاد تكنس الارض ، بينما راح وشاحها الشفاف يتلاعب مع النسيم ، ويختلط بجدائل شعرها الفاحم · وصاحت مسز فيرفاكس : « مس انجرام ! »

وهرولت هابطة الى حيث كان ينبغى أن تقف وما لبث الركب ان استدار



حول احد أركان القصر ، ثم اختفى عن الانظار • وتوسلت أديل اذ ذاك أن أدعها تنزل بدورها ، ولكننى أخذتها على ركبتى ، واقنعتها بأن من الواجب ان لا تظهر أمام السيدات سواء الآن أو فيما بعد ، الا اذا أرسل فى طلبها، حتى لايغضب مستر روشستر • وكان من الطبيعى أن تذرف بعض الدموع عندما أبلغتها ذلك ، ولكن ما ان أظهرت لها منتهى الحزم ، حتى رضيت أخيرا بتجفيف دموعها

ودوت فى البهو أصوات الابتهاج •• خليطا متناسقا من أصوات الرجـال العميقة ، ونبرات السيدات التى تشبه رنين الاجراس الفضية ، يعلوها صوت سيد (ثورنفيلد) الرنان وهو يحيى ضيفاته الحسناوات وضيوفه الظرفاء النازلين تحت سقفه • ثم سمعت خطوات خفيفة على الدرج ، أعقبها وقـع أقدام فى الردهة ، وضحكات ناعمة رقيقة ، وضجيج فتح الابواب واغلاقها •• وما لبث السكون ان ران لحظة ، فقالت أديل التى كانت تتـابع كل حركة بانتباه : « انهن يغيرن ملابسهن ! » •• ثم تنهدت وقالت بالفرنسية : « عندما كانت ماما تستضيف فى بيتها أناسا ، كنت أتبعها أينما ذهبت ، سواء فى الصالون أو فى مخادعهن • وكثيرا ماكنت أتفرج عـلى النساء وهن يسرحن شعورهن أو يرتدين ملابسهن •• كان ذلك شائقا جدا •• وبهذه الطريقـة يتعلم الانسان ! »

ــ ألا تشعرين بجوع يا أديل ؟

ــ نعم يا آنسة ، فقد مضى علينا أكثر من خمس أو ست ساعات دون ان نأكل شيئا

ــ حسنا •• الآن والسيدات فى غرفهن ، ساجترىء عـلى النزول لآتيك بشىء تأكلينه

وغادرت (ماواى) فى حذر ، فهبطت سلما خلفيا الى المطبخ ، الذى وجدته زاخرا بالخدم الذين جاءوا برفقة اسيادهم ٠٠ ولكنى تمكنت من الحصول على ما أريد من طعام ثم عدت مسرعة ٠٠ على أننى ماكدت أبلغ الردهة ، حتى سمعت طنينا نبهنى الى أن السيدات يوشكن على مغادرة حجراتهن ٠٠ ولم يكن فى وسعى ان أتقدم نحو حجرة الدراسة ، دون ان أمر ببعض تلك الابواب ٠ ولكى أتفادى ان أفاجأ بما كنت أحمل من اطعمة ، تسمرت فى مكانى الذى كان مظلما ـ فى العادة ـ لخلوه من النوافذ ، وقد اشتدت ظلمته اذ ذاك لغروب الشمس وتجمع الغسق

وسرعان ما أخرجت الحجرات ساكناتها الجميلات ، الواحدة تلو الاخرى ، وقد ارتدت كل منهن ثوبا قشيبا يلتمع فى الاصيل ٠ ووقفن لحظة فى طرف الردهة من الناحية الاخرى ، فتحدثن قليلا ، ثم هبطن الدرج فى سكون ، وبلا ضوضاء ، وكأنهن سحابة مؤتلقة تنحدر من فوق أحد التلال ٠٠ ولقد ترك هذا المنظر الجماعى فى نفسى أثرا لاناقة علية القوم لم أعهده من قبل٠٠ ووجدت أديل تسترق النظر من فرجة باب حجرة الدراسة ، بعد ان تركته مواربا ، ثم صاحت بالانجليزية : « أوه ٠ بودى لو أذهب اليهن ٠٠ أتظنين ان مستر روشستر سوف يرسل فى طلبنا بمجرد انتهاء العشاء ؟ »

ـ كلا ٠٠ الواقع اننى لا أظن ذلك ، فان لدى مستر روشستر أمورا أخرى تشغل تفكيره ٠ دعى السيدات وشأنهن الليلة ، فلعلك تشاهدينهن غدا٠٠ هاك طعام العشاء

وكانت فى الواقع جوعانة ، ومن ثم شغل لحم الدجاج والفطائر تفكيرها فترة ٠ ولقد أحسنت صنعا حين أحضرت هذا الطعام ، والا لتعرضت انا والفتاة وصوفى ـ التى أعطيتها قسطا ـ للحرمان من العشاء ، اذ كان كل انسان فى الطابق الاسفل مشغولا عنا ، وقد استغرق العشاء وقتا طويلا ، فلم تقدم الحلوى الا بعد ان جاوزت الساعة التاسعة ، ثم أخذ الخدم يهرولون بصينيات القهوة ٠ وظلت أديل ساهرة الى مابعد موعد نومها ، اذ صارحتنى بأن النوم لن يواتيها طالما ظلت الابواب ـ فى الطابق الارضى ـ تفتح وتغلق ، والناس فى هرج ومرج ٠٠ هذا الى أنها كانت تخشى أن تأتى دعوة من مستر روشستر بعد أن تكون قد خلعت ثيابها ، وعندئذ « أية خسارة تكون ! » ٠٠ لهذا انصرفت الى تسليتها بالقصص ، حتى زهدت فى الاصغاء فصحبتها الى الردهة ٠٠ وكان البهو ـ فى الطابق الارضى ـ مضاءا ، فوجدت الفتاة تسلية فى مشاهدة الخدم وهم يروحون ويغدون ، حتى اذا انقضى شطر كبير من الليل ، انبعثت من حجرة الاستقبال موسيقى من البيانو الذى نقل اليها ، فجلست وأديل على رأس الدرج نصغى ٠ وسرعان ما ارتفع مع صوت البيانو صوت غنى النبرات ٠٠ صوت سيدة كانت تغنى بأعذب الالحان ٠ ثم شاركها

فى الفناء رجل ، فلما انتهى ذلك الثنائى تعالت الضحكات والمحادثات . ولكننى وقد أصخت السمع طويلا ، اكتشفت فجأة أن أذنى اخذتا تحللان الاصوات التى اختلطت وامتزجت ، وتحاولان تمييز صوت مستر روشستر خلالها . وعلى الرغم من اننى وفقت الى ذلك ، فاننى وجدت أمامى مهمة اخرى ، هى محاولة استيعاب ماكان يقول !

ودقت الساعة الحادية عشرة ، فتطلعت الى أديل التى كانت تتكىء الى كتفى، فاذا بعينيها مغلقتان مثقلتان بالنوم ، فحملتها الى فراشها . أما السادة والسيدات ، فلم يأووا الى حجراتهم الا فى نحو الساعة الواحدة صباحا !

وكان اليوم التالى فى جمال سابقه .. كرسته الجماعة لرحلة الى مكان قريب ، فانطلقوا قبيل الظهر ، بعضهم على ظهور الجياد ، والبعض الآخر فى العربات . وشهدت الذهاب والاياب ، فوجدت أن مس انجرام ظلت - كما كانت من قبل - قبلة الانظار .. وكان مستر روشستر يسير بجانبها على جواده - كما كان يفعل عند قدومهما - على مبعدة من الآخرين . وأبديت تلك الملحوظة الى مسز فيرفاكس - التى كانت واقفة معى خلف النافذة -قائلة: « لقد قلت انه ليس محتملا أن يفكرا فى الزواج ، ولكن انظرى كيف يبدو واضحا أن مستر روشستر يفضلها على غيرها من السيدات ! » .. فاجابت : « نعم .. اننى أجرؤ الآن على القول بانه معجب بها دون شك ! »

- وهى معجبة به .. أنظرى كيف تميل براسها نحوه ، وكأنها تهمس اليه بسر خاص .. كم أود أن أرى وجهها ، فاننى لم ألمحه حتى الآن !

- سوف تشاهدينها هذا المساء ، فقد ألمعت الى مستر روشستر بان اديل تهفو الى أن يقدمها للسيدات ، فقال « أوه . دعيها تدخل الى حجرةالاستقبال بعد العشاء ، واطلبى الى مس اير أن ترافقها » ..

- نعم .. قال ذلك تأدبا منه فقط .. ولا حاجة بى الى الذهاب

- لقد أخبرته بأنك لم تتعودى الاختلاط بالناس ، واننى لا اظنك ترتاحين للظهور أمام جماعة مرحة - أكثرها من الغرباء - ولكنه اجاب بلهجته السريعة: « هراء .. اذا عارضت فاخبريها بأن هذه رغبتى الخاصة ، فاذا أصرت على الاعتراض فقولى لها اننى ساذهب وأجىء بها .. فى حالة عدم الامتثال ! »

- سأغنيه عن هذا العناء . سأذهب اذا كان لا مهرب أمامى ، ولكنى سأفعل ذلك كارهة .. هل ستكونين هناك يامسز فيرفاكس ؟

- كلا ، فقد توسلت اليه أن يعفينى ، فقبل توسلاتى . والآن ساخبرك كيف تتفادين الاضطراب الذى يلازم المرء حين يلج مكانا يضطر فيه الىتكلف الرسميات ، فان الدخول هو أبغض مافى المهمة : ينبغى أن تذهبى الى غرفة الاستقبال وهى خالية - قبل ان تغادر السيدات حجرة المائدة - واختارى لك ركنا هادئا ، اتخذى فيه مقعدك ، ولا حاجة تدعوك الى البقاء طويلا بعد

دخول السادة ، الا اذا راق لك ذلك .. فقط دعى مستر روشستر يراك هناك ، ثم تسللى دون أن يراك أحد !

ـ هل تعتقدين أن أولئك القوم سيمكثون طويلا ؟

ـ ربما أسبوعين أو ثلاثة .. لا أكثر ، لان السير جورج لين الذى انتخب أخيرا عن مقاطعة (ميلكوت) سيضطر الى السفر الى (لندن) بعد عيد الفصح ليتبوأ مقعده ، كما أعتقد أن مستر روشستر سوف يرافقه . وانه ليدهشنى ان طالت اقامته فى (ثورنفيلد) حتى الآن

★ ★ ★

❖ ورحت أرقب ـ بشىء من الارتياع والفزع ـ اقتراب موعد الذهاب الى حجرة الاستقبال ، ومعى أمانتى « أديل » التى استخفها الفرح طوال اليوم ، بعد أن سمعت بأنها سوف تقدم فى المساء للمدعوات ، ولم تهدأ لها ثائرة الا عندما تولت صوفى الباسها ثيابها ، ثم سكنت سكونا تاما عندما بدأت عملية تسوية جدائل شعرها ، فبدت فى رزانة القاضى !.. ولم تكن بى حاجة بعد أن ارتدت ثيابها الى أن أنبهها الى المحافظة على هندامها ، اذ جلست فى مقعدها الصغير رصينة ، بعد أن رفعت أهداب ثوبها ، حتى لاتتسخ ، ثم وعدتنى بأن لا تتحرك من مكانها حتى أستعد بدورى .. وسرعان مافعلت ذلك ، بأن ارتديت أفخر ثوب لدى ـ وهو الذى اشترته لى مس تمبل فى يوم زفافها ، وقد ظل محتفظا بجدته ـ ولم ألبث كذلك ان سويت شعرى ، وازينت بحليتى الوحيدة : الدبوس اللؤلؤى ، ثم هبطنا الدرج

ولحسن الحظ ، كان لغرفة الاستقبال مدخل آخر غير المدخل المفضى اليها من حجرة المائدة ، فوجدناها خالية ، والنيران تشتعل فى مدفأتها ، والشموع تضىء جنباتها . وكانت أديل لا تزال تحت تأثير التهيب الذى استبد بها ، فجلست صامتة لا تنبس بحرف ، على المقعد الصغير الذى أرشدتها اليه ، ثم جلست أنا بجانب قاعدة احدى النوافذ ، وتناولت كتابا حاولت ان أقرأ فيه .. وجاءت أديل بمقعدها عند قدمى ، وسرعان ما لمست ركبتى فسألتها : « ماذا بك يا أديل ؟ »

ـ هل أستطيع اقتطاف زهرة واحدة من هذه الزهور الفاخرة يا آنسة لاتمم بها زينتى ؟

ـ انك تبالغين فى التفكير فى زينتك يا أديل ، ولكن فى وسعك ان تأخذى زهرة

ثم تناولت بيدى زهرة من احدى الزهريات ، ثبتها فى وشاحها ، فتنهدت الصعداء ، وكأنما كأس سعادتها قد اترعت . وعندئذ أدرت وجهى لاخفى ابتسامة لم أقو على كبتها ، اذ كان فى اهتمام الباريسية الصغيرة البالغ

بثيابها مايدعو الى الضحك بقدر ماكان يدعو الى الالم ٠٠ وما لبثت ان ارتفعت الاصوات الخافتة ، عندما تحركت الستارة التى تفصل بين الغرفتين ، فظهرت حجرة المائدة وقد انسكبت من ثرياها الاضواء على طاقم للحلوى من الفضة والزجاج يشغل مائدة مستطيلة ٠ وكانت بعض السيدات يقفن عند المدخل ، فما ان دخلن قاعة الجلوس حتى انسدلت الستار خلفهن ٠ ولم تكن السيدات يزدن على ثمان ولكنى خلتهن أكثر ، عندما تزاحمن على الدخول ٠ وكانت بعضهن ممشوقات ، وأكثرهن يرتدين ثيابا بيضاء ، فلما دخلن وقفت أحييهن فى دماثة ، فردت واحدة أو اثنتان منهن تحيتى باحناء الرأس ، بينما حملقت فى وجهى الباقيات ٠ ثم انتثرن فى الحجرة ، يذكرننى بخطوهن الرشيق بسرب من الطيور البيضاء ٠ واضطجع بعضهن فوق الارائك والمتكآت ، والتف البعض الآخر حول المنضدة ، وانحنين على الزهريات ، ثم أحطن بالموقد وهن يتحدثن بأصوات خافتة ولكنها واضحة النبرات ، مما أوحى لى بأنها عادة فيهن ٠٠ ولم أعرف أسماءهن الا فيما بعد ، ولكن فى وسعى ان أذكرها الآن : فأولا ، كانت هناك مسز ايشتون وابنتاها ٠٠ وكانت السيدة ذات حسن وجمال فى صباها ــ ولا ريب ــ وقد ظلت محتفظة بهما ٠ أما ابنتاها ، فكانت كبراهما ــ وهى آمى ــ صغيرة الجسم ، متوثبة الحركات ، تبدو كالطفلة فى وجهها وتصرفاتها ، فى حين كانت الثانية ــ لويزا ــ أطول قامة ، وأكثر أناقة ، ذات وجه غاية فى الجمال ٠٠ أى كانت الشقيقتان فى بهاء الزنبق

أما الليدى لين ، فكانت شخصية قوية ، بدينة ، فى حوالى الاربعين من عمرها ، منتصبة القامة ، بادية الكبرياء ، ترتدى ثيابا غالية ، ويلتمع شعرها الفاحم تحت ريشة أزوردية اللون ، وبين طوق من المجوهرات ٠٠ وكانت مسز كولونيل دنت أقل أبهة فى المظهر ولكنها كانت فى صفاء النهار : ذات قامة ناحلة ، ووجه ممتقع رقيق ، وشعر جميل ٠ وكانت فى ثوبها الاسود الساتان ووشاحها الدنتلا تعجبنى أكثر من السيدة السابقة التى كانت تسبح فى قوس قزح من الاضواء

أما الثلاث الممتازات ــ ولعل الفضل الاول فى ذلك راجع الى طولهن المفرط ــ فكن الليدى أنجرام ــ أرملة اللورد انجرام ــ وابنتيها بلانش ومارى ٠٠ كن ثلاثتهن من أشمخ الموجودات قامة ٠٠ وكانت الارملة فيما بين الاربعين والخمسين من عمرها ، تحتفظ بجمال قدها ، وقد ظل شعرها فاحم السواد ، كما بدا تحت ضياء الثريا على الاقل ، وكذلك ظلت أسنانها كاملة ٠ وكان معظم الناس يعتبرونها من أجمل السيدات بالنسبة لسنها ، ولكن هيئتها وأساريرها كانت تنم عن كبرياء لايحتمل ، وكانت تقاطيع وجهها رومانية ، بينما كانت عيناها تومضان بالقسوة والعنف مماذكرنى بعينى مسز « ريد » ٠٠ أرملة خالى !٠٠ وكانت ابنتاها ــ بلانش ومارى ــ متعادلتين فى تكوين البنية ، وان كانت

ماري أرفع جسما بالنسبة الى طولها ، بينما كانت بلانش ممتلئة أشبه بديانا (ربة الصيد)!
.. ولقد أخذت ـ بطبيعة الحال ـ أوليها اهتماما خاصا ، أولا لكي أرى الى أى مدى كانت تتفق مع ما وصفتها به مسز فيرفاكس ، وثانيا لارى كم كانت تشبه الصورة المصغرة التى رسمتها لها ، وثالثا ـ وهو الاهم ـ لكي أرى الى أى مدى كانت تتفق فى رأيى مع ذوق مستر روشستر . وأخيرا تبينت أنها تتفق فى كل شيء مع الصورة التى رسمتها ، والاوصاف التى عددتها مسز فيرفاكس : رأس نبيل ، وكتفان منحدرتان ، ونحر جميل ، وعينان سوداوان تحيط بهما هالات سوداء .. أما وجهها فكان يشبه وجه والدتها تماما ، ويزيد عنه شبابا ، كما كان لها نفس الجبين المنخفض والقسمات المتعالية ، ونفس الكبرياء ، ولكنها كانت تضحك باستمرار .. وان كانت ضحكتها تنضح بالتهكم والسخرية ، تماما كذلك التعبير الذى كان يرتسم على شفتها المقوسة فى زهو وعجرفة

ويقال ان العبقرية هى الاعتداد بالنفس .. واذا لم أستطع ان أقول ان بلانش كانت عبقرية ، فلست أنكر انها كانت شديدة الاعتداد بنفسها : فقد خاضت فى الكلام عن علم النبات مع مسز دنت . ويبدو أن هذه لم تكن قد درست هذا العلم ، وان قالت انها تحب الزهور ولا سيما البرية منها.. أما مس انجرام ـ بلانش ـ فكانت على المام تام بهذا العلم، فأخذت تكشف عن معلوماتها فى زهو وافتخار ، ثم لاحظت انها انما كانت تعبث بالسيدة وتتلاعب بجهلها !.. وان دل هذا على شيء من المهارة ، الا أنه ليس دليلا على طيبة النفس . وكانت تعزف بمهارة ، وتغنى بصوت رخيم ، وتتحدث الفرنسية بطلاقة . أما « ماري » ، فكانت أرق وألطف من بلانش ، كما كانت أكثر اشراقا ، وأدق قسمات ، وقد أوتيت بشرة أنصع من بشرة أختها التى كانت فى سمرة الاسبانيات .. وانما كان ينقص ماري الشعور بنشوة الحياة .. كان وجهها يفتقر الى التعبير وان كانت عيناها تلتمعان ، ولم يكن لديها ما تقوله ، ولذلك جلست فى مقعدها مخلدة الى الصمت ، مسمرة فى مكانها، أشبه بتمثال فى محرابه .. وكانت الشقيقتان ترتديان أنصع الثياب

أفكان لى بعد ذلك ان أعتقد ان بلانش انجرام من النوع الذى يحتمل ان يقع عليه اختيار مستر روشستر ؟.. لم أستطع ان أجزم بذلك لانني لم أكن أعلم بذوقه فى دنيا الجمال النسوى ، ولو انه كان يميل الى العظمة لوجد فيها النموذج للعظمة ، فضلا عن انها كانت مهذبة وعلى جانب كبير من الرشاقة . ولذلك أعتقد ان معظم السادة كانوا يعجبون بها ، وانه هو بالذات كان معجبا بها فعلا . وبدا لى أننى عثرت على الدليل ، ولكى أبدد آخر سحائب الشك ، تريثت لاشاهدهما معا

ولا تحسب ـ أيها القارىء ـ أن أديل ظلت طوال الوقت جالسة لا تتحرك ولا تريم فى مقعدها عند قدمي . كلا .. فانها عندما دخلت السيدات ،



نهضت ثم تقدمت للقائهن بوقار واحترام ثم قالت لهن فى رزانة : « يوم سعيد ياسيداتى ! » .. فنظرت اليها مس انجرام ساخرة وصاحت : « أوه.. يالها من دمية صغيرة ! » .. وقالت الليدى انجرام : « أظنها الفتاة التي يتولى مستر روشستر الوصاية عليها .. الفتاة الفرنسية الصغيرة التى كان يتحدث عنها » .. أما مسز دنت فقد تناولت يدها فى رفق وطبعت عليها قبلة ، بينما صاحت آمى ولويزا ايشتون فى صوت واحد : « يالها من طفلة جميلة ! » .. ثم دعتاها الى أريكة جلست عليها ، وكادت تختفى بينهما ، ثم راحت تتحدث تارة بالفرنسية ، وتارة أخرى بانجليزية ركيكة . ولم تسترع الصغيرة انتباه الشابات وحدهن ، بل اجتذبت انتباه مسز ايشتون والليدى لين ، ونعمت بتدليل الجميع

* * *

◆ وأخيرا ، جيء بالقهوة ودعى السادة للدخول . وظللت جالسة فى ظل الستارة التى كادت تحجبنى عن العيون .. ودخل الرجال بعد ان أزيحت الستارة التى كانت تفصل بين الحجرتين جانبا للمرة الثانية .. وكان دخولهم الجماعى كدخول السيدات فى روعته : كانوا جميعا يرتدون الملابس السوداء ، ومعظمهم طوال القامة ، وبعضهم فى زهرة الشباب . والواقع ان هنرى وفردريك لين كانا شعلة من نار ، بينما كان الكولونيل دنت رجلا عسكريا جميلا . أما مستر ايشتون - قاضى المقاطعة - فكان سيدا فى مظهره ، ناصع الشعر ، بينما كانت حاجباه وسوالفه تحتفظ بسوادها ، مما جعله يبدو كالوالد النبيل الذى يظهر على المسرح .. فى حين كان اللورد انجرام الصغير كشقيقتيه فى طول القامة وجمال المحيا ، وان كان يشاطر مارى نظرتها الفاترة سواء فى العاطفة أو الهمة . ويبدو انه كان ينعم بطول الاطراف أكثر

مما كان ينعم بنشاط الدم ونشاط الذهن

وأين مستر روشستر ؟.. انه لم يلبث ان أقبل فى النهاية .. ولم أكن أنظر الى القبو – الذى يفصل بين حجرتى المائدة والاستقبال – ولكنى مع ذلك رأيته يدخل ، وسرعان ما حاولت ان أركز انتباهى فى تلك الابر التى كنت أجدل بها كيسى الشبكى ، والا اشغل تفكيرى بغير العمل الذى كان بين يدى ، وأن أقصر نظراتى على الخرز الفضى والخيوط الحريرية التى كانت فى حجرى .. على اننى رأيت شخصه بغريزتى ، فلم أجد مناصا من تذكر اللحظة التى شاهدته فيها آخر مرة – عقب ان اديت له ما اعتبره خدمةجليلة– فامسك بيدى ، ثم جعل يتأمل وجهى بعينين تكشفان عن قلب مترع ، يتلهف على الافضاء بعواطف لى فيها نصيب .. ما كان أقربنى اليه فى تلك اللحظة !

.. فماذا حدث بعد ذلك وغير موقفه بالنسبة لى ؟ لكم غدونا – رغم ذلك – متباعدين غريبين الى حد لم أكن أتوقع معه ان يجىء ويحدثنى ، ولذلك لم أعجب عندما اتخذ لنفسه مقعدا فى الجانب الآخر من الحجرة ، ثم مضى يتحدث مع بعض السيدات ، دون أن يلتفت نحوى .. وما ان وجدت أن انتباهه قد تركز عليهن ، وأن فى وسعى أن أرنو اليه دون ان يلحظنى ،حتى تحولت عيناى بالرغم منى الى وجهه دون أن أقوى على السيطرة على جفونهما التى كانت ترتفع لتحدق مقلتاى فيه . ورحت أشخص اليه ، وأستشعر فى التطلع اليه سرورا شديدا .. سرورا غاليا ولكنه حاد أليم .. غاليا كالذهب الابريز ، ولكن له طرفا كالصلب يخز ويبعث على الالم .. سرورا كالذى يشعر به رجل أوشك ان يقضى عليه الظمأ ، فلما عثر على بئر واستطاع ان يزحف اليها ، وجدها مسممة ، ولكنه مع ذلك لم يتوان فى الانحناء عليها ، لينهل من مائها وكأنه جرعات قدسية مباركة !

ما أصدق القائل بأن الجمال فى عين الرائى : كان وجه سيدى الشاحب الزيتونى اللون ، وجبينه الضخم ، وحاجباه البارزان الفاحمان ، وعيناه العميقتان ، وأساريره القوية ، وفمه الحازم المتجهم .. كانت كل هذه الملامح تنم عن النشاط والعزم والحزم ، ولكنها لم تكن جميلة حسب قواعد الجمال !

.. بيد انها كانت عندى أكثر من جميلة .. كانت زاخرة بمعان وسلطان ملكا على كل نفسى واستلبا مشاعرى فأسلماها اليه ليقيدها ، ويفرض عليها سطوته .. اننى لم اكن أود أن أحبه ، وان القارىء ليعلم كم جاهدت لانتزع من نفسى ماعثرت عليه من بذور الحب .. ولكن هذه البذور بعثت من جديد – عندما رأيته لاول مرة بعد فراقنا – ونمت وترعرعت واستوت على سوقها.. كان يحملنى على حبه دون ان ينظر الى !

ورحت أقارنه بضيوفه ، فاستصغرت شان ما أوتيه آل (لين) من رشاقة وكياسة ، وما كان عليه اللورد انجرام من أناقة يشوبها تنعم .. بل ماقيمة

وجاهة الكولونيل دنت العسكرية ، بجانب ماكان يتبدى على مستر روشستر من روح ذاتية طبيعية وقوة خالصة غير مجلوبة ؟! .. لم أشعر بميل أو انعطاف نحو مظهرهم وأساليبهم ، وان خيل الى أن معظم من يرونهم لايملكون سوى ان يصفوهم بالجاذبية ، بينما يصمون مستر روشستر على التو بدمامة الخلقة واكتئاب المنظر !.. ورأيت السادة يبتسمون ويضحكون فلم يجتذبني شيء من هذا ، بل خيل الى أن لضوء الشموع روحا تبز مافي ابتسامهم ، وان في رنين الجرس مغزى يفوق مافي ضحكهم .. ورأيت مستر روشستر يبتسم ، فاذا بأساريره الكالحة تلين ، واذا بعينيه تزدادان اشراقا ورقة ، واذا باشعتهما حلوة نافذة !.. وكان في تلك اللحظة يتحدث الى لويزا وآمي ايشتون ، فعجبت لهما اذ كانتا تصمدان محتفظتين بهدوئهما أمام تلك النظرة التي بدت لي جد نفاذة .. كنت أتوقع ان ترخيا عيونهما وان تتضرج وجناتهما !.. على انني اغتبطت لعدم تأثرهما بأية حال ، وقلت في نفسي : « انه ليس بالنسبة لهما كما هو بالنسبة لي . انه ليس على شاكلتهما ولكنه ـ فيما اعتقد ـ على شاكلتي .. بل أنا واثقة انه كذلك ، حتى ليخيل الى انه من اقاربي ، لانني أفهم لغة وجهه وحركاته .. ولئن باعدت بيننا المراتب والثروة كل التباعد ، فان في ذهني وقلبي ودمي وأعصابي مايربطني عقليا به !.. فهل كان حقا انني قلت منذ أيام قلائل أن لا شأن لي به سوى انني أتناول مرتبي من يديه ؟ ألم أحرم على نفسي التفكير فيه الا على ضوء أنه صراف المرتب ؟.. ياله من تجديف في حق الطبيعة !.. لقد أحطته بكل شعور طيب خالص قوي ، بدافع من نفسي ، ولكن يجب أن أخفي عواطفي وان أخنق أملي وان أتذكر انه لايستطيع ان يحفل بي كثيرا ! واذا قلت انني على شاكلته فليس معنى هذا انني أوتيت من القوة مايؤثر فيه كما يؤثر هـو في ، أو انني أوتيت سحره الجذاب ، وانما أعني فقط انني أشاركه في بعض الاذواق والاحاسيس ، ولذلك يجب ـ وأكرر ذلك دائما ـ أن نظل بعيدين منفصلين الى الابد ، ورغم ذلك .. فلابد لي من ان أحبه ماظل بي نفس يتردد ورأس يفكر

وقدمت القهوة .. وكانت الحيوية قد شاعت في قلوب السيدات ، فغدون كالقنابر ـ بعد دخول الرجال ـ واستحالت الاحاديث رشيقة طروبة . وراح الكولونيل دنت ومستر ايشتون يتجادلان في أمور السياسة ، في حين مضت زوجتاهما تصغيان ، بينما أخذت الارملتان النبيلتان ـ ليدى لين وليدى انجرام ـ تتسامران معا . أما السير جورج ـ الذي نسيت ان أصفه ـ فكان سيدا ضخم البناء ريفي الهيئة بادي النشاط ، وكان واقفا أمام اريكتهما وقدح القهوة في يده ، وهو يفوه بكلمة بين الفينة والاخرى . وكان مستر فردريك قـد اتخذ له مقعدا بجانب ماري انجرام ليطلعها على نقوش مجلد فاخر ، وهي ترنو وتبتسم من حين الى آخر دون أن تكثر من الكلام على مايظهر . بينمـا اتكا

اللورد انجرام الفاره ، الفاتر ، بذراعيه المعقودتين على ظهر المقعد الذىجلست فيه ايمى ايشتون الصغيرة الحسناء ، التى كانت ترفع اليه عينيها وتتحدث معه وكأنها عصفور صغير ـ فقد كانت تحبه أكثر مما تحب مستر روشستر !ـ على حين جلس هنرى لين على متكأ عند قدمى لويزا ، تشاركه أديل التى راح يحاول ان يكلمها بالفرنسية بينما كانت لويزا تضحك من اخطائه

فمع من كانت بلانش انجرام تسمر اذن ؟٠٠ كانت واقفـــة بمفردها أمام المنضدة ، وقد انحنت فى رشاقة على (ألبوم) للصور وكأنها تنتظر أن يسعى اليها أحد ، ولكنها لم تنتظر طويلا بل اختارت بنفسها زميلا لها ٠٠ اذ كان مستر روشستر قد غادر لويزا وايمى ايشتون ووقف بمفرده أمام المنضدة من الناحية الاخرى ، فتقدمت بلانش ووقفت بجانب المدفأة ، ثم قالت : « كنت أظنك غير مغرم بالاطفال يامستر روشستر ؟

ـ لست مغرما بهم

ـ اذن ما الذى أغراك على أن تتعهد دمية صغيرة كهذه ؟ (ثم أشارت الى أديل واستطردت تقول) : من أين التقطتها ؟

ـ لم ألتقطها ولكنها تركت بين يدى

ـ كان يجب ان ترسلها الى المدرسة

ـ لم يكن ذلك فى وسعى ، لان نفقات المدارس باهظة

ـ ولكنك فيما أعتقد جئتها بمعلمة ، فقد شاهدت شخصا معها منذ قليل٠٠ اتراها خرجت ؟ ٠٠ آه ، كلا ٠٠ ها هى ذى لاتزال خلف ستارة النافذة ٠٠ انك تستاجرها بالطبع ٠٠ وأعتقد انهما تكلفاك الكثير ٠٠ بل الكثير جدا ، لانك تؤويهما الاثنتين !

وقد خفت ـ بل بالاحرى تمنيت ـ أن تدفعه تلك الاشارة من السيدة الى أن يحول نظره ناحيتى ٠ ووجدتنى ـ على رغمى ـ أزداد انكماشا فى الظلال، ولكنه لم يلفت عينيه ، بل قال فى غير اكتراث وهو يتطلع امامه مباشرة : « لم افكر فى الموضوع بعد ! »

ـ كلا ٠٠ انكم يامعشر الرجال لا تهتمون بالاقتصاد والتدبير ٠ ويجدر أن تسمع رأى (ماما) فى المعلمات ، فقد تولى تعليمى وتعليم مارى ـ فيما أعتقد ـ لا يقل عن اثنتى عشرة معلمة فى صغرنا ، فكان نصفهن كريهات بغيضات ، والنصف الآخر سخيفات ، وكلهن هراء ٠٠ أليس كذلك ياماما ؟

ـ هل تكلمينني يا روحى ؟

وأوضحت الشابة لامها الموضوع فقالت : « لا تذكرى ياعزيزتى المعلمات ، فان مجرد ذكرهن يثير أعصابى ٠ لقد قاسيت من قصورهن وشذوذ طباعهن ما لم يقاسه الشهداء ٠ وأنا أشكر السماء التى خلصتنى الآن منهن »

وانحنت مسز دنت على السيدة « الطيبة ! » ، وهمست شيئا فى أذنها ٠وتبينت

من الرد انها كانت تنبهها الى وجود واحدة من هـذا الجنس اللعين اذ قالت الليدى : « فليكن !٠٠ ولعلها تفيد من ذلك ! » ٠٠ ثم استطردت بصـوت خافت ولكنه مازال عاليا بحيث أسمعه :

ـ لقد لاحظتها ، وانا ماهرة فى علم الفراسـة وأرى فيهـا كل عيوب طائفتها ! » ٠٠ فسألها مستر روشستر بصوت عال : « وما هى هذه العيوب ياسـيدتى ؟ » ، فأجابت وهى تهز قلنسوتهـا ثلاث هزات وكأنهـا تنذره بخطورة ما لديها : « سأهمس بها فى أذنك ! »

ـ ولكن حب الاستطلاع سوف يفتر أمام شهوتى للطعام ، فان نفسى تهفو الآن للعشاء (١)

ـ سل بلانش فانها أقرب اليك منى !

ـ لاتحيليه على ياماما !٠٠ ليس لدى غير كلمة واحدة عن تلك الفصيلة كلها: انهن أذى ! ولا أعنى اننى قاسيت منهن كثيرا ، لاننى كنت أعكس عليهن الامر، فكم دبرت مع « تيودور » مكائد ضد معلماتنا مس ويلسن ومسز جريز ومدام جوبير ٠٠٠ أما مارى فكانت أكسل من أن تشترك فى مكائدنا بتحمس ٠وكان أبدع مزاحنا مع مدام جوبير ، أما مس ويلسن فكانت مخلوقة مسكينة ،بدينة، سريعة البكاء ، كسيرة الخاطر ، وقصارى القول انها لم تكن أهلا لان نتجشم عناء محاولة التغلب عليها ٠ بينما كانت مسز جريز فظة عديمة الاحسـاس ٠٠ لا تتأثر بأية لطمة ، ولكن مدام جوبير كانت مسكينة ، ومازلت أذكرها وهى هائجة مائجة عندما أخرجناها عن طورها فأراقت شاينا وفتتت خبزنا وزبدنا، ثم طوحت بكتبنا الى السقف ، وأثارت شوشرة بالمسطرة والدرج وحاجز الموقد وأسياخ النار ٠٠ أتذكر ياتيودور تلك الايام المرحة ؟

فأجابها اللورد انجرام متشدقا : « نعم ٠ أذكرهـا بكل تأكيد ٠ وكانت (العصا) المسكينة العجوز ـ كما كنا نسمى مدرستنا النحيلة ـ تصرخ «يالكم من أطفال أشقياء ! » ٠٠ وعندئذ كنا نعظها ألا تحاول تعليم صـغار أذكياء مثلنا ، مادامت هى نفسها جاهلة ! »

ـ كنا نفعل ذلك حقا ٠ وهل تعلم ياتيودور أننى كنت أساعدك على تعذيب واضطهاد معلمك المتقع الوجه مستر فاينتج الذى أباح لنفسه ان يتبادل الحب مع مس ويلسن ، وقد رأيتهما يتبادلان النظرات والتنهدات ثم انفضح أمرهما، فطردتهما ماما لسوء سلوكهما !٠٠ أليس كذلك يا والدتى الليدى ؟

ـ بلا شك وقد أحسنت صنعا ٠ واعلمى ان هنـاك ألف سبب يدعـو الى

---

(١) يتناول علية القوم فى بعض المجتمعات وجبتين فى المساء ، أولاهما فى بداية السهرة ، والثانية عندما يكتهل المساء قليلا

عدم احتمال اية علاقة بين المعلمين والمعلمات فى منزل تراعى فيه النظم ٠واول هذه الاسباب ٠٠٠

ـ أوه يا أمى الحسناء ٠ وفرى علينا عناء تعداد هذه الاسباب فكلنا نعرفها: خطر القدوة السيئة للاطفال الابرياء ، وتشتيت الافكار ، وما ينجم عن ذلك من اهمال الواجب ، وما يلازم ذلك من قحة وعصيان وتقريع عام ٠٠ هل أنا مصيبة ياباروتة انجرام ؟

ـ أنت يازنبقتى مصيبة الآن ٠٠ وعلى الدوام !

ـ اذن فلا حاجة الى مزيد من القول ولنغير الموضوع ٠

ولكن ايمى لم تسمع هذه الاشارة أو لم تكترث بها فقالت بصوت ناعم كصوت الاطفال : « لقد اعتدت ولويزا ان نتهكم على معلمتنا كذلك ، ولكنها كانت مخلوقة طيبة ، تحتمل كل شيء ولا يثيرها شيء فلم تغضب منا قط ٠ أليس كذلك يالويزا ؟ »

ـ بلى يا ايمى ٠٠ كنا نفعل مايروق لنا : نسطو على درجها وصندوق أشغالها ، ونقلب محتويات كل الادراج ، ولكنها كانت طيبة القلب لاتبخل ولا تضن علينا بكل ما كنا نطلبه

وقالت مس انجرام وهى تلوى شفتيها فى سخرية وتهكم : « اظننا الآن قد أخذنا فكرة موجزة عن جميع المعلمات الموجودات ، ولكى نتفادى اى جزاء ، أرى أن نتحول الى موضوع آخر ، فهل تقرنى على هذا الرأى يامستر روشستر ؟

ـ أنا أؤيدك ياسيدتى فى هذا الرأى كما أؤيدك فى غيره

ـ اذن سآخذ على عاتقى فتح الموضوع الآخر ٠ هل تميل الليلة للغناء ؟

ـ اذا أمرت يادونا بيانكا !!

ـ ان ارادتنا الملكية تقضى بأن تهيىء رئتيك وغيرهما من أعضائك الصوتية ياسنيور لتكون فى خدمة جلالتى !

ـ من ذا الذى لايود أن يغنى بمصاحبة عازفة قدسية مثلك ؟

فصاحت بلانش :

« لست أحفل بالمغنى ٠٠ اننى أعتقد أن عازف الكمان « دافيد » شخص موهوب ولا بد ، على اننى أحب بوثويل الاسود ، ففى رأيى ان لاقيمة للرجل مالم يبث فيه الشيطان بعض الفلفل !٠٠ وليقل التاريخ مايقول عن جيمس هيبورن ـ مثلا ـ فانى أراه عين البطل المتوحش ، القاسى ، قاطع الطريق ، الذى لا اتردد فى ان اقبله زوجا ! » ٠٠ فصاح روشستر : « اتسمعون ياسادة ؟ ٠٠ من منكم اذن يشبه بوثويل ؟ » ٠ فاجاب الكولونيل دنت : « أظن الأختيار قد وقع عليك بالذات ! »

ـ أشكرك كثيرا

★ ★ ★

◆ وفى بهاء وجلال ، جلست مس انجرام الى البيانو ، ونشرت ثوبها الناصع الفضفاض حولها كأنها ملكة ، ثم أخذت توقع مقدمة رائعة ، وهى تتحدث فى الوقت نفسه !٠ وكانت - فى تلك الليلة - تبدو شديدة الاعتداد وترمى من وراء كلماتها وحركاتها الى أن تبهر المستمعين ، لا ان تثير اعجابهم فحسب !٠٠ كان جليا انها تعمد الى التظاهر بالاقدام والجرأة فى الرأى ، لتذهلهم ٠ فقد صاحت وهى ماتزال تعزف على البيانو : « اوه ٠ لقد سئمت شبان اليوم !!٠ انهم مخلوقات مسكينة ٠٠ لايصلحون لان يخطو الواحد منهم خطوة واحدة ، أبعد من حديقة (بابا) ، ولا حتى أن يبلغ باب هذه الحديقة الا باذن من (ماما) وتحت رعايتها !٠٠ انهم مخلوقات تافهة !٠٠ يستغرقهم الاهتمام بوجوههم الجميلة ، وأيديهم البضة ، وأقدامهم الصغيرة ، كما لو كان للرجل شأن بالجمال ! ٠٠ وكأنما الرشاقة ليست امتيازا مقصورا على المرأة ، وحقا مشروعا من حقوقها ، وميراثا موقوفا عليها !٠٠ اننى أعتبر المرأة الدميمة وصمة فى جبين الخليقة الجميل ٠٠ أما الرجال فيجب ان لايشغل خواطرهم سوى أن يكونوا أقوياء وشجعان ، وليكن شعارهم : « الصيد والقنص والقتال » ! اما ماعدا ذلك فلا يساوى قلامة ظفر ٠ هذا هو نهجى لو اننى كنت رجلا !» ٠٠ وتوقفت عن حديثها لحظة ، لم يقاطعها فيها أحد ثم استرسلت تقول : « اننى مصممة على ان لايكون زوجى - اذا ماتزوجت - منافسا لى ، وانما يجب ان يكون سيفا مشحوذا ، فلست أطيق ان يزاحمنى على عرشى ، ولا ان يقسم عواطفه بينى وبين الصورة التى تطالعه فى المرآة ٠ والآن ، غن ياروشستر ، وسأعزف لك » ٠٠ فكان جوابه : « كلى طاعة ! »

- هاهى أغنية قرصانية ، ولتعلم أننى مشغوفة بالقراصنة

- ان اوامر تلقيها شفتا مس انجرام كفيلة بأن تبعث روحا وحياة فى وعاء من اللبن والماء

- حذار اذن من ان لا يروق لى غناؤك فأخجلك بأن أريك كيف تغنى هذه الاغنية

- انما هذا اغراء بالعجز ، ولذلك سأحاول ألا أوفق

- اجعل بالك الى انك لو أخطأت عامدا متعمدا ، فسوف ابتكر عقوبة مناسبة !

- على مس انجرام أن تكون حليمة، لان فى وسعها أن توقع عقوبة لايحتملها بشر

- ها ٠٠ أوضح ٠٠ فسر !

- معذرة يا آنسة ٠٠ لا حاجة الى شرح ، اذ ينبغى على احساسك المرهف ان يخبرك بأن تقطيبة واحدة ، تغنى عن عقوبة الاعدام

فصاحت : « نحن ! » .. ثم لمست البيانو مرة أخرى ، وراحت تصاحبه وهو يغنى بايقاع زاخر بالحياة .. وقلت فى نفسى : « حان أن أتسلل الى الخارج ! » .. ولكن الصوت الذى تخلل اللحن سمرنى فى مكانى . لقد أخبرتنى مسز فيرفاكس ان مستر روشستر عذب الصوت ، والواقع انه غنى بصوت رخيم قوى عميق ، ألقى فيه شعوره وقوته فنفذا من الاذن الى القلب ، حيث أيقظا الاحاسيس بصورة عجيبة .. وانتظرت حتى انتهت آخر النبرات العميقة الزاخرة ، وعاد الحديث يتدفق من جديد بعد ان كان قد توقف لحظات . وعندئذ بارحت الركن الذى كنت ألوذ به ، وخرجت من الباب الجانبى الذى كان لحسن الحظ على مقربة منى ، ثم افضى بى ممر ضيق الى البهو . وفيما كنت أجتازه تبين لى ان صندلى مفكوك ، فتوقفت لاربطه ، وركعت من أجل ذلك على بساط عند أول الدرج . وسمعت باب قاعة المائدة يفتح ، ليخرج منه أحد السادة . وعندما نهضت على عجل ، وجدتنى وجها لوجه معه .. مع مستر روشستر ، الذى سألنى : « كيف حالك ؟ »

ـ بخير ياسيدى

ـ لماذا لم تاتى وتحدثينى فى قاعة الاستقبال ؟

وفكرت فى أن ألقى عليه نفس السؤال ، ولكنى لم أشأ أن امنح نفسى تلك الحرية فاجبت : « لم أشأ ان أضايقك ، لانك كنت مشغولا ياسيدى »

ـ ماذا كنت تفعلين أثناء غيابى ؟

ـ لاشىء بالذات .. كنت أعلم أديل كالمعتاد

ـ وكنت تزدادين شحوبا عما كنت عندما رأيتك لاول مرة ! .. ماذا جرى ؟

ـ لاشىء مطلقا ياسيدى

ـ هل أصابك برد فى تلك الليلة ، عندما كدت تغرقيننى

ـ كلا اطلاقا

ـ عودى الى قاعة الاستقبال ، فانك غادرتها مبكرة جدا

ـ أنا متعبة ياسيدى

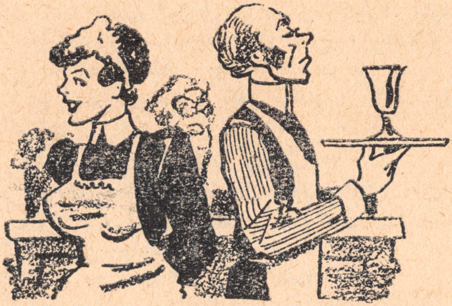
فتأملنى لحظة ثم قال : « ومكتئبة هونا ما .. لماذا ؟ اخبرينى ! »

ـ لاشىء .. لاشىء ياسيدى . لست مكتئبة

ـ ولكنى أؤكد لك انك كذلك .. مكتئبة جدا بحيث تكفى بضع كلمات اخرى لان تملأ عينيك بالدموع .. بل انها تملأها الآن فى الواقع ، وتلتمع فيهما وتسبح ، وهاهى ذى دمعة تسللت خلال الاهداب وسقطت على الارض . ولو كان لدى متسع من الوقت ولاأخشى أن يمر بنا خادم ثرثار ، نمر ، لعرفت

ماذا يعنى كل هذا !٠٠ حسنا ، سألتمس لك العذر الليلة ، ولكن اعلمى ان عليك ان تظهرى بحجرة الاستقبال كل مساء ٠ هذه رغبتى فلا تهمليهـــا ٠ والآن اذهبى وارسلى صوفى الى آديل ٠ طابت ليلتك يا ٠٠٠
ثم توقف عن الكلام ، وعض شفته وغادرنى فجاة !

الفصل الثامن عشر



• **كانت** هذه الايام فى قصر (ثورنفيلد) مرحـــة طروبا ، بقدر ماكانت زاخرة بالعمل والنشاط ٠٠ وكم كانت تختلف كل الاختلاف عن الشهور الثلاثة الاولى التى قضـــيتها تحت سقف ذلك القصر فى ســـكون وتواتر رتيب ممل ، وعزلة موحشة ٠ وخيل الى أن جميع المشـــاعر الحزينة قد أقصيت اقصـــاء عن القصر ، وأن كل الاحساسات الكئيبة قـد انجابت وتنوسيت ، لتحل محلهـــا الحياة النابضة فى كـل مكان ، ولتشيع الحركة طوال كل يوم ٠٠ ولم يعد فى وسعك الآن أن تجتاز الردهة التى كانت فيما مضى ساكنة هادئة ، أو تدخل الحجرات الامامية ، التى كانت يوما ما خالية من الناس ، دون أن تلقى وصيفة رشيقة لاحدى السيدات ، أو وصيفا غندورا

لاحد السادة .. وكذلك كان المطبخ ومخزن الساقي وقاعة الخدم والبهو الامامي ، كلها زاخرة بالحياة . ولم تكن غرفات الاستقبال لتخلو وتهجع الا عندما ينطلق سكانها الى الخلاء بدعوة من السماء الزرقاء والشمس الهادئة في ذلك الربيع البهيج . وحتى عندما كان الطقس يعتكر ، وعندما كانت السماء تمطر أياما بلا انقطاع ، لم تكن أية رطوبة تقوى على أن تصد المدعوين عن الاستمتاع باقامتهم . اذ سرعان ما كانت تتضاعف ضروب التسلية المنزلية وحدها وتتباين ، بسبب توقف أسباب اللهو في الخارج

ولقد تساءلت عما كانوا موشكين أن يفعلوا في أول مساء رؤى فيه تغيير ما اعتادوا من أسباب التسليه ، فاذا بهم يتحدثون عن التندر بالالغاز والاحاجي . غير انى لجهلي لم أفهم ماكانوا يقصدون .. وسرعان ما استدعى الخدم ، ونقلت موائد حجرة الطعام ، ونظمت الانوار تنظيما جديدا ، ووضعت المقاعد على هيئة نصف دائرة في مواجهه القبو الذى كان يفصل بين الحجرتين .. وبينما كان مستر روشستر وسائر السادة يشرفون على هذه التغييرات ، هرعت السيدات بذرعن الدرج صاعدات نازلات ، وهن ينادين وصيفاتهن ، كما استدعيت مسز فيرفاكس لتدلى بمعلوماتها عما في القصر من أوشحة وملابس وأقمشة من كل نوع ، وفتحت صواوين (خزانات) خاصة في الطابق الثالث ، ثم أخرجت محتوياتها من (جونيلات) موشاة مستديرة كالاطواق ، وأزياء سوداء وغلالات حريرية ، وثياب ذات أهداب مزركشة بالدنتلا .. الى غير ذلك من أشياء أرسلت الى الطابق الارضى مع الخادمات ، فاختيرت منها مجموعة أرسلت الى مقصورة تتصل بحجرة الاستقبال .. فى تلك الاثناء ، عاد مستر روشستر يستدعى السيدات ليلتففن حوله ، وشرع يختار من بينهن عددا تتألف منه فرقته ، وهو

يقول : « ستكون مس انجرام من زمرتي بطبيعة الحال ! » ٠٠ ثم اختار أخريات هن آمي ايشتون وشقيقتها لويزا ومسز دنت، وبعد ذلك التفت الي ـ وكنت بالمصادفة قريبة منه أثبت لمسز دنت مشبك سوارها الذى كان قد انفك ـ فسألني : « هل تلعبين ؟ » ٠٠ وهززت رأسي رافضة ، فلم يلح ٠ وكنت أخشى أن يفعل ، ولكنه تركني أعود فى هدوء الى مقعدى المعتاد ، ثم انسحب مع زميلاته خلف الستار ، بينما جلست الزمرة التى يرأسها الكولونيل دنت على المقاعد التى صفت على شكل هلال ٠ ولمحنى مستر ايشتون ، فاقترح ـ على مابدا ـ اشراكي معهم، ولكن الليدى انجرام رفضت الاقتراح علـى الفور اذ سمعتها تقول : « كلا ٠٠ انها تبدو من الغباء بحيث لاتستطيع الاشتراك فى لعب من أى نوع »

وقبل ان تنقضى فترة طويلة ، دق الجرس وارتفعت الستار ٠ ومن خلال القبو ، شوهد السير جورج لين ـ الذى كان مستر روشستر قد اختاره ضمن فريقه ـ وقد التف بملاءة بيضاء ، وانفتح أمامه على احدى المناضد كتاب ضخم ، ووقفت بجانبه آمى ايشتون تتدثر بعباءة مستر روشستر ، وتمسك فى يدها كتابا آخر ٠٠ وقرع الجرس فى مرح شـخص لم نره ، واذا بالصغيرة أديل ـ وقد أصرت علـى أن تكون من فريق الوصى عليها ـ تثب الى الامام ، فتنثر حـولها الزهور من سلة كانت تحملها على ذراعها ، ثم ظهرت مس انجرام بقامتها البديعة ، وقد ارتدت حلة بيضاء واتشح رأسها بوشـاح طويل والتف حول جبينها اكليل من الورود ، والى جانبها كان يسير مستر روشستر ، ثم اقتربا معا وركعا أمام المنضدة ، بينما اتخذت مسز دنت ولويزا ايشتون مكانيهما خلفهمـا ، وقد ارتدتا ملابس بيضاء ٠ وتلا ذلك احتفال صامت كان من السهل أن نتبين فيه حفلة زواج ما ان انتهت حتى تشاور الكولونيل مع

أفراد زمرته متهامسين ثم صاح الكولونيل : « عروس ! » ٠٠ واذ ذاك انحنى مستر روشستر ، وهبطت الستار ، اذ عرف فريق المخمنين الكلمة التى أريد بالمنظر ان يرمز اليها !

* * *

• **وانقضت** فترة غير وجيزة ، قبل أن ترتفع الستار مرة أخرى ٠ وكشف ارتفاعها فى هذه المرة عن منظر أكثر تنسيقا من سابقه ، اذ لاحظت أن حجرة الاستقبال قد رفعت درجتين عن مستوى غرفة الطعام ووضع على قمة الدرجة العليا حوض كبير من الرخام عرفت فيه أحد الاحواض التى تزين البيت الزجاجى فى الحديقة ، ولابد انهم تكبدوا عناء فى نقله ، لكبر حجمه وثقله !٠٠ **وبجانب هذا الحوض ، شوهد مستر روشستر جالسا على البساط ، وقد ارتدى أوشحة ، ووضع على رأسه عمامة !٠٠ وكانت عيناه الحالكتان ولونه الاسمر وأساريره الشرقية ، توائم ثيابه كل المواءمة ، فبدا نموذجا رائعا لامير شرقي ٠ وسرعان ماظهرت مس انجرام وقد ارتدت بدورها ثوبا شرقيا ولفت حول خصرها وشاحا قرمزى اللون وعقدت حول رأسها منديلا موشي ورفعت احدى ذراعيها البضتين تسند بها جرة وضعتها برشاقة على رأسها ، فكانت أشبه بأميرة يهودية فى العهود القديمة ، بقوامها ومعارف وجهها ولون بشرتها وشكلها العام ٠٠ وكان ذلك هو الدور الذى تود بلا ريب ان تمثله**

واقتربت من الحوض وانحنت عليه وكأنها تتأهب لتملأ جرتها ، ثم رفعت رأسها مرة أخرى ، فتظاهر الجالس اذ ذاك على حافة البئر بأنه يخاطبها ويلتمس منها شيئا ، فبادرت تنزل جرتها على يدها وتقدمها له ليشرب ، وعندئذ أخرج من صدر ثوبه علبة فتحها وانتزع منها أساور وقرطين ،فتظاهرت بالدهش والاعجاب ، ثم ركعت فوضع الحلى الغالية عندقدميها،

وثبت الاساور حول ذراعيها ، والقرطين فى أذنيها ٠ تماما كالمشهد الذىورد فى قصه « عازر » و « رفقه » ـ فى التوراة ـ لا تنقصه سوى الابل !

ومرة أخرى تلاصقت رؤوس ثلة المتكهنين ٠٠ وكان جليا انهم لم يتفقوا على الكلمة أو العبارة التى يصورها ذلكالمشهد، وأخيرا تساءل الكولونيل دنت : « لوحه الكل ؟ » ، واذ ذاك نزلت الستار مرة أخرى ٠٠ وعندما ارتفعت لثالث مرة لميظهر من غرفة الاستقبال سوى جزء منها ، وحجبت الباقى ستار من قماش داكن خشن ٠٠ وكان الحوض قد نقل لتوضع فىمكانه منضدة من خشب أبيض ومقعد من مقاعد المطبخ ، يكشفهما للانظار نور خافت ينبعث من مصباح ذى غطاء من « الباغة » ، بعد ان أطفئت جميع الشموع ٠ ووسط هذا المنظر المتواضع، جلس رجل وقد آتكأ على ركبتيه بيدين مقبوضتين ، مطرقا الى الارض ، فعرفت فيه مستر روشستر على الرغم من وجهه الملوث وملابسه المشعثة ـ اذ كان معطفه يتدلى عنداحدى ذراعيه كما لو كان قد تمزق ظهره فى عراك ـ وعلى الرغم منأساريره اليائسة المتجهمة ، وشعره الكث المنتفش ، مما كاد يخفى معالمه ٠٠ وفيما كان يتحرك سمعنا صليل سلسلة تكبل قدميه



ومعصميه · وصاح الكولونيل : « اصلاحية ! » ·· وبهـذا انحل اللغز

ثم انقضت فترة كافية لان يستعيد الممثلون ثيابهم العادية ويرجعوا الى حجرة الطعام ، ودخل مستر روشستر يقود مس انجرام التى كانت تطرى براعته فى التمثيـل قائلة : « **أتعلم اننى لم أحبك بقدر ما أحببتك فى شخصيتك الثالثة ؟·· أى قاطع طريق شهم مغوار كان يحتمل ان تصبح لو انك كنت فى سن تصغر عن سنك ببضع سنوات ؟** »

فسألها وهو يحول وجهه نحوها : « هل زال كل السناج عن وجهى ؟ »

ـ نعم للاسف · فمما يرثى له أن لاشىء يتناسب مع أديم وجهك مثل هذا الطلاء الذى ينم عن اجرام !

ـ اذن فأنت تتمنين بطلا يكون من قطاع الطرق ؟

ـ ان بطلا انجليزيا من قطاع الطرق يلى فى الاهمية عندى قاطع طريق ايطالى ، ولا يبزهما سوى قرصان من الشرق

ـ حسنا · مهما أكن فلا تنسى اننى زوجك ، بعد أن عقد قراننا منذ ساعة أمام جميع هؤلاء الشهود !

فقهقهت عاليا وقد تضرجت وجنتاها · واسترسـل مستر روشستر يقـول : « والآن جاء دورك يادنت ! » ·· وما ان انسحبت الثلة الاخرى حتى احتل روشستر وفرقته الاماكن الشاغرة · فجلست مس انجرام على يمين زعيمها ، بينما ملأ المتكهنـون الآخرون سائر المقاعد على جانبيهما · · ولم أعـد اذ ذاك أرقب الممثلين ، ولا عدت أنتظر رفع الستار فى لهفـة وشوق ، وانما استأثر المتفرجون بكل انتباهى ·· وأخـذت عيناى تنجذبان على الرغم منى ـ ودون ان أملك مقاومة ـ نحو المقاعد المصطفة فى نصـف الدائرة ، بعـد أن كانتا عالقتين بالقبو الذى يفصل بين القاعتين ·· بل اننى لم أعد أفقه أى

مشهد كان الكولونيل وفريقه يمثلونه ، ولا أية كلمة وقع عليها اختيارهم ، ولا كيف انطلقوا بعد ذلك ٠٠ ولكنني مازلت أسمع المشاورة التي كانت تعقب كل مشهد ، وأرى مستر روشستر وهو يستدير الى مس انجرام ، وأراها وهي تستدير له ، كما شاهدتها وهي تميل برأسها حتى تمس كتفه بجدائلها الفاحمة وتترك خصلاتها تتموج على وجنته !٠٠ والحق انني ما زلت أذكر حتى الآن بعض ماشعرت به في تلك اللحظة ازاء ذلك المنظر

ولقد أخبرتك - أيها القارئ - أنني تعلمت ان أحب مستر روشستر : لم يكن في وسعي أن لا أمضي في حبه لمجرد انني وجدته يكف عن الاهتمام بي ، أو لانني كنت أقضي ساعات في حضرته فلا يحول عينيه نحوي مرة واحدة ، أو لانني رأيت كل اهتمامه قد استحوذت عليه سيدة عظيمة تربأ أن يمسني طرف ثوبها أثناء مرورها ، وتبادر فتشيح بعينيها السوداوين عن وجهي ان اتفق أن وقعتا علي وكأنها كانت تحولهما عنشيء أحقر من أن يستأهل أية ملاحظة أو اهتمام !٠٠ نعم ، لم أقو على أن أكف عن حبه لمجرد انني تأكدت من انه لن يلبث ان يتزوج من هذه السيدة بالذات ، ولا لانني كنت أقرأ يوميا نواياه نحوها فيما كان يبدو عليها من اطمئنان متعجرف ، ولا لانني كنت أشهد منه نحوها في كل ساعة ضربا من التودد، يبدو فاترا ، ويرمي الى حملها على أن تجري هي وراءه ، الا انه كان في فتوره آسرا ، وفي عجرفته جارفا لا سبيل الى مقاومته !

* * *

• لم يكن في هذه الظروف مايخفف من وقدة الحب أو يقصيه ، بل كان فيها مايدعو لليأس والقنوط ٠ ولعل القارئ يرى في كثير من هذه الظروف مايثير الغيرة ، اذا كان فيوسع

امرأة فى مكانى أن تغار من امرأة فى مكان مس انجرام ،ولكنني لم أكن غيورا أو انني لم أشعر بالغيرة الا فيما ندر ، لان طبيعة الالم الذى كنت أقاسيه لا تنطوى على شيء من معنى هــذه الكلمة ٠٠ لقد كانت مس انجرام تحت مستوى الغيرة ، أي أضأل من ان تثير هذا الشعور ، ومعذرة لهذا القول الذى يبدو متناقضا في ظاهره ، فانني أعنى أن أقول : انها كانت رائعة في مظهرها ، ولكنه لم يكن مظهرا أصيلا غــير مجلوب ٠ وكانت حسناء ذات معلومات عديدة مشرقة ، ولكن عقلها كان خاويا بقدر ما كان قلبها مجدبا بطبيعته ، لاتتفتح فى تربته زهرة من تلقاء نفسها ، ولا تينع ثمرة الا عنوة واصطناعا ٠٠ **أجل، لم تكن طيبة النفس ، ولا صادقة فى مظهرها ، ولقد كانت تردد ما تقرأه فى الكتب من عبارات طنانة ، دون أن تعــرض رأيا أو تكون لها فكرة خاصة ، كماكانت تتظاهر بالاحساسات المرهفة دون أن تعرف كيف تعطف وتترفق لانهــا مجردة من الصدق والحنان** ٠ ولطالما كشفت عن هذه الحقيقة بمــا كانت تنفس به ـ دون داع ـ من كراهية حقود للصــغيرة أديل ، فكانت تدفعها بغلظة واحتقــار اذا اقتربت منهــا مصادفة ، بل انها كانت تطردها أحيانا من الحجرة وتعاملها على الدوام ببرود وخشونة ٠ وكانت عيون أخرى غير عينى ترقب هذه الظواهر الخلقية عن كثب وباهتمام ودقة ٠٠ نعم كان مستر روشستر ـ عريس المستقبل بالذات ـ يفرض رقابة مستمرة على العروس المزمعة ٠ ومن هذه الفطنة ، وهذا الحذر ، وهــذا الوعى منه لعيوب حسنائه ، كان ينبع الالم الذى راح يضنينى !٠٠ **فقد رأيت انه سوف يتزوجها لاعتبارات عائلية ، وربما لاســباب سياسية ، لان مركزها وعلاقاتها كانت تلائمه ، وشعرت بأنه لم يمنحها قلبه ، لان مؤهلاتها لم تكن جديرة بأن تفوز بهذا الكنز منه ٠ وكانت هذه هي النقطة !٠٠ النقطة التي مست الاعصاب**

وأثارتها .. النقطة التي أكدت الحمي وغذتها : أي انها لم تستطع ان تخلب لبه وتستهوى قلبه !

ولو انها وفقت الى الظفر فى الحال ، فخضع واستسلم لها ووضع قلبه عند قدميها ، لغطيت وجهى واستدرت الى الجدار، ولآثرت الموت - على سبيل المجاز - من أجلهما .. ولو ان مس انجرام كانت امرأة طيبة نبيلة ، وهبت القوة والحماسة والحنان والعقل ، لوجدتنى فى نضال مع نمرين : الغيرة والقنوط !.. كنت اذ ذاك لا أملك الا أن أعجب بها - ولو تمزق قلبى وتبدد - اعترافا بتفوقها ، ولقضيت بقية أيامى فى هدوء وسكينة .. وكلما زاد تفوقها المطلق ، تضاعف اعجابى بها وميلى للحياة الهادئة . أما وقد كانت الامور على ماذكرت ، فانَّ مشاهدة جهود مس انجرام لتفتن مستر روشستر ، ومشاهدة ماكانت تمنى به من فشل .. فشل لم تكن تفطن اليه ، وانما كانت تخال ان كل رمية كانت تصيب المرمى ، فكانت تزدهى مغترة بأنها نجحت ، فى حين ان كبرياءها واعتدادها بنفسها كانا يقصيان عنها الرجل الذى شاءت ان تقتنصه وتستهويه .. كانت مشاهدة هذا كله ، تسلمنى الى انفعال لاينقطع ، والى كبت لايرحم !.. **ذلك لاننى كنت أرى - عندما فشلت هى - كيف كان فى وسعها ان تنجح ، فان السهام التى كانت ترتطم بصدر مستر روشستر ثم تسقط عند قدميه دون ان تنال منه ، كانت خليقة بأن تهز قلبه المتكبر ، وان تبعث الحب فى نظراته العابسة ، وان تلين من وجهه الساخر ، لو ان اليدين اللتين أطلقتاها كانتا أبرع وأكثر ثباتا من يدى مس انجرام .. وأكثر من هذا ، ان غزو قلب مستر روشستر كان ميسورا دون ما أسلحة !**

ورحت أسائل نفسى : « لماذا لا تقوى على ان تكون أكثر تأثيرا عليه ، وقد تسنى لها ان تقترب منه الى هذا الحد ؟..

انها ولا شك لا تستطيع ان تحبه حبا صادقا ، ولا تستطيع ان توليه قلبا زاخرا بالحب ، واذن فلا حاجة بها الى رسم الابتسامات على شفتيها بهذا الاسراف ، ولا الى بذل نظراتها دون ما حساب ، ولا الى اصطناع هذه المظاهر البالغة الاتقان ، وهذه الرشاقة المتعددة الالوان .. وانما يخيل الى أنها تغدو أقرب الى فؤاده ، لو انها جلست ساكنة بجانبه ، واقتصدت فى كلماتها ونظراتها .. ولقد شاهدت فى وجهه آيات جد مختلفة عن هذا التجهم الذى يعلوه الآن ، وذلك عندما كانت تخاطبه فى مرح منبعث دون ما تكلف أو افتعال ، وصادر عن غير اصطناع وتزويق ومناورات مرسومة !.. انها لن تتكلف أكثر من تقبل المواقف على علاتها .. فتجيب - عندما يسألها - فى غير تظاهر ، وتخاطبه ، عندما تدعو الحاجة ، دون اصطناع الابتسام .. فمثل هذا المسلك لا يلبث ان ينمو ، ويزداد رقة ، ويملأ فؤاد المرء دفئا واشعاعا !.. ترى كيف سيتسنى لها ان ترضيه اذا ما أصبحا زوجين ؟.. ما أظنهما سيوفقان فى ذلك .. ولكن ، لابد من التوفيق .. ان فى وسع المرأة التى تتزوج منه ان تغدو أسعد الزوجات فى الدنيا ! »

★ ★ ★

• **اننى** لم أذكر حتى الآن أى شىء ينم عن استنكار لاعتزام مستر روشستر الزواج من أجل المصلحة وروابط النسب .. والحق اننى دهشت عندما اكتشفت ان تلك كانت نيته ، لاننى كنت أظنه رجلا لا يتأثر بمثل هذه العوامل المستهجنة فى اختيار زوجته . على اننى كنت كلما أمعنت التفكير فى مركزيهما وتعليمهما وما الى ذلك ، أزداد شعورا بأننى غير محقة فى الحكم عليه أو على مس انجرام ولومهما على اقدامهما على التصرف وفقا لآراء ومبادىء غرست - ولابد - فى نفسيهما منذ الطفولة .. كانت كل طبقتهما تدين بهذه المبادىء ، وأعتقد انها تتشبث

بها لاسباب من نوع لا أملك ان أتصوره ٠٠ وخيل الى اننى لو كنت سيدا مثله ، ماضممت الى صدرى سوى امرأة أستطيع ان أحبها ٠ ولكن وضـوح الميزات التى يجـد فيها الزوج سعادته الشخصية من وراء هذا الرأى أقنعنى بأنه لابد هناك من حجج وبراهين أجهلها ، تصد عن الأخذ به ، والا لعمل الناس بمثل ما أريد ٠ على انني ما لبثت ان بدأت أزداد تسامحا مع مخدومى فى نقاط أخرى ، كما فعلت فى هذه النقطة ، فتناسيت العيوب التى كنت أحصيها عليه ٠ فقد كنت ـ من قبل ـ أحاول ان أدرس أخلاقه من كل النواحى ـ الطيبة والخبيثة ـ لازنهـا وأصدر عليها حكما عادلا ، ولكنى الآن لم أعد أجد فيهـا ماهو خبيث على الاطلاق ٠ وغدت روح التهكم التى كانت تنفرنى ، وروح الجفاء التى كانت يوما ما تروعنى ، أشبه فقط بتوابل حريفة فى طبق شهى ، وجودها لاذع ولكن غيابها يجعل الطبق «ماسخا» غير مستساغ !٠٠ أما ذلك الشىء المبهم الذى لم أكن أدرى أكان يعبر عن شر أم عن أسى ، وعن عزم أم عن قنوط ، والذى لم يكن يلمحه سوى الرقيب المتفرس ، اذ كان يومض فى عينيه من وقت لآخر ثم يختفى قبل ان يسبر المرء مايكشف عنه من أغوار ٠٠ ذلك الشىء الذى كان يجعلنى أوجس وانكمش وكأننى أتخبط بين تلال بركانية ، وأشـعر بالارض ترتجف وتفغر أفواهها ٠٠ ذلك الشىء ، ظللت أراه من حين الى آخر بقلب واجف ، ولكن دون أن تشل أعصابى ٠ وبدلا من أن أجفل منه ، أصبحت أتلهف عليه وأتكهن به ، وخلت أن مس انجرام سعيدة لانها قد تصل يوما الى أعماق تلك الاغـوار السحيقة ـ الكامنة وراء عينيه ـ فتكشف على مهل عن أسرارهـا وتحلل طبيعتها ٠٠ وفيمـا كنت أقصر تفكيرى عليه وعلى سـيدتى وعروسه المستقبلة ـ لا أرى غيرهما ولا أسمع سوى حديثهما ولا أحفل بغير حركاتهما ـ كان بقيـة المدعوين منهمكين فى

شئونهم الخاصة ومسراتهم . فكانت السيدتان لين وانجرام مسترسلتين فى حديثهما الهادىء ، وهما تتبادلان الايماءات بعمامتيهما ، وترفعان أيديهما الاربع عندما تعبران عن الدهش أو عن سر غامض أو فزع ، تبعا لما كان يتخلل الحديث ، وتجرى به الثرثرة ، وكأنهما دميتان مكبرتان !.. أما مسز دنت الوادعة فكانت تتحدث مع مسز ايشتون الطيبة القلب ، وكانتا - فى بعض الاحيان - تمنحاننى كلمة مجاملة أو ابتسامة ملاطفة ، بينما كان السير جورج لين والكولونيل دنت ومستر ايشتون يتناقشون فى الامور السياسية أو شئون المقاطعة أو العدالة ، فى حين كان اللورد انجرام يغازل آمى ايشتون ، ولويزا تعزف وتغنى مع أو لاحد ولدى السيد جورج لين .. وكانت مارى انجرام تصغى فاترة الى حديث الابن الآخر . وكان الجميع يتفقون - أحيانا - على أن يكفوا عن ألعابهم ولهوهم ، ليراقبوا ويصغوا الى الممثلين الرئيسيين . على أن مستر روشستر ومس انجرام - الوثيقة الارتباط به - كانا روح الزمرة .. وكان اذا تغيب هو عن الحجرة ساعة واحدة ، جثم الوجوم على نفوس الضيوف ، فاذا عاد ، ارتدت للاحاديث نشوتها ودبت فيها الحياة

وقد تجلت الحاجة ملحة الى تأثيره المنعش ، عندما دعى ذات يوم الى (ميلكوت) فى بعض الاعمال ، ولم يكن من المرتقب ان يعود الا فى ساعة متأخرة .. وكان الاصيل ممطرا . وكان من المتفق عليه ان يذهب المدعوون على الاقدام للتفرج على احدى خيام الغجر التى أقيمت حديثا على كثب من قرية (هاى) ، فرؤى العدول عن هذا المقترح ، ومضى بعض الرجال الى حظائر الخيل ، وصعد الشبان والشابات الى غرفة البليارد ، وجلست الليدى انجرام تلعب الورق مع الليدى لين ، بينما رفضت بلانش انجرام كل محاولة بذلتها مسز دنت ومسز ايشتون

لتحملاها على مبادلتهما الحديث ، ثم عزفت على البيانو بعض ألحان عاطفية ولكنها ما لبثت ان جاءت من المكتبة برواية ، وألقت بنفسها على أريكة لعل سحر القصة يلهيها عن السأم الذى استشعرته فى غياب زميلها • وكانت الغرفة والقصر يرزحان تحت وطأة السكون ، فيما عدا أصوات طروب تنبعث من حين الى آخر من غرفة البليارد

★ ★ ★

• **وتهادى** الغسق • ودقت الساعة تنبه الى أن الوقت قد حان لارتداء ثياب العشاء ، واذا بأديل تصيح فجأة وهى جاثية بجانبى على قاعدة النافذة بحجرة الاستقبال : « ها هو ذا مستر روشستر قد عاد ! » •• فاستدرت ، واندفعت مس انجرام من



أريكتها • واشرأبت كذلك أعناق الآخرين من حيث كانوا يجلسون ، عندما سمعت جلجلة عجلات ووقع حوافر جياد على الطريق المغمورة بالمياه •• ثم اقتربت عربة للبريد فقالت مس انجرام : « ماذا جعله يعود بهذه الوسيلة ؟! •• لقد كان يركب جواده الاسود (مسرور) عندما رحل • أليس كذلك ؟ وكان معه بايلوت •• فماذا فعل بالحيوانين ؟ »

وتقدمت ـ وهي تقول ذلك ـ نحو النافذة بقامتها الفارعة وثيابها الطويلة ، مما اضطرني الى الانحناء حتى كاد ظهري أن ينقصم . وكانت شدة لهفتها قد حالت دون أن تراني ، فلما أحست وجودي زمت شـفتيها واتجهت الى نافذة أخرى .

وتوقفت عربة البريد ودق السائق جرس الباب ثم هبط سيد يرتدي بزة السفر ولكنه لم يكن مستر روشستر وانما كان رجلا غريبا طويل القامة متأنقا ، فصاحت مس انجرام في وجه أديل : « كم تغيظينني أيتهـا القردة المتعبة ! من حملك الى النافذة لتعطي أنباء كاذبة ؟ » .. ثم ألقت على نظرة غاضبة ، كما لو كانت الغلطة غلطتي

وسمع حديث فى البهو ثم ظهر القادم الجديد على الفور ، فانحنى لليدى انجرام باعتبارها أكبر السيدات الحـاضرات سنا ثم قال : « يبدو اننى جئت فى وقت غير ملائم ياسيدتى ، لان مستر روشستر متغيب عن المنزل ، ولكنى وصلت من رحلة طويلة جدا ، ولى من سابق معرفتى الوطيدة به مايجعلنى أبقى هنا حتى يعود ! » .. وكان مهذبا فى كلامه ، وان بدا لى فى لهجته شىء غير عادى .. لم تكن لهجة أجنبية تماما ، ولكنها مع ذلك لم تكن انجليـزية ! .. ولعـله كان فى سـن مستر روشستر تقريبا ـ بين الثـلاثين والاربعين ـ وكانت بشرته شاحبة اللون . وفيما عدا ذلك كان جميل الوجه لاسيما عندما يقع عليه البصر لاول مرة ، ولكنك اذا أنعمت النظر اليـه ، اكتشفت شيئا فى وجهه لا يروق ، أو بالاحرى يخفق فى ان يروق للعين . كانت أساريره منتظمة ولكنها شديدة الارتخاء . وكانت عيناه واسعتين جميلتين ، ولكن الحياة التى كانت تلوح فيهما كانت خاملة خاوية .. أو هذا على الاقل ماخيل الى !

ودوى جرس ارتداء الملابس فانتثرت الجماعة . ولم أر ذلك الضيف الجديد الا بعد العشاء ، فبدا مطمئنا وادعا ، بيد اننى

ازددت عدم ارتياح الى أساريره ، فقد خيل الى أنه فى الوقت ذاته كان غير متزن ، بل كان جامدا ، خاليا من الحياة ٠٠ كانت عيناه تجولان دون أن يبدو فى تجوالهما أى معنى ، مما أكسبه شكلا غريبا لم أر له مثيلا من قبل ٠٠ **وكان مليحا ، وليس فى مظهره مايصد عن الميل اليه ، ولكنه أثار نفورى الى درجة كبيرة ، اذ لم يكن فى وجهه الناعم البشرة ، ذى الشكل البيضاوى ، شىء من القوة ٠٠ ولا فى أنفه الحاد وفمه الدقيق أى حزم ٠٠ ولم يكن يبدو على شىء من أساريره ـ حتى جبينه المنخفض ، الضيق ـ ماينم عن أى تفكير ٠٠ كما لم يكن فى تلك العين العسلية الخالية من التعبير ، أى مظهر لقوة الشخصية وللسلطان !**

وأخذت ـ وأنا جالسة فى ركنى ـ أتأمل الرجل فى ضوء الثريا الموضوعة على حافة الموقد ، وقد تسلط على وجهه ، اذ كان يشغل مقعدا كبيرا بجوار المدفأة ولا يفتأ يقترب منها بين لحظة وأخرى وكأنه كان يشعر ببرد ٠ ثم أخذت أقارن بينه وبين مستر روشستر ، وأعتقد ـ مع الاحترام ـ أن الفارق بينهما لم يكن يعدو مابين ذكر الوز الهزيل وبين الباز الجارح ، أو بين الخروف وبين الكلب الكث الشعر الحاد العينين الذى يحرسه ! ٠٠ ولقد ذكر مستر روشستر كصديق قديم له ، ولابد انها كانت صداقة عجيبة ، تقوم صورة حية للمثل القديم عن اجتماع النقيضين !٠٠ وكان يجلس بالقرب منه اثنان أو ثلاثة من السادة ، فتناهت الى أذنى ـ عبر الحجرة ـ نتف من محادثتهم ، ولم أستطع فى أول الامر ان أتبين معنى لما كنت أسمعه ، لأن الجدال بين مارى انجرام ولويزا ايشتون ـ وكانتا أقرب منهم الى ـ غطى على حديثهم ٠٠ وكانتا تتحدثان عن الضيف الجديد ، فوصفته كلتاهما بأنه « رجل جميل » ، وقالت لويزا انه « مخلوق محبوب » ، و « انها شديدة الاعجاب

به » ، كما تحدثت مارى عن « فمه الصغير الجميل ، وأنفه البديع » ، وكأنه مثلها الاعلى للفتنة ٠ وصاحت لويزا : « يا لجبينه الذى ينطق بطيبة الخلق !٠٠ انه أملس جدا ،خال من التجاعيد غير المنتظمة التى أمقتها كثيرا !٠٠ ويا لنظرته الوادعة ، وابتسامته الهادئة ! »

وما لبث مستر هنرى ان دعاهما ـ لارتياحى ـ الى الجانب الاخر من الحجرة ، للبت فى أمر خاص بالنزهة ـ التى ارجئت ـ الى (هاى) ٠ واذ ذاك استطعت ان أركز انتباهى على الرجال الجالسين بجوار الموقد ، وسرعان ما اكتشفت ان الزائر الجديد يدعى مستر « ميسون » ، وأنه قادم لتوه الى انجلترا من احدى البلاد الحارة ، مما كان السبب ـ ولا شك ـ فى سمرته وجلوسه الجد قريب من المدفأة ، وارتدائه المعطف فى البيت ٠

وما لبث ذكره لكلمات : جمايكا ، وكينجستون ، وسبانيش تاون ، أن نم عن انه كان يقيم فى جزر الهند الغربية ، كما اكتشفت لدهشتى أنه قد التقى لاول مرة بمستر روشستر فى تلك الجزر ! وتحدث عن كراهية صديقه للحرارة الشديدة ، والعواصف والفصول الممطرة فى ذلك الاقليم ٠٠ وكنت أعلم أن مستر روشستر رحالة ـ كما سمعت من مسز فيرفاكس ـ ولكننى لم أكن أعتقد ان أسفاره قد تجاوزت أوروبا ولم أسمع حتى الآن مايشير الى أنه سافر الى بلاد نائية !

★ ★ ★

◆ **وفيما** كنت أسرح الفكر فى هذه الاشياء ، وقع حادث لم يكن فى الحسبان قطع حبل تأملاتى ٠٠ فقد اتفق ان فتح أحد الخدم الباب ، فطلب منه مستر ميسون ـ وهو يرتعد ـ أن يجىء بمزيد من الفحم يلقيه فى النار التى كانت قد خمدت ٠ وعندما جاء الخادم بالفحم وهم بالخروج ، توقف بالقرب من مقعد مستر ايشتون ، وأسر اليه ببعض كلمات لم أسمع منها

سوى « امرأة عجوز » و « متعبة جدا » ۰ وأجابه مستر ايشتون (القاضى) : « قل لهـا أن ترحل والا أمرت بارسـالها الى السجن ! » ۰۰ فتدخل الكولونيل دنت قائلا : « كلا ۰۰ قف! ۰۰ لا تطردها يا آيشتون فقد نستفيد من الامر ۰۰ الافضل أن نستشير السيدات »

ثم التفت اليهن وقال بصوت مرتفع : « لقـد تحدثتن عن الذهاب الى قرية (هاى) لزيارة خيام الغجر ، ولكن ها هو ذا «سام» يقول ان احدى العجائز الغجريات هنا فى غرفة الخدم ، وتلح فى المثول أمام السادة ، لتكشف لهم عن حظهم ، فهـل ترغبن فى مقابلتها ؟ » ۰۰ فصـاحت الليدى انجرام : « انك بلا شك لن ترضى بتشجيع هذه المحتالة الدنيئة ۰ اطردها فى الحال بأية وسـيلة ! » ۰۰ فقال الخادم : « ولكننى لا أستطيع حملها على الانصراف ياسيدتى ۰۰ ولا أحد من الخدم يقدر ۰ ان مسز فيرفاكس معها الآن ، تضرع اليها أن ترحل ، ولكنها جلست على مقعد فى ركن من الغرفة ، وقالت ان لن يستطيع شىء أن يزحزحها من مكانها ما لم يؤذن لها فى الحضـور الى هنا ! »

فسألت مسز ايشتون : « وما الذى تريده ؟ »

ـ ان تنبىء السادة بحظوظهم ۰۰ وهى تقسم على أنها يجب أن تفعل ذلك ، وانها ستفعله

فقالت ابنتا مسز ايشتون فى وقت واحد : « وما شكلها ؟ »

ـ مخلوقة شـمطاء ، تذهل اللب بدمامتها يا آنسـة !۰۰ سوداء كالسناج !

فصاح فردريك لين : « اذن فهى ساحرة حقيقية !۰۰ دعوها تدخل بطبيعة الحال ! » ۰۰ وقال أخـوه : « الحق انه من دواعى الآسف الشديد ان نطرح عنا مثل هذه الفرصة للمزاح» ۰۰ فصاحت مسز لين : « فيم تفكران ياولدى العزيزين ! »

٠٠ وقالت ليدى انجرام تقلدها : « لايمكن ان أقبل الالحاح فى مثل هذا العمل » ٠ وقالت بلانش المتعـالية وهى تدور بكرسيها أمام البيانو : « حقا يا أماه ٠٠ بل انت تستطيعين ! ٠٠ اننى أتلهف عـلى معرفة مستقبلى ٠٠ مر المرأة ياسـام بالدخول »

ـ تذكرى ياعزيزتى بلانش ٠٠٠

ـ اننى أتذكر كل ماتريدين ولكن ارادتى يجب ان تنفذ ٠ اسرع ياسام !

وعندئذ صاح الشباب من السيدات والسادة : « نعم ٠٠ نعم ٠٠ نعم ! دعها تدخل ٠٠ ستكون تسلية طريفة » ٠٠ولكن الخادم تلكأ ثم قال : « انهـا تبدو غاية فى الفظاظة ! » ٠٠ فصرخت فيه مس انجرام : « اذهب ! » ٠٠ فمضى الرجل ٠ واشتد هرج الجماعة على التو ، وقد سرت فيهـم حمى الفكاهة والنكات ، الى أن عاد « سام » يقول : « انها الآن ترفض المجىء وتقول ان ليس من مهمتها ان تظهر أمام « قطيع مبتذل » ـفهذا نص تعبيرها ـ بل لابد من ان أدخلهـا منفردة الى احـدى الحجرات ، وعلى الذين يرغبون فى استشارتها أن يذهبوا اليها فرادى ! »

فقالت الليدى انجرام : « ها قد رأيت يا ابنتى الجليلةانها تجاوزت حدودها ٠٠ اصغى الى نصيحتى يا (ملاكى) و ٠٠ »٠ فقاطعتها « ملاكها » قائلة للخادم : « ادخلها الى المكتبة لاننى أيضاً لا أريد ان أصغى اليها أمام « القطيع المبتذل » ، بل يجب أن أخلو بها ٠ هل بالمكتبة مدفأة ؟ »

ـ نعم ياسيدتى ولكن يبدو انها ثرثارة !

ـ كفى ثرثرة أنت يا أحمق ، واصدع بأمرى !

ثم اختفى سام مرة أخرى، فعاد الغموض والانتعاش والترقب الى الذروة ٠٠ وعاد الخادم يقول : « انها الآن على استعداد

وتريد أن تعرف من ستكون أولى زائراتها » .. فقال الكولونيل: « أرى انه يحسن ان ألقى عليها نظرة قبل ان تذهب اليها احدى السيدات . قل لها ياسام اننى قادم »

فمضى سام ولكنه رجع يقول : « انها تقول ياسيدى انها لن تقابل أيا من السادة ، وأن لا حاجة تدعوهم الى ازعاج أنفسهم بالاقتراب منها » . ثم أردف يقول وهو يجاهد فى حبس ضحكة تكاد تنفجر : « وهى لاتريد كذلك أى سيدات ولا تقبل الا من كانت شابة ولم تتزوج بعد ! »

فصاح هنرى لين : « والله انها حسنة الذوق ! »

وقامت مس انجرام فى وقار ثم قالت بلهجة القائد المقبل على مخاطرة : « لسوف أكون الاولى فى الذهاب » .. فصاحت أمها : « أواه ياحبيبتى ! .. قفى ياعزيزتى .. فكرى ! » .. ولكن الفتاة مرت من أمامها فى صمت شامخ واجتازت الباب الذى فتحه الكولونيل ثم سمعناها تدخل المكتبة . وأعقب ذلك سكون نسبى .. وقنعت الليدى انجرام من الامر بدق يديها يأسا وقنوطا ، بينما صرحت مس مارى بأنها ـ من ناحيتها ـ لا تجرؤ على مثل هذه المغامرة ، فى حين تضاحكت آمى ولويزا ايشتون فى خفوت ، وان تجلى عليهما بعض الهلع

وانقضت الدقائق بطيئة كل البطء .. واكتملت خمس عشرة دقيقة قبل ان يفتح باب المكتبة ، وتعود الينا مس انجرام خلال القبو .. ترى هل ستضحك ؟ .. هل ستأخذ الامر على انه دعابة ؟ .. واستقبلتها العيون جميعا بنظرة فضول مشبوبة ، فقابلت الفتاة كل العيون بنظرة صدود وبرود ! ولم تكن تبدو مستاءة ، ولا مرحة .. بل مضت الى مقعدها بخطوات ثقيلة ، ثم جلست عليه فى صمت وسكون . وعندئذ سألها اللورد انجرام : « حسنا يا بلانش ؟ » .. وسألتها مارى : « ماذا قالت لك يا أختاه ؟ » .. وقالت لويزا وآمى ايشتون :

« ماذا ترين ؟ بم تشعرين ؟ هل هى حقيقة عرافة ؟ »

فأجابتهم مس انجرام : « على رسلكم ياناس !٠٠لاترهقونى بالالحاح ٠ من السهل ان يثور العجب والشك فى نفوسكم ، بل يخيل الى من اهتمامكم الذى تعلقونه جميعا ـ بما فيكم والدتى ـ على هذا الامر ، انكم تعتقدون اعتقادا مطلقا بأن لدينا ساحرة حقيقية ٠ لقد شاهدت الآن نورية من الاوغاد الرحل، مارست علم قراءة الكف فأخبرتنى بمثل ما يقوله أمثالها عادة، وبذلك أكون قد أشبعت نزوتى ٠ ولعله من الخير ان يرسل مستر ايشتون هذه الشمطاء الى السجن فى صباح الغد ، كما كان يتوعد »

ثم تناولت كتابا واضطجعت فى مقعدها زاهدة فى أى مزيد من الحديث ٠ وراقبتها حوالى نصف ساعة ، فلم أرها تطوى صفحة واحدة من الكتاب الذى كانت تحمله فى يدهـا ، بل رأيت وجهها يزداد اكفهرارا فى كل لحظة ، وتتبدى عليه أمارات الامتعاض وخيبة الامل ، فأدركت تماما انها لم تسمع كلمة مواتية ، وخيل الى ـ من طول اكتئابها واخلادها الى الصمت ـ أنها تعلق أهمية كبيرة ، لا مبرر لها ، على ماقيل لها على الرغم من تظاهرها بعدم الاكتراث ٠٠ وفى تلك الاثناء صرحت مارى انجرام وآمى ولويزا ايشتون أنهن لايجرؤن على الذهاب منفردات رغم تلهفهن على الذهاب ، فجرت مفاوضات على يدى الوسيط « سام » ، انتهت بعد عنـاء بأن سمحت العرافة لهن بالظهور أمامها معا ٠ ولم تكن زيارتهن سـاكنة كزيارة مس انجرام ، اذ سمعنا ضحكاتهن الهستيرية ، وبعض صيحات تنبعث من المكتبة ٠٠ وأخيرا ـ بعد نحو عشرين دقيقة ـ فتحن الباب على مصراعيه بعنف ، وجئن يجرين عبر البهو كأنما مسهن الخبل ، كل منهن تصيح ، فى وقت واحـد : « اننى واثقة من انها ليست من البشر !٠٠ يا للاشـياء التى حدثتنا عنها !٠٠ انها تعرف عنا كل شىء ! »

ثم غصن لاهثات فى المقاعد التى أسرع الرجال يقدمونها اليهن . ولما ألح الباقون عليهن فى طلب المزيد من الايضاح ، صرحن بأن المرأة أخبرتهن بأمور قلنها وفعلنها وهن أطفال ، كما وصفت الكتب وأدوات الزينة التى كانت لديهن فى مخادعهن الخاصة ، ووصفت الهدايا التى قدمها اليهن الاقارب . وأكدن أنها قرأت ماكان يدور فى رؤوسهن وانها همست فى أذن كل منهن باسم الشخص الذى تميل اليه كل الميل ، وأخبرتهن بما تتوق اليه نفس كل منهن !.. وهنا تدخل الرجال متوسلين أن يزدن النقطتين الاخيرتين ايضاحا ولكنهم لم يلقوا منهن سوى تضرج الوجنات بحمرة الخفر والحياء وبعض صيحات واختلاجات وضحكات !.. وفى تلك الاثناء قدمت غير الشابات روح النوشادر والمراوح للفتيات ، دليلا على ما يساورهن من قلق ، لان ما قدمنه لهن من تحذير لم يعمل به فى الوقت المناسب !.. بينما قهقه الشيوخ من السادة وتطوع الشبان بعرض خدماتهم على الحسناوات الحائرات المنفعلات !

وفى غمرة ذلك الهرج والمرج ، وفيما كانت عيناى وأذناى منصرفة الى ذلك المشهد تماما ، سمعت نحنحة عند مرفقى ، فاستدرت ورأيت سام الذى خاطبنى قائلا : « معذرة يا آنسة فان الغجرية تقول انه لاتزال بالحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب اليها بعد ، وتقسم ألا تذهب حتى تراها . وأظنها تعنيك اذ لم تعد هناك غيرك ، فماذا أقول لها ؟ »

فأجبته : « أوه .. سأذهب من غير شك ! »

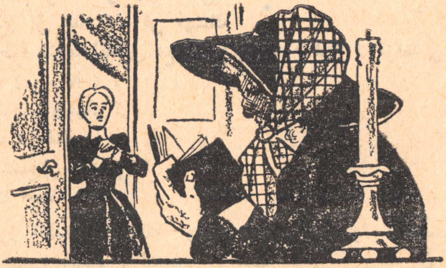
وفرحت بفرصة لم أكن أتوقعها لاشباع الفضول الذى كان يضطرم فى نفسى ، فتسللت من الحجرة دون أن ترانى عين ، لان الجميع كانوا ملتفين حول الثلاث المرتجفات العائدات لتوهن من لدى العرافة ، ثم أغلقت خلفى الباب فى هدوء . وقال سام:

« اذا شئت ياسيدتى أنتظرتك فى الردهة ، واذا أفزعتك ناديني فادخل على الفور »

ـ كلا ياسام • عد الى المطبخ فلست خائفة بحال !

والواقع انني لم أكن خائفة ولكنى كنت شديدة الاغتباط واللهفة

الفصل التاسع عشر



◆ بدت المكتبة تسبح فى الهدوء عندما دخلتها • وكانت العرافة ـ اذا كانت تلك المرأة عرافة ـ مضطجعة فى مقعد مريح ، عند ركن المدفأة ، وقد ارتدت عباءة حمراء وقلنسوة سوداء ، أو بالاحرى قبعة من قبعات الغجر العريضة الحافة ، شدت بمنديل مخطط الى ماتحت ذقنها • وكانت على المنضدة شمعة مطفأة فانحنت العرافة فوق النار تقرأ على وهجها فى كتاب صغير أسود ككتاب الصلاة • وكانت تغمغم لنفسها بالكلمات شأن العجائز عندما يقرأن • ولم تكف عن المطالعة فور دخولى ، وكأنما كانت ترغب فى الانتهاء من احدى الفقرات

ووقفت فوق السجادة أدفىء يدى اللتين بردتا لجلوسى الطويل بعيدا عن المدفأة فى حجرة الاستقبال •• وشعرت اذ ذاك برباطة الجأش كعادتى دائما فى الحياة ، اذ لم أجد فى الحقيقة شيئا فى مظهر الغجرية يزعزع الهدوء والسكينة • وما لبثت أن طوت كتابها ، ورفعت عينيها الى ببطء • وكانت

حافة قبعتها تظلل جزءا من وجهها ، ولكنى استطعت أن أراه عندما رفعته ، فاذا به وجه غريب ، تتناوب فيه السمرة والسواد ، وقد برزت بعض خصلات من شعر خشن أشعث ، من تحت عصابة بيضاء امتدت الى ماتحت ذقنها ، مغطية أكثر من نصف خديها ، وفكيها ·· ورمقتني عينها على الفور بنظرة جريئة ، مسددة ، ثم قالت بصوت يماثل نظرتها جرأة ، ويشبه أساريرها خشونة : « حسنا ·· أفتودين اذن ان تسمعى طالعك ؟ »

- لايهمنى ذلك كثيرا يا أماه ! أنت وشأنك ! ولكنى أنبهك الى اننى لا أومن بذلك !

- ان قولك هذا يماثل جرأتك التى توقعتها منك وسمعتها فى خطوك وانت تعبرين عتبة الباب

- حقا ؟ انك حادة السمع

- نعم وحادة البصر ·· وحادة الذهن !

- انك تحتاجين الى هذا كله فى مهنتك

- فعلا ، وخاصة عندما أتعامل مع زبائن مثلك · لماذا لا ترتعدين ؟

- لاننى لست (بردانة) !

- ولماذا لم يشحب وجهك ؟

- لاننى لست مريضة

- ولماذا لاتستشيرين حرفتى ؟

- لاننى لست حمقاء !

فأطلقت العجوز الشمطاء ضحكة توارت تحت القلنسوة والعصابة ، ثم أخرجت غليونا قصيرا اسود ، أشعلته وأخذت تدخن · وبعد أن نعمت فترة بذلك « المهدىء » لاعصابها ، رفعت ظهرها المقوس ، وانتزعت الغليون من بين شفتيها ، ثم قالت فى ترو بالغ وهى تحملق فى النيران : « انت بردانة ·· أنت مريضة ·· أنت حمقاء ! » ·· فقلت : « برهنى على ذلك »

- سأفعل فى ايجاز ·· انك تشعرين بالبرد لانك وحيدة لايشعل نيرانك الكامنة احتكاك ·· وأنت مريضة لان أسمى وأحلى مايوهب من المشاعر للرجال ، ينأى عنك ويبتعد ·· وأنت حمقاء لانك برغم ماتقاسين لاتشيرين اليه ليقترب منك ، ولا تتقدمين نحوه خطوة واحدة لتلتقى به حيث يترقبك !

ثم أعادت غليونها القصير الاسود الى شفتيها وراحت تدخن من جديد ، بشدة ونهم ، فقلت : « فى وسعك أن تقولى هذا لكل انسان تقريبا ، مادمت تعلمين أنه يحيا وحيدا وعالة فى قصر كبير »

- فى وسعى حقا أن أقوله لكل انسان تقريبا ، ولكن هل هو يصدق على الجميع ؟

ـ اذا كانوا فى ظروفى

ـ نعم .. هذا صحيح .. فى ظروفك ، ولكن آتينى بانسان آخر له مثل ظروفك تماما

ـ من السهل أن آتيك بالآلاف

ـ يصعب ان تجدى مثلا واحدا . ولعلك تعلمن أنك شاذة فى موقفك : انك قريبة جدا من السعادة .. انها فى متناولك ، وكل المواد اللازمة لها مهيأة ، لا تحتاج الا الى حركة تلمها وتجمعها ، لأن المصادفة فرقت بينها قليلا .. ولو انك قربت بينها مرة ، لانتجت الهناء !

ـ أنا لا أفهم الاحاجى ، ولم أستطع فى حياتى حل لغز واحد

ـ اذا أردتنى على أن أكلمك بمزيد من الوضوح ، فأرنى كفك

ـ أظن من اللازم أن « أرمى بياضى » ؟

قالت : « بالتأكيد ! »

★ ★ ★

◆ وأعطيتها شلنا وضعته فى جورب قديم ـ أخرجته من جيبها ثم طوته وأعادته الى مكانه ـ قبل أن تطلب منى ان أبسط لها يدى ، فلما فعلت ، اقتربت بوجهها من كفى ، ونظرت اليها مليا دون أن تمسها ثم قالت : « انها كف بضة جدا ، لايمكن أن أستبين فيها شيئا ، لانها خالية من الخطوط ، ومع ذلك فماذا فى الكف ؟.. ان المصير لايكتب فيها ! » .. فقلت : « اننى أصدقك فى هذا » .. ولكنها استمرت فى حديثها قائلة : « كلا .. انه مسطر فى الوجه : على الجبين ، حول العينين ، فى العينين ذاتهما ، فى خطوط الفم .. اركعى وارفعى رأسك ! » .. فقلت وأنا أطاوعها : « آه . انك بدأت تهتدين الى الحقيقة ، ولذلك سأمنحك بعض ثقتى مؤقتا ! »

ثم جثوت على بعد نصف ياردة منها ، فحركت نيران الموقد الى أن تألقت قطعة من الفحم فأرسلت وهجا ألقى على وجهها ـ وهى فى جلستها ـ ظلالا أشد ظلمة وقتاما ، بينما أضاء وجهى .. ثم تفحصتنى قليلا ، وقالت : « اننى لاتساءل : بأى شعور جئتنى ، وأية أفكار كانت تساورك أثناء الساعات الطويلة التى قضيتها جالسة فى تلك الحجرة مع أولئك الاغنياء ، وهم يتحركون أمامك كأطياف تنبعث من فانوس سحرى ، ولا يكاد يدور بينك وبينهم حديث ودى ، وكأنهم أطياف فى أشكال بشرية ، وليسوا اجسادا حقيقية »

ـ اننى كثيرا ما أشعر بالتعب ، وأحس أحيانا بميل الى النوم ، ولكنى قلما أشعر بالحزن

ـ اذن ، فهل يراودك أمل خفى يرفعك ويسعدك بما يهمس اليك عن المستقبل ؟

– كلا ‥ ان أقصى أمل يراودنى أن أدخر من مرتبى مايكفى لانشاء مدرسة فى بيت صغير أستأجره لنفسى

– انه لغذاء روحى تافه لايقيم أودا !‥ ثم ان جلوسك على قاعدة تلك النافذة ‥ ألا ترين اننى أعرف عاداتك ؟

– لقد عرفتها من الخدم

– آه !‥ انك تحسبين نفسك لبيبة حاذقة ٠ حسنا ‥ ربما كان الامر كذلك ‥ واذا شئت الحق ، فاننى قد تعرفت الى واحدة من الخدم ‥ مسز بول

★ ★ ★

◆ ووثبت واقفة اذ سمعت هذا الاسم ، وأنا أقول فى نفسى : « هل تعرفت اليها ؟‥ اذن ففى الامر مكيدة ، رغم كل شىء » ‥ على أن المخلوقة العجيبة استرسلت فى حديثها قائلة :

– لا تروعى ‥ انها مأمونة الجانب ‥ ان مسز بول امينة وهادئة وفى وسع المرء ان يوليها ثقته ٠ ولكنى أعود فأقول : عندما تجلسين على قاعدة النافذة ، أما كنت تفكرين فى غير مدرستك المرجوة ؟‥ أليس لك اهتمام خاص بواحد من الذين يحتلون الارائك والمقاعد أمامك ؟‥ أليس هناك وجه تدرسينه ، أو شخص تتابعين حركاته بشىء من الفضول ؟

– اننى أحب ان ألاحظ كل الوجوه وكل الاشخاص

– ولكن ، ألا تخصين واحدا دون الآخرين ‥ أو ربما اثنين ؟

– أفعل ذلك كثيرا ‥ عندما يبدو لى ان حركات اثنين أو نظراتهما توحى بقصة ‥ فاذ ذاك يسلينى أن أرقبهما

– وأية قصة تؤثرين سماعها ؟

– أوه ‥ ليس هناك مجال للاختيار ، فكل القصص عادة تدور حول موضوع واحد : مطارحة غرامية ثم وعد ينتهى بنفس الكارثة ‥ وهى الزواج !

– وهل يروق لك هذا الموضوع المتكرر الممل ؟

– اننى فى الواقع لا أحفل به ، لانه لايهمنى

– لايهمك ؟ اذا جلست شابة زاخرة بالصحة والحياة والجمال الفاتن والثروة والجاه ‥ وراحت تبتسم فى وجه سيد ، أنت ٠٠٠

– أنا ماذا ؟

– أنت تعرفينه ‥ وربما كنت تكثرين من التفكير فيه

– أنا لا أعرف السادة هنا ، وقلما تبادلت حرفا مع واحد منهم ‥ أما عن التفكير فيهم ، فانه لا يتجاوز اننى أرى بعضهم جديرين بالاحترام – فهم سادة مهيبون ، فى أوسط العمر – وأرى البعض الآخر شبانا جريئين على

جانب كبير من الجمال والحيوية والنشاط ، ولكن ، ما من ريب فى ان لهؤلاء جميعا كل الحرية فى أن يتلقوا ما يرضيهم من الابتسامات دون ان أشعر بأن الامر يهمنى فى كثير أو قليل !

ـ اذن فأنت لاتعرفين السادة هنا ؟ ولم تتبادلى حرفا مع واحد منهم ؟٠٠ أتقولين هذا عن سيد البيت ؟

ـ انه ليس فى البيت

ـ ملاحظة عميقة الغور ، ومغالطة بارعة ! لقد ذهب الى (ميلكوت) فى هذا الصباح وسيعود الليلة أو غدا ، فهل يقصيه هذا الظرف عن قائمة معارفك ويمسحه من الوجود ؟

ـ كلا ، ولكننى لا أرى أية علاقة لمستر روشستر بالموضوع الذى قدمته !

ـ كنت أتحدث عن السيدات اللائى يبتسمن فى عيون السادة ٠ ولقد انسكبت أخيرا ابتسامات لا حصر لها فى عينى مستر روشستر ، حتى فاضتا كوعائين اترعتا حتى الحافة ٠ ألم تلحظى ذلك ؟

ـ لمستر روشستر كل الحق فى أن يتمتع بصحبة ضيوفه

ـ لا جدال فى حقه هذا ، ولكن ألم تلاحظى انه قد أوثر بأكبر نصيب من الاقوال التى دارت حول الزواج ، وبأكثرها استمرارا ؟

★ ★ ★

◆ وكانت الغجرية قد لفتتنى بحديثها العجيب وصوتها وأطوارها فيما يشبه الحلم ٠ فما كنت أتوقع ان تنبعث العبارة تلو العبارة من بين شفتيها ـ بهذا الشكل ـ الى أن وجدتنى أتخبط فى نسيج من الحيرة والغموض ، وأتساءل : أية روح خفية تقبع بالقرب من قلبى ، وترصد حركاته ونبضاته ؟٠٠ وقلت أحدث نفسى أكثر مما كنت أحدث الغجرية : « ان لهفة السامع تلهب لسان المتحدث ! »

ـ لهفة السامع ! أجل لقد كان مستر روشستر يجلس الساعات واذنه الى الشفتين الفاتنتين المغتبطتين بمحادثته ٠٠ وكان يتلهف على الاصغاء وهو بادى الامتنان بالوقت الممتع الذى يتاح له ٠٠ أما لاحظت ذلك ؟

ـ بادى الامتنان !٠٠ لا أذكر اننى اكتشفت على وجهه آيات الامتنان

ـ اكتشفت !٠٠ اذن فقد حللت وجهه ؟ أية آيات رأيتها اذن غير الامتنان؟

فلم أقل شيئا ٠٠ بينما استطردت العجوز تسألنى : « لقد رأيت الحب٠٠ أليس كذلك ؟٠٠ ثم تطلعت الى المستقبل فرأيته قد تزوج وأسعد عروسه ! »

ـ ليس هذا بالضبط ٠٠ ان مهارتك فى السحر تخطىء فى بعض الاحايين

ـ فماذا رأيت اذن ؟

- لايهم .. لقد جئت الى هنا لاسأل وليس لاعترف .. هل المعروف ان مستر روشستر سيتزوج ؟
- نعم .. من الحسناء مس انجرام
- قريبا ؟
- ان الظواهر تؤكد هذه الخاتمة . ولا شك - وأقولها لانه يبدو عليك انك تريدين أن تسألى عنها لولا ان الجرأة تعوزك - فى انهما سيكونان زوجين بالغى السعادة .. انه ولابد خليق بأن يحب مثل هذه السيدة الجميلة النبيلة، الذكية المهذبة . ومن المحتمل أنها تحبه .. ان لم يكن لشخصه فلامواله ،على الاقل ، وان كانت تعتبر أمواله موقوفة بعد ان أخبرتها - سامحنى الله - بذلك منذ ساعة ، فارتسمت على وجهها أمارات الدهشة والحزن ، وتدلت شفتها ، فنصحتها بأن تبحث عن خطيب آخر يحمل قائمة أطول بايجاراته المستحقة ، والتى لا تخضع لقيود !
- ولكنى لم أجىء يا أماه لاسمع مستقبل مستر روشستر ، وانما جئتك لاسمع حظى ، فاذا بك لم تخبرينى بشىء عنه !
- ان حظك مازال موضع شك . وعندما درست وجهك وجدت كل سطر فيه يناقض الآخر ، وان كنت أعرف ان القدر قد وهبك قسطا من السعادة.. عرفت ذلك قبل مجيئى الى هنا هذا المساء !.. نعم ، وهبك القدر قسطا من السعادة ، والامر يتوقف على أن تمدى يدك لتأخذى هذا القسط ، فهل ستمدين يدك ؟ .. هذه هى المشكلة التى أدرسها . اركعى ثانية على السجادة !
- لاتستبقينى طويلا لان النار تلفح وجهى

★ ★ ★

◆ وجثوت أمامها فلم تنحن فوقى ، وانما راحت تحملق فى وهى مضطجعة على ظهر مقعدها ، ثم بدأت تغمغم قائلة : « اللهب يتراقص فى العين .. العين تأتلق كالندى ، فتبدو رقيقة زاخرة بالاحساس وتبتسم لرطانتى .. انها حساسة ، سريعة التأثر ، يتجلى فى محيطها الصافى الاثر تلو الاثر ، حتى اذا كفت عن الابتسام بدا فيها الحزن ، وثقل جفناها بتعب لاشعورى يوحى بالاسى الناجم عن الوحدة .. لقد تحولت عنى الآن ، لانها لم تعد تحتمل مزيدا من الفحص والتدقيق، وكأنها تنكر حقيقة هذه الاكتشافات بنظرة ساخرة متهكمة!.. ان العين تبشر بالخير !.. أما الفم فيضحك أحيانا وقد استخفه الفرح والابتهاج. وهو يميل الى الافصاح عما يدركه العقل ، وان أخلد الى الصمت فى كثير مما يختلج به القلب ، انه لم يخلق مرنا لينا لكى يرزح تحت صمت الوحدة الابدية، وانما هو فم خليق بأن يتكلم كثيرا ، وان يحس بالمودة البشرية نحو من يناجيه.. ان الفم هو الآخر يبشر بالخير !

« اننى لا ارى غريما لطالع سعيد ، الا فى الجبين ٠٠هذا الجبين الذى يعترف قائلا : ان فى وسعى أن أعيش وحيدا ان اقتضــانى ذلك احترامى لنفسى ، وتطلبته ظروفى الخاصة ٠ ولا حاجة تدعونى الى بيع روحى ، لاشترى بها النعيم المقيم ، فقد ولد معى كنز فى أطوائى يمكننى من ان أظل حيا اذا حبست عنى كل المباهج العارضة ، أو اذا لم تتح لى الا مقابل ثمن أعجز عن أدائه ٠ ويقول الجبين: ان العقل يجلس ثابتا وقد امسك بأعنة المشاعر ، لايدعهــا تفلت وتندفــع الى المهاوى الموحشة ٠٠ ان الاهواء قد تهتاج فى صخب وعنف ، والشهوات قد تتوهم كل ضروب الامانى الكاذبة ، ولكن التعقل سيكون صاحب الكلمة الاخيرة الفاصلة شأنه فى كل جدال ٠٠ فهو الذى يدلى بالصوت الراجح فى كل قرار ٠ وقد تمر العاصفة والزلزال والنيران ، ولكننى سأتبع ارشادات هذا الصوت الصغير الذى يترجم مايمليه الضمير »

« لقد أجدت الحديث أيها الجبين ، وسيلقى رأيك كل احترام ٠٠ وقد رسمت خططى - وهى خطط سليمة فى رأيى - وفيها أصغيت الى مايهيب به الضمــير ويشير به العقل ٠ وأنا أعلم كيف يذبل الشباب سريعا وتضوى زهرته ، اذا ما خالطت كأس النعيم قطرة واحدة من خزى أو ندم ٠ اننى لا أنشد التضحية والاسى والفجور ٠٠ فمثل هذه الامور لاتلائم مزاجى ٠ وانما أريد أن أكون مصدر تغذية وتنمية ، لامصدر سم وموت ٠٠ اريد ان اكتسب الشــكر والاعتراف بالجميل ، لا أن أعتصر قطرات الدم ٠٠ لا ، ولا قطرات الدموع ٠ يجب أن يكون حصادى من الابتسام والاعتزاز الحلو المذاق ، كفى ، كفى ٠٠ اظننى قد أصبت بلوثة من الهذيان ، وخليق بى ان اطيل هذه اللحظة الى مالا نهاية ، لولا اننى لا اجرؤ ٠ لقد سيطرت حتى الآن على نفسى ، وتصرفت وفقا لما عاهدت عليــه نفسى ، ولكن التمادى قد يضنينى فوق ماتحتمل قواى ٠٠ الا انهضى يامس اير، وفارقينى ٠٠ لقد انتهت المسرحية ! »

★ ★ ★

◆ أين كنت ؟ ٠٠ هل ترانى استيقظت ، أو اننى استغرقت فى النوم ؟٠٠ هل كنت أحلم ؟٠٠وهل مازلت أحلم ؟٠٠كان صوت العجوز قد تغير ، وبدت لى لهجتها وحركاتها مألوفة ٠٠ تماما كصورة وجهى فى المرآة ، وكحديثى الذى ينطق به لسانى ٠ ونهضت ، ولكننى لم أبرح مكانى ، بل تأملت ماحــولى ، وحركت نيران الموقد، ثم عدت أتلفت نحو العجوز التى جذبت قلنسوتها وعصابتها حول وجهها ، ثم أشارت لى مرة أخرى بأن أرحل ٠٠ وأضاءت النيران فظهرت يدها الممدودة ٠ وكنت قد أفقت من ذهولى فلاحظت على الفور أن اليد الممتدة لم تكن يد عجوز عجفاء ، وانما كانت يدا ملفوفة رخصة ، ناعمة الاصابع متناسقتها، وقد التمع خاتم عريض فى خنصرها ! ٠٠ وانحنيت أتأمله ، فرأيت جوهــرة

شاهدتها مائة مرة من قبل !٠٠ وعدت أتطلع الى الوجه الذى لم يكن فى هذه المرة معرضا عنى ، فوجدته - على النقيض - قد تجرد من القلنسوة والمنديل ومال نحوى يسألنى بصوته المألوف : « حسنا ياجين ٠٠ هل عرفتنى ؟ »

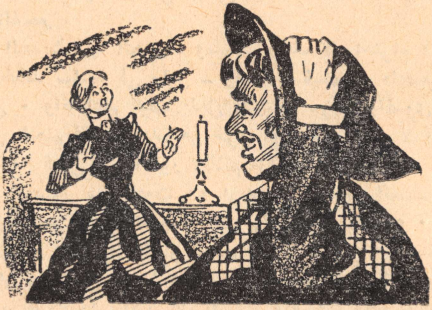
- اخلع عنك عباءتك ياسيدى ثم ٠٠

- ولكن فى الخيط عقدة٠٠ ساعدينى !

- اقطعها ياسيدى !

- هاهى ذى ٠٠ اليك عنى أيتها الثياب المستعارة !

وتبدى مستر روشستر خارج الثياب التنكرية فصحت : يالها من فكرة عجيبة ياسيدى ! »



- ولكنها نفذت بدقة ٠ أليس كذلك ؟٠٠ الا ترين ذلك ؟

- لقد وفقت مع السيدات كل التوفيق

- وهل لم أوفق معك ؟

- انك لم تمثل دور الغجرية معى

- وأية شخصية مثلتها اذن ؟ شخصيتى بالذات ؟

- كلا ٠٠ شخصية لايمكن تعليلها ٠ وقصارى القول أعتقد أنك كنت تحاول استدراجى ، وكنت تهذى لكى أهذى مثلك ، وليس هذا من الانصاف ياسيدى

- أتصفحين عنى ياجين ؟

- لا أستطيع القول حتى اقلب وجوه الفكر ، فاذا وجدت بعد التفكير والتأمل اننى لم أترد فى سخافة شنيعة ، فسوف أحاول ان أصفح عنك ٠ ٠ ولكن ذلك ما كان يصح أن يحدث ٠

- أوه ٠ لقد كنت جد مستقيمة ، مدققة ، عاقلة !

فتأملت وفكرت فى كل ما حدث ، وشعرت بارتياح اذ كنت فى الواقع قد اتخذت حذرى منذ بداية المقابلة ، وتشككت فى وجود احدى المهازل ٠ فقدكنت أعلم أن الغجر وقارئى الكف لايكشفون عن انفسهم بمثل ماكشفت تلك العجوز عن نفسها ، فضلا عن اننى لاحظت صوتها المصطنع وحرصها الشـديد على أن تخفى أساريرها ٠٠ ولكن ذهنى انصرف اذ ذاك الى جريس بول ٠٠ تلك المرأة التى كانت تبدو لى لغزا حيا ٠٠ لغز الالغاز ، كما كنت أعتبرها ٠٠ ولكنمستر روشستر لم يخطر ببالى مطلقا ٠ وما لبث أن قال : « حسنا ٠٠ فيم تفكرين ؟ وما معنى هذهالابتسامة الوقور ؟! »

ـ الدهشة وتهنئة النفس ياسيدى ٠٠ والآن ، اظننى قد استأذنتك فى الانصرا ف

ـ كلا ٠ ابقى لحظة ، واخبرينى ماذا يفعلون هناك فى حجرة الاستقبال ؟

ـ انهم يتباحثون فى أمر الغجرية على ما اعتقد

ـ اجلسى ٠٠ دعينى أسمع ماقالوه عنى

ـ يحسن ان لا أبقى طويلا ياسيدى ، لان الساعة قد قاربت الحادية عشرة ٠ آه ، هل علمت يامستر روشستر ، أن غريبا وصل الى هنا بعد ان غادرتنا انت فى الصباح ؟

ـ غريب ؟ كلا ٠٠ من عساه يكون ؟ لم أكن أتوقع حضور أحد !٠٠ وهل انصرف ؟

ـ كلا ، فقد أخبرنا انه يعرفك منذ زمن بعيد ، وأن فى وسعه أن ينعم بحرية البقاء هنا حتى تعود

ـ ياللشيطان ! هل دلكم على اسمه ؟

ـ اسمه ميسون ياسيدى ٠ وهو قادم من جزائرالهند الغربية ، من (سبانش تاون) فى (جامايكا) على ما أعتقد

★ ★ ★

◆ وكان مستر روشستر واقفا بجانبى وقد تناول يدى ، وكأنه يقودنى الى أحد المقاعد ، فلما سمع منى حديثى ، شد على معصمى بحركة تشنجية ، وقد تجمدت الابتسامة على شفتيه ٠ وظهر جليا انه فعلا قد تشنج ٠٠ ثم قال مايخاله الانسان عبارة آلية تجمعت فى كلمات : « ميسون جزائر الهند الغربية ! » ٠ ٠ وراح يكررها ثلاث مرات ، وهو يزداد فى كل مرة شحوبا ٠٠ ولاح انه لايكاد يدرى ماكان يقول ، فسألته : « أتشعر بمرض ياسيدى ؟ » ٠٠فقال وهو يترنح: « لقد أصابتنى صدمة ٠٠ أصابتنى لطمة ياجين ! »

ـ اتكىء على ياسيدى

ـ لقد قدمت لى كتفك ياجين مرة من قبل ، فدعينى اتكىء عليها اليوم !

ـ نعم ياسيدى نعم ٠٠ وذراعى !

فجلس ودعانى الى الجلوس بجانبه ، وهو مازال ممسكا بيدى بين راحتيه ، يكاد يسحقها ٠٠ كما كان يحملق فى وجهى بنظرة زاخرة بالقلق والفزع ، ثم قال : « ياصديقتى الصغيرة !٠٠ بودى لو كنت فى جزيرة هادئة معك أنت وحدك ، وقد انجاب عنى الكدر والخطر والذكريات المقيتة »

ـ هل فى وسعى أن أعاونك ياسيدى ؟٠٠ اننى أضحى بحياتى فى خدمتك !

ـ سأنشد العون من يديك ياجين اذا ما احتجت اليه ٠٠ أعدك بذلك

ـ أشكرك ياسيدى ٠ خبرنى ماذا أفعل ، وسأحاول على الاقل أن أؤديه

ـ آتينى الآن ياجين بكأس من النبيذ ، من قاعة المائدة ٠ انهم الآن يتناولون العشاء ٠ واخبرينى عما اذا كان ميسون معهم ، وماذا يفعل ؟

واذ ذهبت وجدتهم جميعا فى قاعة المائدة يتعشون ، كما قال مستر روشستر ٠٠ ولم يكونوا جالسين حول المائدة ، بل كان الطعام فوق (البوفيه) يختار كل منهم ماطاب له منه ، وقد وقفوا جماعات هنا وهناك ، وصحافهم وأكوابهم فى أيديهم ، والسرور والابتهاج يسودانهم ٠٠ وكانت ضحكاتهم وأحاديثهم عامة ، منتعشة ٠ أما مستر ميسون ، فكان واقفا بالقرب من المدفأة يتحدث الى الكولونيل ومسز دنت فى ابتهاج ومرح كالآخرين ، فملأت كأسا من النبيذ ـ ومس انجرام ترقبنى عابسة بمثل ما كنت أرقبها ـ ثم عدت الى المكتبة

كان شحوب مستر روشستر قد تلاشى وعاد اليه ثباته وعبوسه ، فتناول الكأس من يدى وقال : « فى صحتك أيتها الروح المواسية ! » ٠٠ ثم ازدرد مافى الكأس واستدار الى يقول : « ماذا يفعلون ياجين ؟ »

ـ انهم يضحكون ويتحدثون ياسيدى

ـ ألا يبدو عليهم العبوس والدهشة ، وكأنهم سمعوا شيئا عجيبا ؟

ـ كلا ٠ اطلاقا ٠٠ انهم يمزحون ويطربون

ـ وميسون ؟

ـ كان يضحك هو الآخر

ـ لو جاء اولئك الناس وبصقوا فى وجهى ، فماذا تفعلين ياجين ؟

ـ أطردهم من الحجرة ياسيدى ٠٠ اذا استطعت !

فارتسمت على أساريره نصف ابتسامة وقال : « واذا ذهبت اليهم فنظروا الى فى برود وتهامسوا فيما بينهم ساخرين ، ثم انصرفوا وغادرونى الواحد بعد الآخر ، فماذا بعد ذلك ؟ هل تنصرفين معهم ؟ »

ـ لا أظن ياسيدى ، بل سوف يتضاعف اغتباطى بالبقاء معك ٠

ـ لتعزينى ؟

ـ نعم ياسيدى ، لاسرى عنك ما استطعت

ـ واذا شهروا بك لتمسكك بى ؟
ـ قد لا أعرف شيئا عن هذا التشهير ، ولكننى لن احفل به لو عرفته
ـ اذن فلديك من الجرأة مايجعلك تحتملين تنديدهم ، فى سبيلى ؟
ـ اننى أجرؤ على ذلك اكراما لخاطر أى صديق يستحق ـ مثلك ـ أن أتمسك به ٠٠٠
ـ عودى الآن الى الحجرة ، واذهبى الى ميسون على عجل ، واهمسى فى أذنه أن مستر روشستر قد عاد ويرغب فى مقابلته ، ثم ادخليه واتركينا !
ـ كما تريد ياسيدى
ونفذت مشيئته ٠٠ وحدجنى الجميع بنظراتهم عندما سرت وسطهم ٠واتجهت مباشرة الى مستر ميسون فألقيت اليه الرسالة وتقدمته الى المكتبة ، ثم صعدت الى الطابق العلوى ٠ وهناك رقدت فى فراشى الى ساعة متأخرة ، سمعت عندها الضيوف وهم يأوون الى مخادعهم ٠ وتبينت صوت مستر روشستر وهو يقول: « من هنا ياميسون ٠ هذه غرفتك »
وكان يتكلم مبتهجا ، فاطمأن قلبى للهجته المرحة ، ولم ألبث ان استغرقت فى النوم

الفصل العشرون



◆ نسيت فى تلك الليلة أن أرخى ستارتى ـ على غير عادتى ـ كما غفلت عن اسدال الستر الخشبى (الشيش) على النافذة ، فكان من جراء ذلك ، أن القمر لم يكد يبلغ فى سراه تلك الرقعة المواجهة لحجرتى ، من صفحة

السماء ، حتى أطل على خلال زجاج النافذة العارى من الحجب !٠٠ وكان بدرا فى أتمه ، والليلة صافية الاديم ٠٠ وأيقظتنى طلعته البهية ، اذ صحوت فى جوف الليل ، ففتحت عينى على قرصه ٠٠ قرص فى بياض الفضة وشفافية البلور ٠٠ كان جميلا ، ولكنه جد مهيب ، جليل ٠٠ واستويت نصف جالسة فى الفراش ، ومددت ذراعى لاجذب الستار ، ولكن ٠٠ رحماك يارب !٠٠ يالها من صرخة !

فقد مزقت شمل الليل ، وهدوءه وسكونه ، صرخة مروعة حادة مدوية ، سرت فى قصر (ثورنفيلد) من أقصاه الى أقصاه !٠٠ وكف وجيب قلبى ، بل جمد قلبى فى صدرى ، وشلت يدى الممدودة ، بينما تلاشت الصرخة ، فلم تتجدد ٠٠ وما من ريب فى أنه لم يكن فى وسع الشخص الذى أطلق هذه الصرخة المروعة - أيا كان - ان يكررها سراعا ٠٠ بل ان الكواسر المجنحة على قمم جبال الانديز ماكانت لتقوى على ان تطلق مثل هذه الصرخة - التى تنكمش لها السحب واجفة - مرتين متتاليتين !٠٠ ولابد لمن بعث مثل هذا الصوت القوى من ان يستريح قبل ان يكرر الجهد !

وكانت صادرة من الطابق الثالث ، لانها دوت من فوق رأسى ٠٠ وفوق رأسى - أجل ، فى الحجرة القائمة فوق سقف حجرتى - لم ألبث ان سمعت عراكا ٠٠ وكان صراعا عنيفا ، كما لاح لى من الضجة ٠٠ وهتف صوت نصف مختنق : « النجدة !٠٠ النجدة !٠٠ النجدة ! » ثلاث مرات متتابعة فى عجلة !٠٠ ثم صاح : « الايأتى أحد ؟ » ٠٠ ثم تبينت خلال ألواح السقف الخشبية ، وملاط الجدران ، صوتا يقول ، والصراع والارتطامات دائرة فى عنف وحشى : « روشستر !٠٠ روشستر ! الا أقبل بالله عليك ! »

وفتح باب احدى الحجرات ، وجرى شخص ما ، أو اندفع ، فى الردهة٠٠ وضربت قدم أرض الغرفة العليا مرة أخرى ، ثم هوى جسم ، وساد السكون ! وكنت قد ارتديت بعض الثياب ، رغم ان الرعب كان يهز كل أطرافى ، وانطلقت من غرفتى ٠٠ وكان النائمون قد استيقظوا جميعا ، وترددت فى كل حجرة صيحات وغمغمات مذعورة ٠٠ وفتحت الابواب ، الواحد تلو الآخر ، وغصت الردهة بالسادة والسيدات الذين هجروا مضاجعهم على السواء ، يتساءلون فى ارتباك : « أوه ، ماهذا ؟ » ٠٠ « من الذى أصيب بالضر ؟ »٠٠ « ما الذى جرى ؟ » ٠٠ « هاتوا ضوءا ! » ٠٠ « هل شب حريق ؟ » ٠٠ « هل هناك لصوص ؟ » ٠٠ « الى أين نجرى ؟ » ٠٠ولولا نور القمر لكانوا فى ظلام دامس ٠٠ وأخذوا يجرون هنا وهناك ، ويلمون فلولهم ٠٠ وراح بعضهم يبكى ، وبعضهم يتعثر ، وقد سادهم اضطراب لم يجدوا سبيلا للخلاص منه ٠٠ وصاح الكولونيل دنت : « أين روشستر بحق الشيطان ؟٠٠

اننى لم أجده فى فراشه » ، فواتاه الرد : « ها أنذا ! .. ها أنذا ! .. هدئوا روعكم جميعا ، فاننى قادم ! »

ثم فتح الباب القائم فى نهاية الدهليز ، وأقبل منه مستر روشستر يحمل شمعة . وكان هابطا لتوه من الطابق العلوى ، فجرت اليه احدى السيدات وأمسكت بذراعه .. تلك كانت مس بلانش التى سألته : « أى حادث مروع وقع ؟ .. تكلم ! .. دعنا نعلم أسوأ مافى الامر ! » .. فأجاب : « فقط حاذرن أن توقعننى أو تخنقننى ! » .. اذ كانت ابنتا الليدى ايشتون قد تعلقتا به كذلك ، بينما اندفعت السيدتان الوالدتان - ليدى انجرام وليدى ايشتون - نحوه فى عباءتيهما الناصعتين ، أشبه بمركبين شراعيتين .. وما لبث ان صاح : « لاشىء هناك ! .. لاشىء ! انها مجرد محاولة لتمثيل مسرحية « اسمع جعجعة ولا أرى طحنا » لشكسبير .. ألا ابتعدن ياسيداتى ، والا أصبحت خطرا ! »

والواقع انه بدا خطرا ، اذ أخذت عيناه السوداوان تطلقان الشرر ، بيد انه هدأ نفسه جاهدا ، وعاد يقول : « لقد انتاب كابوس احدى الخادمات ، وهذا كل ما هناك .. فهى مخلوقة عصبية ، سريعة الهياج ، خيل اليها - فى المنام - انها ترى شبحا ، أو شيئا من هذا القبيل ، فتولتها نوبة من الفزع ! .. والآن ، لابد من أن أراكم جميعا فى مخادعكم ، اذ لاسبيل للعناية بالخادم الا بعد أن يهدأ المنزل ويستتب السكون .. هيا ياسادة تفضلوا فاضربوا المثل للسيدات . وانى لواثق من أن مس انجرام تستطيع التغلب على مخاوفها العقيمة . هيا يا آمى ولويزا الى مخدعكما كحمامتين وادعتين ، وأنتما ياسيدتى (مخاطبا الوالدتين) ستصابان ببرد - بكل تأكيد - اذا بقيتما أكثر من ذلك فى هذا الدهليز القارس الجو ! »

★ ★ ★

◆ وهكذا استطاع بالمداهنة تارة وبالامر تارة أخرى ، أن يحمل الجميع على العودة مرة أخرى الى مخادعهم . أما أنا فلم أنتظر حتى يأمرنى ، بل انسحبت عائدة الى غرفتى دون أن ينتبه أحد ، كما غادرتها من قبل دون أن أثير انتباها .. على اننى لم اندس فى فراشى ، بل شرعت - على العكس - ارتدى ثيابى باعتناء .. فلعلنى كنت الوحيدة التى سمعت الجلبة التى أعقبت الصرخة ، والكلمات التى تخللتها ، لأنها كانت منبعثة من الحجرة التى تعلو مخدعى . وقد أكدت لى أن الذى أشاع الفزع فى القصر لم يكن كابوس خادم ، وأن الايضاح الذى ذكره مستر روشستر لم يكن سوى ابتكار منه لتهدئة جأش ضيوفه . ولذلك ارتديت ملابسى استعدادا للطوارىء ، حتى اذا انتهيت من ذلك ، جلست طويلا بجوار النافذة وأنا أتطلع الى الارض

الساكنة ، والحقول المموهة بالفضة ، فى ارتقاب ماقد يحدث ، اذ خيل الى أن حادثا لن يلبث أن يتلو تلك الصيحة وذاك العراك وذلك النداء !

كلا .. لقد عاد السكون ، وتلاشت تدريجا كل همهمة وكل حركة ، فلم تنقض ساعة حتى هدأ القصر هدوء الصحراء ، وكان النوم والليل قد استردا سلطانهما ، بينما أفل القمر وأوشك على الغروب .. ولم أرتح الى الجلوس فى البرد والظلام ، ففكرت فى أن أرقد على فراشى بملابسى . ومن ثم غادرت النافذة ، واجتزت السجادة فى هدوء ، وفيما كنت منحنية لاخلع حذائى ، نقرت الباب يد حذرة ، نقرا خفيفا ، فسألت : « هل ثمة حاجة الى ؟ » .. وسألنى الصوت الذى توقعت أن أسمعه وأعنى به صوت سيدى : « هل أنت مستيقظة ؟ »

– نعم ياسيدى

– وفى ملابسك ؟

– نعم

– اذن ، فاخرجى بهدوء !

فأطعت .. وكان مستر روشستر واقفا فى الدهليز ، يحمل شمعة ، فقال : « اننى أريدك ، فتعالى من هذه الناحية .. على مهل ، ولا تحدثى ضجة ! .. وكان نعلاى (شبشبى) رقيقين ، فاستطعت السير فى خفة الهرة على البلاط المكسو بالسجاد .. وتسلل السيد فى البهو ، ثم صعدنا السلم ، وما لبث أن وقف فى الردهة المظلمة ، ذات السقف المنخفض – بالطابق الثالث المشئوم – ثم سألنى هامسا : « هل لديك اسفنج فى غرفتك ؟ »

– نعم ياسيدى

– وهل لديك أية أملاح طيارة .. نوشادر مثلا ؟

– نعم

– ارجعى وهاتى الاثنين

فعدت وأخذت الاسفنج من فوق حوض الماء بغرفتى ، والاملاح من درجى ، ثم قفلت عائدة مرة أخرى . وكان فى انتظارى يحمل فى يده مفتاحا ، فاقترب من أحد الابواب الصغيرة السوداء ، وأولج المفتاح فى القفل . وتوقف يخاطبنى ثانية : « ألا تغثى نفسك لمشهد الدم ؟ »

– لا أظن وان لم أجرب ذلك من قبل

وسرت فى جسدى رعشة وأنا أجيبه ، وان لم أشعر ببرد أو اعياء . فقال: « الا اعطينى يدك ، فلن أجازف واتركك معرضة للاغماء ! » .. ووضعت أصابعى فى يده ، فقال : « انها دافئة ، وثابتة الاعصاب ! » .. ثم أدار المفتاح ودفع الباب . ورأيت غرفة أذكر اننى شاهدتها من قبل عندما فرجتنى

مسز فيرفاكس على القصر . وكانت ثمة ستارة خلف الباب ، ولكن هذه الستارة بدت الآن مشدودة الى أنشوطة فى أحد الجوانب ، وظهر من خلفها باب كان مواربا ، يفضى الى حجرة أخرى داخلية ، كان ينبعث منها نور ، وتتصاعد منها زمجرة أشبه بكلب يتعارك ، فوضع مستر روشستر شمعته وقال : « انتظرى لحظة ! »

★ ★ ★

● وتقدم الى الحجرة الداخلية ، فاستقبلته ضحكة عالية ، بدت صاخبة فى البداية ، ولكنها انتهت بقهقهة جريس بول !.. اذن فقد كانت المرأة هناك !.. وقام مستر روشستر ببعض ترتيبات ، دون ان ينبس ببنت شفة ، وان كنت قد سمعت صوتا خافتا يخاطبه . ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، وأوغل فى الحجرة التى كنت أنتظره لدى بابها ، وهو ينادينى : « تعالى ياجين ! » .. فسرت الى الجانب الآخر من سرير كبير ، حجبت أستاره المسدولة جزءا كبيرا من الغرفة . وكان بالقرب من رأس السرير مقعد مريح ، جلس فيه رجل يرتدى كل ملابسه فيما عدا سترته .. وكان ساكنا ، مائل الرأس الى الخلف ، مغمض العينين ، فرفع مستر روشستر الشمعة فوقه ، واذ ذاك عرفت فى وجهه الشاحب ـ الذى يكاد يخلو من معالم الحياة ـ ذلك الغريب : ميسون ، كما رأيت جنبه وذراعه مخضبين بالدماء !

وقال مستر روشستر : « امسكى الشمعة ! » .. فتناولتها . وجاء بحوض من الماء وقال : « وامسكى هذا ! » .. فأطعت . وعندئذ أخذ الاسفنجة وغمسها فى الماء ، وبلل وجه الرجل الذى كان أشبه بجثة هامدة . ثم طلب مستر روشستر قارورة (النوشادر) ، وقربها من خياشيم مستر ميسون ، فما لبث هذا ان فتح عينيه وهو يئن . فأزاح مستر روشستر قميص الجريح ـ الذى كانت ذراعه وكتفه مضمدتين ـ ثم أزال الدماء التى كانت تتدفق بسرعة . وغمغم مستر ميسون : « هل ثمة خطر عاجل ؟ »

ـ أوه . كلا . انه خدش بسيط ، فلا تضطرب يارجل ، وتجلد !.. سآتيك بنفسى الآن بجراح ، وأرجو ان تستطيع الانتقال فى الصباح من هذه الحجرة .. اسمعى ياجين ..

ـ سيدى ؟

ـ سأضطر الى مغادرتك فى هذه الحجرة مع هذا السيد نحو ساعة وربما ساعتين . وعليك أن تمسحى الدم بالاسفنجة ـ كما فعلت الآن ـ اذا عاد ينزف من جديد . أما اذا شعر السيد بالاغماء ، فضعى على شفتيه كوب الماء الذى فوق حوض الغسيل ، وقربى من أنفه قارورة أملاحك الطيارة ..وعليك

أن لا تتحدثى معه بأية حجة !.. وانت ياريتشارد ، لا تخاطبها والا عرضت حياتك للخطر ، ولن أكون مسئولا عما يحدث لو أنك فتحت شفتيك أوتحركت من مكانك !

وتأوه الرجل المسكين ثانية ، وبدا انه لايجرؤ على الحراك ، وكأنما شل حركته الخوف - من الموت أو من شيء آخر - وعندئذ وضع مستر روشستر فى يدى الاسفنجة التى تشبعت بالدماء ، فشرعت أستعملها بمثل ما كان يفعل. وبعد أن راقبنى لحظة قال : « تذكرى ! لا حديث ! » .. ثم غادر الحجرة. وساورنى شعور عجيب عندما دار المفتاح فى القفل ، وتلاشى وقع قدميه .. هأنذى فى الطابق الثالث ، حبيسة فى احدى حجراته المنخفضة السقف التى يحف بهـا الغموض .. والليـل يلفنى ، وتحت عينى ويدى منظر شـاحب ، دموى ، ولا يكاد يفصلنى عن امرأة قاتلة سوى باب واحد !.. نعم كان ذلك مروعا .. أما ماعداه ، فكان فى مقدورى احتماله ، ولكننى كنت أرتعـد لمجرد التفكير فى أن جريس بول قد تنقض على !

ومع ذلك ، فقد كان حتما على ان أبقى فى مكانى ، وأن أرقب هـــذه السحنة الشاحبة ، وهاتين الشفتين الزرقاوين اللتين حرم عليهما ان تنفرجا ، وهاتين العينين اللتين أخــذتا تغمضان ، وتتفتحان ، وتتجـولان فى الغرفة ، وتحدقان فى - على التوالى بين الفينة والفينة - وقد ارتسم فيهما الهلع .. كما كان على أن أغمس يدى بين آونة وأخرى فى حوض ملء بالماء والدماء ، فأمسح الدم المنسال ، وأرقب ضوء الشمعة وهو يخفت ويتلاشى ، والظلال وهى تتكاثف على الستائر العتيقة التى كانت حولى ، أو تشتد اسودادا تحت أستار السرير الواسع القديم ، وتختلج بحركة غريبة فوق أبواب صوان كان فى مواجهتى .. وكانت تلك الابواب تحمل اثنى عشر لوحا من الزجاج ،عليها رسوم كالحة لرؤوس اثنى عشر من الرسل ، يتوسط كل رأس منهـا لوحا كأنه الاطار .. وكان ينتصب فوقها صليب من الابنوس يعلوه تمثال للمسيح وهو فى سكرات الموت .. وأخذت الظلال وبصيص ضوء الشمعة يرسـمان أشكالا وهما يهتزان ويحومان هنا وهناك ، فتمثلت لى صورة الطبيب الملتحى « لوك » وهو يحنى رأسه ، وصورة القديس « يوحنا » بشعره الطويل المتموج، ووجه « يهوذا » الشيطانى المقيت وقد تبدى خارجا من أحد الالواح الزجاجية ولاح أنه يوشك أن ينجلى عن صورة الشيطان نفسه !.. ووسط كل هذا ، كنت مضطرة الى أن أنصت كما كنت أرقب .. ان أنصت الى حـركات تلك الوحشة الكاسرة ، أو الشيطانة القابعة فى مخدعها ، بالحجرة الداخلية .. على أنها - منذ زيارة مستر روشستر - كانت ساكنة ، وكأنما استولى عليها سحر غريب ، فلم أسمع طيلة الليل سوى أصوات ثلاثة ، فى فترات متباعدة

٠٠ صريف حاد صدر عن الواح خشبية ، وزمجرة رهيبة كتلك التى سمعتها فى البداية وكأنها منبعثة من كلب ، وانين آدمى عميق !

★ ★ ★

◆ وما لبثت أفكارى أن أزعجتنى ، اذ رحت أتساءل : اية جريمة هـــذه التى تعيش متجسدة فى هذا القصر المنعزل ، دون أن يقوى صاحبه على اقصائها أو اخضاعها ؟٠٠ وما هذا السر الذى يتجلى مرة فى شكل حريق ، ومرة أخرى فى صورة دماء فى سكون الليل ؟٠٠ وأى مخلوقة هذه التى تنكرت فى صورة وشكل امرأة عادية تنطق كأنها شيطانة ساخرة ، أو طائر من الطيور الجارحة التى تجرى وراء الرمم ؟٠٠ ثم هذا الرجل التافه ، الاجنبى ، الغريب ، الذى كنت أعنى به ٠٠ ما الذى زج به فى هـــذا الشرك من الرعب والفزع ؟٠٠ ولماذا انصب عليه الحنق والغيظ ؟٠٠ وماذا جاء به الى هذا الركن من القصر فى وقت غير ملائم ، كان يجب ان يكون فيه ملازما فراشه ؟٠٠ لقد سمعت مستر روشستر يختار له حجرة بالطابق الاسفل ، فما الذى جاء به الى هنا ؟ وما الذى جعله الآن وادعا ذلولا ازاء الغدر العنيف الذى أحاق به ؟ ولماذا ينصاع فى هدوء الى هذا المخبأ الذى أكرهه مستر روشستر على الاحتماء فيه ؟ ولماذا اختار له مستر روشستر هذا المخبأ بالذات ليدفعه اليه دفعا ؟٠٠ لقد تعرض ضيف السيد للعدوان ، بل ان حياة السيد نفسه تعرضت فى مناسبة مضت لمؤامرة أثيمة ، ولكنه حاول ان يتستر عـــلى كل من الحادثين ، وان يدفعهما الى الظلام والنسيان ، فلماذا ؟ وهأنذى أخيرا أرى مستر ميسون يخضع لمستر روشستر ، وأرى ارادة الاخير القوية تسيطر سيطرة تامة على جمـــود الاول ، فقد أكد لى ذلك مادار بينهما من حديث قصير ، كما بدا لى من لقائهما الاول تأثير مستر روشستر فى الآخر ، فلماذا اكتأب السيد عندما سمع نبأ وصول مستر ميسون ؟ ولماذا كان لمجرد اسم ذلك الرجـــل ـ الذى لايعرف المقاومة وليست له ارادة ـ وقع الصاعقة على نفس روتستر منذ بضع ساعات؟ ٠٠ آه ، اننى لن أستطيع ان أنسى نظرته وشحوبه عندما همس الى : « لقـــد أصابتنى صدمة ياجين ! » ، ولن أستطيع ان أنسى كيف كانت ذراعه ترتعد وهو يعتمد بها على كتفى !٠٠ لم يكن أمرا خفيفا ذلك الذى أمكنه ان يحنى روح فيرفاكس روشستر القوية ، وان يهز كيانه المتين

وعندما طال الليل وطال ، صحت فى أعماقى : « متى يأتى ؟ متى يأتى ؟ » ٠٠ فقد كان مريضى الذى يدمى ، يهن ويئن دون ان يأتى النهار أو يأتى العون ٠ وكم رفعت المياه الى شفتى ميسون الشاحبتين ، وكم قدمت له الاملاح المنعشة ، فكانت جهودى تذهب سدى ، لان قواه اخذت تخور بسرعة ، سواء لفرط آلامه الجثمانية والعقلية ، أو بسبب مافقده من دماء ، او لهذين السببين

معا . ومن ثم اخذ أنينه يزداد ، وتبدى عليه الخور ، واهتاج كأنه هالك لا محالة ، فخشيت ان يكون مشرفا على الموت قبل ان أستطيع حتى مخاطبته

وأخيرا ، انطفأت الشمعة ، وفيما كانت تلفظ أنفاسها الاخيرة ، شاهدت خيوطا من الضياء فوق اهداب ستائر النافذة ، فادركت ان الفجر يقترب . وسرعان ماسمعت بايلوت ينبح خارج بيته البعيد فى الحديقة ، فانتعش الامل فى قلبى .. ولم يذهب هذا الامل عبثا ، اذ لم تمض خمس دقائق اخرى حتى سمعت المفتاح يولج والقفل يفتح ، بشيرا بأن مهمتى فى المراقبة قد انتهت ، وهى مهمة لايمكن ان تكون قد استغرقت أكثر من ساعتين ، وان خلت انها ظلت أسابيع طويلة . ودخل مستر روشستر ومعه الجراح الذى ذهب لاستدعائه ، ثم قال لهذا الاخير : « والآن انتبه يا كارتر الى ، اننى لن أمنحك سوى نصف ساعة لتضميد الجرح وعصب الضمادة ونقل الجريح الى أسفل ، واتمام كل شىء ! »

ـ ولكن ، هل هو يقوى على الانتقال ياسيدى ؟

ـ بلا شك فليس الامر خطيرا ، ولكنه عصبى ولابد من تهدئة نفسه . تعال اشرع فى عملك !

ثم جذب مستر روشستر الستارة الكثيفة ، ورفع (الشيش) ليدع الضوء ينفذ ما استطاع . وادهشنى وابهج نفسى زحف الفجر ، اذ رأيت خيوط النهار الوردية تشرع فى اضاءة الشرق .. ثم اقترب مستر روشستر من ميسون ، الذى أخذ الجراح يضمد له جراحه ، وسأله : « والآن ياصديقى الطيب ، كيف حالك ؟ » .. فأجابه بصوت واهن : « اخشى ان تكون قضت على ! »

ـ لاشىء اطلاقا .. تشجع ! لن يمضى أسبوعان حتى تسترد صحتك . كل ما هنالك انك فقدت قليلا من الدم . أكد له ياكارتر ان لا خطر عليه

فقال كارتر وقد انتهى من حل الضمادات : « فى وسعى ان أؤكد له ذلك وضميرى مرتاح .. فقط كنت أود أن أكون هنا قبل الآن ، حتى أوفر عليه كل الدم الذى فقده ، ولكن ماهذا ؟ .. ان لحم الكتف ممزق ، ومقطوع كذلك ! .. لم ينشأ هذا الجرح من سكين .. هذا أثر أسنان ! » .. فدمدم ميسون : « لقد عضتنى .. انقضت على كنمرة ضارية عندما انتزع منها روشستر السكين » .. وقال روشستر : « كان يجدر أن لا تستسلم ، بل كان واجبا أن تصارعها فى الحال » .. فأجاب ميسون : « ولكن ما الذى يملك الانسان ان يفعله فى مثل هذه الظروف ؟ .. كان الامر مخيفا ! » .. وارتجف وهو يسترسل قائلا : « ولم أكن أتوقع منها ذلك لانها كانت فى البداية بادية الهدوء تماما » .. فكان رد صديقه : « لقد أنذرتك ، وطلبت

منك أن تكون على حذر عندما تقترب منها .. هذا الى أنه كان فى وسعك أن تنتظر الى الغد لاكون معك . كانت حماقة منك أن حاولت مقابلتها الليلة .. وحدك ! »

- كنت أعتقد انني أستطيع القيام بعمل ذى فائدة

- تعتقد !.. تعتقد !.. اننى أضيق بسماع ذلك ، ومع هذا فهانتذا قد قاسيت وسوف تقاسي كثيرا ما لم تستمع الى نصيحتى ، ولن أقول شيئا بعد ذلك . هيا اسرع ياكارتر .. اسرع !.. فسوف تشرق الشمس بعد قليل ، ويجب ان أراه وهو ينصرف

- حالا ياسيدى .. لقد ضمدت الكتف ، ويجب ان أهتم بهـذا الجرح الآخر فى ذراعه ، أظنها قد أعملت أسنانها هنا أيضا

فقال ميسون : « لقد امتصت دمي وهددت بأن تستنزف دماء قلبى ! »

★ ★ ★

◆ وشاهدت مستر روشستر يرتعد وقد تجلت عليه صـورة عجيبة من الاشمئزاز والرعب والكراهية كادت تشوه أساريره ، ولكنه اكتفى بأن قال : « هيا التزم الصمت ياريتشارد ولا تهتم بترديد هذيانها » .. فكان الجواب : « ليتنى أقوى على نسيانها ! »

- ستنساها عندما تغادر البلاد ، وفى وسعك متى عـدت الى جمايكا ان تحسبها قـد ماتت ودفنت ، أو بالاحرى لا حاجـة بك الى التفكير فيها على الاطلاق !

- يستحيل ان أنسى هذه الليلة !

- هذا غير مستحيل . تشجع قليلا يارجل ، فقد حسبت منذ ساعتين انك قد مت وغدوت كسمكة مقددة ، ومع ذلك فهانتذا حى تتحدث الينا .. ها قد انتهى كارتر منك أو كاد ، وسوف أعيد اليك هندامك حالا (ثم التفت نحوى لاول مرة منذ عودته وقال) خذى هـذا المفتاح ياجين ، واذهبى الى مخدعى فامضى مباشرة الى خزانة ملابسى ، وافتحى درج الصوان فاخرجى قميصـا نظيفا ورباط رقبة ، وهاتيهما الى هنا .. هيا اسرعى ! »

فذهبت وبحثت عن الخزانة والدرج اللذين ذكرهما ، وتناولت ماطلبه ثم عدت به فقال : « والآن اذهبى الى الجانب الآخر من الفراش ، الى أن ينتهى من زينته ، ولكن لاتغادرى الحجرة فقد احتاج اليك ثانية ! » .. فانسحبت الى حيث وجهنى ، وسرعان ما سألنى : « هل كان انســان ما يتحرك فى الطابق الاسفل عندما هبطت اليه ؟ »

- كلا ياسيدى . كان كل شيء هادئا ساكنا

- سننقلك بحذر من هنا ياريتشارد ، لصالحك وصالح تلك المخلوقة الشقية .

لقد ناضلت طويلا لتحاشي التعريض والتشهير ، ولا اريد ان يحدث شيء من ذلك أخيرا .. هيا ياكارتر وساعده على ارتداء صداره ..أين تركت معطفك الفرو ؟..انك لاتستطيع الرحيل ميلاواحدا بدونه في هذا الطقس اللعين البرودة. أهو في حجرتك ؟ اجرى ياجين واهبطى الى حجرته المجاورة لحجرتى ،فأحضرى المعطف الذى ترينه هنالك !

وجريت مرة أخرى .. ومرة أخرى عدت وأنا أحمل معطفا ضـخما مبطنا ومذيلا بالفراء ، فقال سيدى الذى لايعرف التعب : « لدى مهمة أخرى لك : يجب أن تعودى الى حجرتى مرة أخرى . انك للاسف قد غدوت بلون المخمل، ولن ينفعنا في وقت الشدة رسول أعرج !.. اذهبى الى الدرج الاوسط فى منضدة زينتى ، فأخرجى منه قارورة صغيرة وكأسا صغيرة تجدينهما هنالك.. اسرعى ! » .. فجريت وعدت أحمل الوعاءين المطلوبين فقال : « هذا حسن . والآن سآخذ مطلق الحرية يادكتور فى اعداد جرعة بمعرفتى وعلى مسئوليتى الخاصة . هذا دواء منعش اشتريته فى روما من دجال ايطالى كان يمكن ان تركله بقدمك . وهو شيء ياكارتر لايستعمل بلا تمييز وبلا حسـاب ، ولكنه يصلح فى حالة كهذه على سبيل المثال .. قليلا من الماء ياجين ! » ..ثم مد يده بالكأس الصغيرة فملأتها له حتى النصف ، فقال: « هذا يكفى . والآن بلل حافة فوهة القارورة » . فلما فعلت قطر اثنتى عشرة قطرة من سائل قرمزى اللون، ثم قدمها الى ميسون قائلا : « اشرب ياريتشارد وسيمنحك هذا الشجاعة التى تعوزك لساعة أو أكثر ! »

ـ سوف يؤذينى لانه ملهب !

ـ اشرب ! اشرب ! اشرب !

وأخيرا رضخ ميسون ، بعد أن وجـد ان لا فائدة من المقاومة . وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه اذ ذاك ، ولكنه لم يعـد ملطخا بالدماء أو مكتئب الاسارير . وبعد ان تجرع الدواء ، وانقضت ثلاث دقائق ، تنـاول مستر روشستر ذراعه وقال : « الآن ، أنا واثق من قدرتك على الوقوف على قدميك .. حاول ! » .. فنهض الجريح . وقال مستر روشستر مستطردا : «أسنده ياكارتر من تحت الكتف الاخرى . وأنت ياريتشارد ، ابسط أساريرك واخط الى الامام .. هكذا ! » .. فغمغم مستر ميسون : « اننى أشعر بتحسن فعلا !»

ـ أنا واثق من ذلك . والآن ، سيرى أمامنا ياجين الى السلم الخلفى وافتحى باب الممر الجانبى ، ثم اطلبى من سائق مركبة البريد ان يستعد لقدومنا . وسوف تجدينه فى الفناء ، أو فى الخارج غير بعيد ، لاننى أمرته بأن لايقترب بعربته من الرصيف . واذا شاهدت أحدا هنا أو هناك ، فتعالى الى قاعـدة السلم و (تنحنحى)

* * *

وكانت الساعة قد بلغت ـ اذ ذاك ـ الخامسة والنصف ، وأوشكت الشمس على الشروق ، ولكنى وجدت المطبخ مازال مظلما ساكنا ، وباب الممر الجانبى مغلقا ، ففتحته بأقل ضوضاء ممكنة • وكان الهدوء يغشى الفناء ، ولكن البوابات كانت مفتوحة على مصاريعها • وشاهدت العربة فى الخارج وقد تأهبت الجياد وجلس السائق فى مقعده ، فاقتربت وأبلغته بأن السيد قادم• وأومأ برأسه ، فتطلعت حوالى بعناية واهتمام ، ثم أنصت فوجدت السكينة مازالت تغمض العيون ، وستائر نوافذ الخدم لاتزال مسدولة ، وقد شرعت الطيور تشقشق فى أشجار الحديقة المزدهرة ، التى مالت أغصانها كأكاليل بيضاء ، على الجدار الذى كان يؤلف جانبا من سياج الفناء • وكانت جياد العربة تضرب الارض بأقدامها من حين الى آخر •• وفيما عدا ذلك كان السكون يكتنف كل شىء

واقترب السيد اذ ذاك مستندا الى مستر روشستر والجراح ، ولكنه كان يسير بسهولة ويسر ، ثم ساعده الرجلان حتى ركب العربة ، وتبعه كارتر ، وعندئذ قال مستر روشستر للجراح : « اعتن به وابقه فى منزلك حتى يسترد صحته تماما ، وسآتى بعد يوم أو اثنين لارى كيف حاله •• وأنت ياريتشارد ، كيف حالك ؟ »

ـ ان الهواء العليل ينعشنى يافيرفاكس

ـ حسنا • دع النافذة مفتوحة من هذا الجانب ياكارتر ، فليست ثمة رياح• فى حفظ الله ياديك !

ـ يافيرفاكس •••

ـ ماذا ؟

ـ اعتن بها وعاملها برفق ما استطعت ودعها •••

ثم توقف وانفجر فى البكاء فأجابه مستر روشستر : « سأبذل قصارى وسأنفذ ماتريد » •• ثم أغلق الباب ومضت العربة فى طريقها • وفيما كان مستر روشستر يغلق أبواب الفناء ، قال : « لكم أتمنى على الله أن ينتهى ذلك كله ! » •• ثم سار بخطو بطىء نحو باب فى الجدار المحيط بالحديقة • وكنت أحسب انه قد فرغ منى ، فتأهبت للعودة الى القصر ، ولكننى ما لبثت ان سمعته ينادى : « ياجين ! » •• وكان قد فتح البوابة ووقف ينتظرنى ثم قال : « تعالى حيث يوجد بعض الهواء المنعش ••لبضع دقائق •• فان القصر مجرد سجن •• ألا تشعرين بذلك ؟ »

ـ انه يبدو لى قصرا منيفا ياسيدى

فأجاب : « ان عينيك يغشاهما نقاب من عدم الخبرة والتجربة ، ومن ثم

فأنت ترين الامور خلال طبقة سطحية زائفة السحر ، لا تتبينين معها أن القشرة الذهبية مادة لزجة غروية ، وأن الجوخ الناعم مجرد نسيج عنكبوت ، وأن الرخام حجر أردوازى خسيس ، وان الاثاث المصقول مجرد نفايات من الخشب ولحاء خشن . أما هنا (وأشار الى خلوة مورقة دخلناها) فكل شيء حقيقى جميل نقى » .. وأخذ يتمشى فى طريق تغشى حواشيه أشجار البقس والتفاح والكمثرى والكريز من جهة ، وتحف به من الجانب الآخر شتى أنواع الزهور التى تزدهر وتتألق بعد أمطار ابريل واشراق الربيع الجميل ..وكانت الشمس اذ ذاك تصعد فى الشرق ، وقد أضاءت بنورها أشجار الحديقة الندية المزهرة وما تحتها من مماش وطرقات هادئة

ـ هل لك فى زهرة ياجين ؟

وقطف أول زهرة على الغصن وقدمها الى ، فقلت : « أشكرك ياسيدى ! »

ـ هل تحبين هذه الشمس المشرقة ياجين ؟ .. وهذه السماء بسحبها العالية الخفيفة ، التى ستنقشع حتما عندما تدفأ أوصال النهار ، وهذا الطقس الهادىء العليل ؟

ـ نعم .. أحبها كل الحب

ـ لقد قضيت ليلة ليلاء ياجين ؟

ـ نعم ياسيدى

ـ ولقد امتقع وجهك بسببها ..هل خفت عندما تركتك وحدك مع ميسون ؟

ـ خفت أن يخرج أحد من الحجرة الداخلية

ـ ولكنى أغلقت الباب جيدا وحملت المفتاح فى جيبى . اننى أكون راعيا مهملا اذا أنا تركت حملا ـ حملى العزيز المدلل ـ على مقربة من كهف ذئب كاسر دون حراسة !.. لقد تركتك فى مأمن !

ـ هل ستظل جريس عائشة هنا ياسيدى

ـ أوه . نعم . لاتشغلى بالك بها .. أقصيها من رأسك

ـ ومع ذلك يبدو ان حياتك ستظل فى خطر مابقيت هذه المرأة هنا

ـ لا تخافى أبدا فسوف أهتم بنفسى

ـ هل ذهب الآن ياسيدى ذلك الخطر الذى كنت تخشاه ؟

ـ لا أستطيع الجزم بذلك حتى يخرج ميسون من انجلترا .. ولا حتى بعد ذلك !.. ان من يريد الحياة لاجلى انما يقف على أديم بركان قد ينفجر يوما ويرسل حمما من نار

ـ ولكن مستر ميسون يبدو رجلا سلس القياد ، واقعا تحت تأثيرك بحيث لا يقوى اطلاقا على أن يتحداك أو يتعمد ايذاءك

ـ أوه .. كلا ! ان ميسون لن يتحدانى ولن يمسنى عامدا بأذى ولكنه ربما

تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها ، فى حرمانى الى الابد من السعادة ، ان لم يكن من حياتى !

– اطلب منه ياسيدى ان يكون على حذر ٠٠ دعه يعرف ماتخشاه ، بين له كيف يتحاشى الخطر

فضحك فى استخفاف ، وأسرع يتناول يدى ، ولكنه سرعان كذلك ماألقاها عنه قائلا : « اذا كان هذا فى وسعى ياساذجة فمن أين يتأتى الخطر ؟ خطر الموت والاعدام فى لحظة واحدة ؟٠٠ منذ عرفت ميسون وأنا أقول له : «افعل هذا » فيفعله ، ولكنى لا أستطيع ان ألقى عليه أوامرى فى هذا الصدد ٠٠ لايمكن ان أقول له : « حذار من ايذائى ياريتشارد ! » ٠٠اذ يجب انيجهل ان ايذائى أمر ممكن ٠ والآن يبدو لى أنك حائرة ولن أحيرك أكثر من هذا ٠٠ انك صديقتى ، ألست كذلك ؟ »

– بودى ان أخدمك ياسيدى وان أطيعك فى كل ماهو حق

– تماما ٠٠ أراك تفعلين ذلك ، وأرى آيات الرضاء التام فى مشيتك وفى طلعتك وفى عينيك ووجهك عندما تعاونينني وتحاولين ارضائى وتعملين منأجلى ومعى « فى كل ما هو حق » كما تقولين ٠٠ ولو اننى طلبت اليك أن تفعلى ماترينه خطأ لما تجلت عليك أمارات النشاط فى خطوك الرشيق ، ولا هذه الخفة فى يديك النظيفتين ، ولا هذه الحياة والملاحة فى أساريرك ،ولاستدارت صديقتى بوجه هادىء شاحب قائلة : « كلا ياسيدى ٠ هذا مستحيل ٠ لا أستطيع ان أعمل ذلك لانه يجافى الحق والصواب ! » ، دون أن يزعزعها أو يغيرها شىء ٠ وكأنها نجم ثابت فى مكانه ٠ وانت ٠٠ ان لك سلطانا على، وفى وسعك أن تؤذينى ، ومع ذلك لا أجرؤ على ان أكشف لك عن موضع الضعف والالم فى نفسى ، خشية ان تطعنينى فى الحال على الرغم من اخلاصك وصداقتك !

– اذا كانت خشيتك من مستر ميسون لا تعدو خوفك منى فاطمئن الى سلامتك ياسيدى

– هذا ما أرجوه من الله ٠٠ هذه ظلة ياجين فاجلسى !

★ ★ ★

◆ وكانت الظلة عبارة عن قبو فى الجدار ، مبطن بأشجار العليق ، وتضم أريكة قديمة جلس عليها مستر روشستر بحيث أفسح لى مكانا الى جانبه ، ولكنى وقفت أمامه فقال : « اجلسى فان الاريكة طويلة تتسع لنا نحن الاثنين ٠٠ لا ترددى فى الجلوس بجانبى ٠ أليس كذلك ؟ هل هذا يجافى الحق والصواب ياجين ؟ » ٠٠ فرددت بالامتثال لاننى رأيت فى الرفض ما لا يتفق مع الحكمة

ـ والآن ياصديقتى الصغيرة ، بينما الشمس تشرب الندى ، وبينما الزهور جميعها فى هذه الحديقة تصحو من غفوتها وتترعرع ، والطيور تجىء لصغارها بالفطور من حقل الغلال ، والنحل يشرع مبكرا فى أولى نوبات عمله ، سأضع بين يديك قضيتى التى يجب أن تعتبريها قضيتك .. ولكن أنظرى الى أولا ، وخبرينى انك مرتاحة لا تحسبيننى مخطئا فى احتجازك ، وانك لست مخطئة فى بقائك

ـ كلا ياسيدى . أنا راضية

ـ اذن استعينى بخيالك وافرضى انك لم تعودى فتاة حسنت تربيتها ونشأتها ، وانما انت فتى شرس انغمس منذ نعومة أظفاره فى المظاهر الزائفة. وتخيلى نفسك فى بلد أجنبى بعيد ، وتصورى انك ارتكبت هنالك خطيئة كبرى تتبعك عواقبها الوخيمة ـ مهما تكن طبيعتها أو الدوافع اليها ـ طوال العمر وتنغص عليك حياتك . تذكرى اننى لم أقل « جريمة » ، واننى لا أتحدث عن اراقة دم أو أى عمل اجرامى آخر يجعل مرتكبه مسئولا أمام القانون ، ولكنى أقول « خطيئة » . ولقد غدت نتائج هذه « الغلطة » لاتطاق، ولا سبيل الى التخلص منها ومن عذابها.وتظلين تتخذين التدابير للخلاص ، وهى تدابير غير عادية ولكنها لا تنافى القانون ولا تدعو للوم ، ومع ذلك فأنت تعسة بائسة ، لان الامل قد أغلق فى وجهك وانت مازلت على أبواب الحياة ، ولان شمس حياتك قد كسفت فى رائعة النهار ولا أمل فى أن تشرق منجديد قبل أن يأتى المساء ويحين الغروب .. وأصبحت الجماعات الوضيعة القذرةهى الغذاء الوحيد للذكرى ، فاذا بك تهيمين على وجهك هنا وهناك بحثا عنالراحة فى هذا المنفى ، وتنشدين السعادة فى اللهو ، وأعنى اللهو الجثمانىالشهوانى الذى لا يمت الى القلب بصلة ، ولذلك فهو يظلم العقل ويؤذى الشعور .. ثم تعودين الى وطنك بعد سنوات من النفى الاختيارى ، وانت مثقلة القلبكسيرة الوجدان ، لتجدى صديقا جديدا ـ لايهم كيف تجدينه ولا أين ـ وتلمسى فى هذا الغريب كثيرا من الفضائل الطيبة والسجايا المشرقة التى ظللت تبحثين عنها عشرين عاما دون أن تهتدى اليها .. وكلها طاهرة نقية لاغبار عليها ولا وصمة تشينها . مثل هذه الصحبة تحيى موات النفس ، وتجدد القلب ، فتشعرين بأن أيامك الحلوة قد عادت ومعها أمانيك العالية وأحاسيسك النقية، وترغبين فى أن تبدئى حياتك من جديد ، لتقضى بقية العمر فى سعادة خليقة بانسان خالد .. ولكن ، هل يجوز لك ـ لتبلغى هذه الغاية ـ ان تتخطى عقبة العادات .. تلك العقبة التى لايقرها ضمير ولا يتقبلها عقل وتمييز ؟

وتوقف فى ارتقاب الرد ولكن ماذا كان عساى ان أقول ؟.. ومن اين كانت لى القدرة على اقتراح جواب حكيم مقنع ؟.. ياله من طموح عابث !.. وهمست رياح الغرب فى أشجار العليق المحيطة بى ، ولكن روحا من الارواح

الرقيقة لم تعرنى لسانها لاقوى على النطق ، بينما راحت الاطيار تغنى على منابر الاشجار • وان كان غناؤها ـ على حلاوته ـ غير واضح الالفاظ •• وعاد مستر روشستر يطرح سؤاله : « هل يجوز لهذا الشريد الخاطىء ـ وقد غدا يبحث عن الراحة ويهرؤه الندم ـ أن يتحدى العالم ليضم اليه هذا الغريب الرقيق الانيس ، كيما يسترد لنفسه راحة البال ويجدد حياته ؟ » •• فأجبته: « ان راحة الشريد واصلاح الخاطىء لايتوقفان ـ ياسيدى ـ على رفيق من المخلوقات ، لان الرجال والنساء يموتون ويقضون ، ولان الفلاسفة يخطئون فى حكمهم والاتقياء قد يتخبطون فى طيبتهم واخلاصهم ، فاذا كان بين من تعرفهم شخص يتعذب ويشعر بأنه مخطىء ، فانصحه أن يتطلع الى مافوق أنداده فى التماس القدرة على اصلاح ذات نفسه وشفاء أمراضه

ـ ولكن الاداة !•• الوسيلة !•• ان الله الذى يفرض العمل ، يهيىء له الوسيلة • لقد كنت أنا ـ وهذه حقيقة وليست على سبيل المثال ـ رجلا دنيويا شهوانيا لا يقر له قرار ، وأعتقد اننى اهتديت الى الاداة لشفائى من ••

★ ★ ★

◆ وسكت ، بينما مضت الطيور فى تغريدها ، وأوراق الشجر فى حفيفها ، وكدت أعجب : كيف لاتتوقف عن شدوها وهمساتها لتلتقط هذا الاعتراف المعلق على شفتى الرجل • ولكنها كانت خليقة بأن تنتظر طويلا ، لان الصمت طال • وأخيرا رفعت رأسى الى المتحدث المتلكىء الذى كان يلتهمنى بأنظاره • وما لبث أن قال بلهجة أخرى ، وبأسارير غير أساريره السابقة اذ زايلتها الرقة والرزانة وغدت فظة متهكمة : « لقد لاحظت ولعى الرقيق بمس انجرام ، فهل تعتقدين أنها تستطيع أن تلهب فى قلبى نار الانتقام ، اذا أنا تزوجت منها ؟ » •• ثم نهض على الفور وسار الى نهاية المشى ، وما لبث ان عاد يدندن باحدى النغمات • واذ وقف أمامى قال : « جين ! جين ! انك شديدة الشحوب من جراء السهر الطويل ، فهل تسخطين على لاقلاق راحتك ؟ »

ـ أسخط عليك ؟•• كلا ياسيدى !

ـ صافحينى اذن ، تأكيدا لقولك •• يا لاصابعك الباردة ! لقد كانت دافئة فى الليلة الماضية عندما لمستها عند باب الغرفة السرية ! والآن متى تسهرين معى مرة أخرى ياجين ؟

ـ متى كانت لى فائدة ياسيدى

ـ قبل ليلة زواجى مثلا ، حين لا أقوى على النوم ؟ أتعدينني بالجلوس معى واحتمال رفقتى ؟•• اليك استطيع التحدث عن « محبوبتى » لانك رأيتها وعرفتها !

ـ نعم ياسيدى

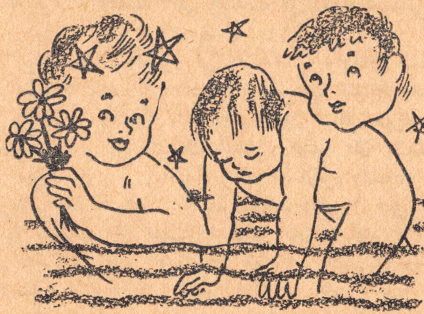
ـ انها نادرة • أليس كذلك ياجين ؟

ـ هو ذلك ياسيدى

ـ هيفاء .. هيفاء حقيقة ياجين : فارعة ، سمراء ، ممتلئة صحة وعافية ، ويشبه شعرها شعر سيدات قرطاجنة .. يا الهى ! ها هما دنت ولين فى حظائر الخيل ! اذهبى عن طريق الدغل ، خلال هذا الباب الصغير !

فذهبت من طريق ، ومضى هو من طريق آخر . وسمعته فى الفناء يقول فى ابتهاج : « لقد بكر ميسون عنكم جميعا فى الصباح ، ورحل قبل أن تشرق الشمس . وقد صحوت فى الرابعة لاودعه »

الفصل الحادى والعشرون



ان الهواجس أمور غريبة .. وكذلك العواطف والمشاركة الوجدانية ، والسمات .. وهذه الامور الثلاثة مجتمعة ، تؤلف لغزا واحـدا ، لم توفق الانسانية الى حله بعد . اننى قط لم أسخر من الهواجس فى حياتى ، لاننى خبرت ألوانا غريبـة منهـا . كمـا اننى أؤمن بوجود العواطف ، التى تحير مظاهرها العقل البشرى ، ومثال ذلك مايحدث بين قوم بعدت الشقة بينهم ، وطال غيابهم ، أو بين أقارب يعيشون أغرابا بعضهم عن بعض ، ولكنهم عـلى تباعدهم يعززون وحدة الاصل ـ الذى ينتسب اليـه كل منهم ـ اذا ما قدر لهم أن يلتقوا .. أما السمات ، أو النذر الخفية ، فخليق بنا ان نعرف انها ليست سوى مشاركة وجدانية بين الطبيعة والانسان !.. ولقد حدث عندما

كنت صغيرة ، لا أتجاوز السادسة من عمرى ، ان سمعت « بيسى ليفن » ـ المربية بقصر (جيتسهيد) ـ تقول ذات ليلة للخادم « مارتا آبوت » انها رات فى المنام طفلا صغيرا ، وان رؤية الاطفال فى الاحلام نذير مؤكد بمتاعب توشك ان تحل بالمرء ، أو احد أقاربه ٠ وكان من المحتمل ان ينمحى هذا الحديث من ذاكرتى ، لولا ان وقع فى أثره مباشرة ظرف ألصقه بذاكرتى ، اذ دعيت بيسى فى اليوم التالى الى أهلها ، حيث كانت أختها الصغيرة تحتضر !

وكثيرا ماتذكرت هذا الحادث وذلك الحديث ، فى الفترة الاخيرة ، اذ لم تكن تمر بى ليلة ـ خلال الاسبوع الماضى ـ دون أن أحلم بطفل وليد ،أهدهده أحيانا بين ذراعى ، أو أدلله على ركبتى فى أحيان أخرى ، أو أرقبه وهويلعب بالزنابق فى المروج ، أو يغمس يديه فى المياه الجارية ٠٠ وكنت أراه طفلا كثير العويل فى احدى الليالى ، وطفلا ضاحكا فى ليلة أخرى ، يتمسح فى أحيانا ، ويهرب منى أحيـانا أخرى ٠ وكيفمـا تشكلت الرؤيا ، وأيا كان موضوعها ، فانها ظلت تتعقبنى سبع ليال متوالية ، تواتينى بمجرد دخولى عالم النعاس !

ولم يستهونى ذلك التكرار لفكرة واحدة ٠٠ ذلك التواتر الرتيب لصـورة لا تتغير ، حتى لقد غدت أعصـابى تهتاج كلما حان موعـد ايوائى للفراش واقتربت ساعة ظهور الرؤيا ٠ ولقد كنت فى رفقة طيف هـذا الطفل عندما صحوت فى تلك الليلة المقمرة على صرخة ميسون ٠ وبعد ظهر اليوم التالى ، دعيت للنزول الى الطابق الاسفل ، لان شخصا كان يريدنى فى حجرة مسـز فيرفاكس ٠ وهناك وجدت رجلا ينتظرنى ، ويبدو من مظهره انه خادم لاحد السادة ٠٠ وكان يرتدى ثوب الحداد ، ويمسك بيده قبعة حولها شريط اسود٠ فلما رآنى ، وقف قائلا : « اغلب الظن أنك لا تكادين تذكريننى يا آنسـة ، ولكن اسمى ليفن ، وقد عملت حوذيا لدى مسز ريد عندما كنت فى(جيتسهيد) منذ ثمانى أو تسع سنوات ، وما زلت أعمل هنالك حتى الآن »

ـ أوه ٠ روبرت !٠٠ كيف حالك ؟ اننى أذكرك جيدا ، فقد كنت احيانا تسمح لى بأن أركب فرس مس جورجيانا ٠ وكيف حال بيسى ؟٠٠ انكمتزوج؟

ـ نعم يا آنسة ٠ ان زوجتى موفورة الصحة ، فشكرا ، وقد ولدت لى طفلا آخر منذ شهرين ، فصار لدينا الآن ثلاثة ٠٠ وهم وأمهم بخير !

ـ وهل الاسرة فى القصر بخير كذلك ياروبرت ؟

ـ يؤسفنى اننى لا أحمل لك أنباء سارة عنهم ، لانهم الآن فى حالة سيئة جدا

فقلت وأنا أرنو الى ملابسه السوداء : « أرجو أن لا يكون قد مات أحدمنهم»

ـ لقد مات مستر جون فى مثل البارحة من الاسبوع الماضى بمسكنه فىلندن

ـ مستر جون ؟

ـ نعم

ـ وكيف احتملت أمه المصاب ؟

ـ لم يكن يا آنسة مصابا عاديا ، فقد كانت حياته غاية فى التهور ، اذ انغمس فى السنوات الثلاث الاخيرة فى مسالك عجيبة ، وكانت وفاته أليمة !

ـ سمعت من بيسى انه لم يكن يحسن التصرف

ـ يحسن التصرف ؟.. لم يكن هناك أسوأ مما فعل ، فقد قضى على صحته وأمواله بين أسوأ الاقران من رجال ونساء ، وغرق فى الديون ودخل السجون .. ولقد أعانته أمه مرتين ، ولكنه كان يعود ـ كلما أطلق سراحه ـ الى رفاقه القدامى وعاداته السابقة . ولم يكن عقله سليما فاستغفله الاوغاد الذين كان يعيش بينهم ، الى أكثر مما سمعت .. وقد جاء الى (جيتسهيد) منذ حوالى ثلاثة شهور ، وطلب الى والدته أن تنزل له عن كل شيء ، فرفضت بعد أن قلت مواردها كثيرا بسبب اسرافه وتبذيره ، فارتد عائدا ، ولم يسمع به أحد حتى جاءنا خبر موته . ولا يعرف غير الله كيف مات ، ولكنهم يقولون انه انتحر !

★ ★ ★

◆ وأخلدت الى الصمت لان الخبر كان مروعا ، فاستطرد ليفن يقول :

« ولقد كانت سيدتى ذاتها معتلة الصحة من زمن ، فهى وان ازدادت بدانة ، الا أنها لم تكن قوية ، وكان ضياع الاموال ، والخوف من الفقر يحطمانها .. ثم هبط عليها موت جون والطريقة التى قضى بها هبوط الصاعقة ، ففقدت النطق ثلاثة أيام . ولكن يبدو أن حالتها تحسنت فى يوم الثلاثاء الماضى ، اذ أظهرت انها تريد ان تفضى بشيء ، وظلت تبدى الى زوجتى اشارات وهى تتمتم ، الى أن فهمت بيسى بالامس فقط انها تنطق باسمك . وأخيرا تفوهت قائلة : « جيئونى بجين .. ابحثوا عن جين اير .. أريد ان أتحدث اليها !» . ولم تكن بيسى واثقة من انها فى تمام عقلها ، ومن انها تعنى ما قالت ، ولكنها أخبرت ابنتيها ، وأشارت عليهما بدعوتك ، فأهملت الاثنتان الامر فى البداية . ولكن القلق استبد بأمهما ، وراحت تردد اسمك كثيرا ، ولذلك قبلتا أخيرا أن ترسلانى فى طلبك ، فغادرت (جيتسهيد) بالامس . فاذا أمكنك التأهب يا آنسة عدت بك فى ساعة مبكرة من صبيحة الغد

ـ نعم ياروبرت ، لسوف أستعد ، اذ يبدو من الجدير بى ان أذهب اليها

ـ هذا هو رأيى كذلك يا آنسة ، وقد قالت بيسى انك لن ترفضى ، ولكنى أظنك فى حاجة الى الاستئذان قبل الرحيل

ـ نعم وسأفعل هذا الآن

ثم قدته الى حجرة الخدم ، وأوصيت به زوجة جون ، بل وجون نفسه ، ثم خرجت أبحث عن مستر روشستر ٠٠ ولكنـــه لم يكن فى أية غرفة من غرف الطابق الارضى ، ولم يكن كذلك فى الفناء ، ولا فى حظائر الخيل ٠ وسألت مسز فيرفاكس عما اذا كانت قد شاهدته ، فأخبرتنى بأنها رأته ، وانها تعتقد انه يلعب البليارد مع مس انجرام ، فأسرعت الى غرفة البليارد ، وكان صوت ارتطام الكرات ، وغمغمة الاصوات تنبعث من هناك ، حيث وجـدت مستر روشستر ومس انجرام وفتاتى ايشتون والمعجبين بهما ، وقد انهمكوا جميعا فى اللعب ٠ وكنت فى حاجة الى جرأة لكى أزعج خاطر مثل هـذه الجماعة اللاهية ، ولكن مهمتى لم تكن من نوع أملك ارجاءه ، فاقتربت من السـيد ، وكان يقف بجانب مس انجرام التى استدارت ناحيتى عندما اقتربت منهما ، وتطلعت الى فى تعال وكبرياء وقد بدا فى عينيها انها تسأل : « ماذا يمكن أن تريد هذه الحشرة الزاحفة الآن ؟ » ٠ وعندما قلت فى صـوت خافت : « مستر روشستر ! » ، تحركت وكأنهـا تهم بطردى ٠ ومازلت أذكر الآن منظرها وهى تبدو غاية فى الجمال والفتنة وقد ارتدت ثوبا للصباح من الحرير الازرق ، وعقدت حول شعرها وشاحا هفهافا بلون السماء ٠ وكانت مبتهجة النفس باللعب ،و لم تخفف عجرفتها المهتاجة من الطرب الذى تجلى على قسماتها الشماء ٠٠ وتحولت تسأل مستر روشستر : « هل تريدك هذه المخلوقة ؟ »

والتفت مستر روشستر ليتبـين المخلوقة التى كانت تريده ، وسرعـان ما اختلج وجهه بحركة عجيبة ـ هى احدى ظواهره العجيبة المبهمة ـ ثم ألقى عصا البليارد ، وتبعنى الى خارج الغرفة ، فأسند ظهره الى باب حجرة الدراسة، بعد أن أغلقه ، وقال : « ماذا ياجين ؟ »

ـ أرجوك ياسيدى ان تمنحنى اجازة لاسبوع أو اثنين

ـ ماذا تصنعين بها ٠٠ الى أين تذهبين ؟

ـ لارى سيدة مريضة أرسلت فى طلبى

ـ اية سيدة مريضة ؟٠٠ وأين تقيم ؟

ـ فى (جيتسهيد) فى مقاطعة ٠٠٠؟

ـ مقاطعة ٠٠٠؟ انها على بعد مائة ميل !٠٠ من تكون هذه التى ترسل فى طلب الناس من هذه المسافة ليروها ؟!

ـ اسمها ريد ٠٠ مسز ريد

ـ ريد من (جيتسهيد) ؟ لقد كان فى (جيتسهيد) قاض يدعى ريد

ـ انها أرملته ياسيدى

ـ وما شأنك بها ؟ كيف تعرفينها ؟

ـ كان مستر ريد خالى ٠٠ شقيق والدتى

– يا لله !.. انك لم تخبريني بذلك قط من قبل ، بل كنت تقولين دائما ان ليس لك أقارب

– ليس لى أقارب يعتزون بانتسابى اليهم ياسيدى ، فان مستر ريد قد توفى ، ثم نبذتنى زوجته

– لماذا ؟

– لانني كنت فقيرة ، وعبئا ثقيلا ، وكانت تبغضنى

– ولكن هل ترك ريد أطفالا ؟.. لابد ان يكون لك أولاد خال .. وبالامس كان السير جورج لين يتحدث عن شاب يدعى ريد فى (جيتسهيد) ، قال عنه انه من شر الاوغاد فى المدينة ، كما ذكرت انجرام اسم فتاة تدعى جورجيانا ريد من نفس المكان ، كانت موضع الاعجاب الشديد لجمالها منذ موسم أو اثنين فى لندن

– لقد توفى جون ريد هو الآخر ياسيدى ، فقد أفلس ، وكاد يتسبب فى افلاس أسرته ويقال انه انتحر . وقد صدمت أمه بنبأ وفاته صدمة أصابتها بالفالج

– وماذا فى وسعك ان تفعلى من أجلها ؟ هراء ياجين ! لن أفكر قط فى قطع مسافة مائة ميل لازور سيدة ربما يعاجلها الموت قبل أن أصل اليها .. هذا الى أنك تقولين انها نبذتك

– نعم ياسيدى ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد وعندما كانت ظروفها تختلف كثيرا عما هى عليه الآن .. لن يستريح بالى اذا أنا أهملت الآن رغباتها

– كم ستمكثين هنالك ؟

– اقصر مدة ممكنة ياسيدى

– عدينى بأن تمكثى أسبوعا

– يجدر ان لا أعدك ، فقد أضطر الى الحنث بهذا الوعد

– ستعودين على أية حال ، ولن يغريك أى عذر بأن تقيمى معها اقامة دائمة

– أوه . كلا .. سأعود حتما ، اذا جرت الامور كما ينبغى

– ومن سيرافقك ؟ .. لن تسافرى مائة ميل بمفردك

– كلا ياسيدى ، فقد ارسلت سائق عربتها

– اهو شخص يوثق به ؟

– نعم ياسيدى ، فقد أقام مع الاسرة عشر سنوات

★ ★ ★

◆ وفكر مستر روشستر لحظة ثم قال : « ومتى ترغبين فى السفر ؟ »

– فى ساعة مبكرة من صبيحة الغد ياسيدى

– حسنا .. لابد لك من بعض المال ، اذ لايمكن ان تسافرى دون نقود

وأردف مبتسما : « أظنك لاتملكين كثيرا ، لانني لم أعطك مرتبك بعد ٠كم تملكين فى دنياك ياجين ؟ »

فأخرجت كيس نقودى ٠٠ وكم كان هزيلا !٠٠ وقلت : « خمسة شلنات ياسيدى ! » ٠٠ فتناول الكيس ، وأفرغ فى راحة يده ماكنت أدخره ، ثم راح يقهقه وكأنه يتلهى بضآلة هذا « الكنز » ٠ وسرعان ما أخرج حافظة نقوده ، وقال وهو يقدم لى ورقة مالية بمبلغ خمسين جنيها : « اليك ! » ٠٠ وكان مدينا لى بخمسة عشر جنيها ، فأخبرته بأننى لم أكن أملك ما أرد منه الباقى ، فقال : « لست أريد نقودا كما تعلمين ٠٠ خذى هذا أجرك ! » ٠٠ ولكننى رفضت أن آخذ أكثر مما كنت أستحق ، فتجهمت أساريره فى أول الامر ، ثم قال وكأنه تذكر شيئا : «حسنا ٠ حسنا ٠٠ يجدر بى ان لا أعطيك كل مالك حتى الآن ، فقد تمكثين ثلاثة شهور اذا أخذت خمسين جنيها ٠٠ هاك عشرة جنيهات ٠ الا تكفى ؟ »

– نعم ياسيدى وستكون الآن مدينا لى بخمسة

– عودى لاخذها اذن ، وسأكون بمثابة مصرف تودعين فيه أربعين جنيها !

– فى وسعى يامستر روشستر ان أذكر لك موضوعا خاصا بالعمل مادامت الفرصة سانحة

– موضوعا فى العمل ؟٠٠ اننى متلهف لسماعه !

– لقد تفضلت فأبلغتنى ياسيدى بأنك ستتزوج فى القريب العاجل

– نعم وماذا بعد ذلك ؟

– ينبغى فى هذه الحالة ياسيدى ان تذهب أديل الى مدرسة ٠٠ وأناواثقة من انك ستلمس ضرورة ذلك

– لابعدها عن طريق عروسى التى قد تدوسها بقدميها بشدة ؟٠٠ ان اقتراحك معقول ، ويجب بلا شك أن تذهب أديل الى المدرسة كما تقولين ٠ أما أنت فيجب بطبيعة الحال ان تمضى مباشرة ٠٠ الى الشيطان ؟!

– أرجو غير ذلك ، ولكن يجب ان أبحث عن عمل آخر فى مكان ما !

فصاح بصوت رنان وقد تقلصت أسارير وجهه بصورة غريبة تبعث على الضحك : « أظنك ستتوسلين الى مدام ريد العجوز أو ابنتيها ان تبحث لك احداهن عن عمل ؟ »

– كلا ياسيدى ، لست على وفاق مع قريباتى بحيث أسألهن فضلا ٠٠ولكننى سأعلن فى الصحف

فزمجر قائلا : « انك لن تلبثى ان تطمعى فى تسلق أهرام مصر !٠٠ انك تخاطرين بالاعلان ، فليتنى أعطيتك جنيها واحدا بدلا من عشرة ٠ أعيدى الى تسعة جنيهات ياجين ، فاننى بحاجة اليها » ٠ فقلت وأنا أخفى يدى والكيس

خلف ظهرى : « وانا فى حاجة اليها كذلك ، ولا أستطيع التخلى عنها بحال من الاحوال ! »

ـ يالك من بخيلة صغيرة !٠٠ أترفضين تقديم مساعدة مالية لى ؟٠٠ هاتى خمسة جنيهات ياجين

ـ ولا خمسة شلنات ياسيدى ٠٠ بل ولا خمسة بنسات

ـ دعينى فقط ألقى نظرة على نقودك

ـ كلا ياسيدى فلست أثق فيك

ـ جين !

ـ سيدى ؟

ـ عدينى بشىء واحد

ـ سأعدك بكل ما أرانى قادرة على الوفاء به

ـ لاتعلنى فى الصحف ، واتركى التماس الوظيفة لى ، وأعدك بأن أجدها لك فى الوقت المناسب

ـ يسعدنى ان تفعل ذلك ياسيدى ، على أن تعدنى بدورك ان أكون وأديل فى مأمن بعيد عن القصر ، قبل ان تلجه عروسك

ـ حسنا جدا ٠٠ حسنا جدا ٠٠ أقسم على ذلك !٠٠ هل ستسافرين غدا ؟

ـ نعم ياسيدى ٠ فى ساعة مبكرة

ـ هل ستنزلين الى حجرة الاستقبال بعد العشاء ؟

ـ كلا ياسيدى ٠ يجب ان أتهيأ للرحيل

ـ اذن الا يجب ان يودع أحدنا الآخر لفترة وجيزة ؟

ـ أظن ذلك ياسيدى

ـ وكيف يؤدى الناس الوداع ياجين ؟ ٠٠ علمينى لاننى لست خبيرا بذلك

ـ انهم يقولون « مع السلامة » ، أو شيئا من هذا القبيل يفضلونه

ـ اذن ، قولى ذلك

ـ استودعك الله يامستر روشستر الى حين

ـ وماذا ينبغى ان أقول ؟

ـ نفس العبارة اذا شئت ياسيدى

ـ استودعك الله يامس اير الى حين ٠٠ أهذا كل شىء ؟

ـ نعم

ـ أراها عبارة لاتروق لذوقى ٠٠ فهى جافة ، غير ودية ٠٠ بل أحب عبارة أخرى تضاف الى هذه الطقوس ، كأن نتصافح ٠ ولكن كلا ٠٠ هذا أيضا لايكفينى ، فهلا تفعلين غير قولك « استودعك الله » ياجين ؟

ـ هذا يكفى ياسيدى ، فان النية الطيبة يمكن ان تتمثل فى كلمة واحدة صادرة من القلب ، تؤدى ماتؤديه الكلمات المتعددة

ـ هذا محتمل ، ولكن عبارة « استودعك الله » هذه ، جوفاء باردة
وسألت نفسى : « الى متى سيقف هكذا وظهره الى الباب ؟٠٠ اننى أريد ان أسرع الى حزم أمتعتى ! »
ودق جرس العشاء ، وعندئذ غادرنى على الفور دون ان ينطق بحرف آخر٠ ولم أره مرة أخرى طوال اليوم ، ثم رحلت قبل ان يستيقظ فى الصباح

★ ★ ★

♦ بلغت قصر (جيتسهيد) فى حوالى الخامسة بعد الظهر من أول مايو ، فدخلت الى مسكن البواب قبل ان أسعى الى البهو ٠ ووجدت المسكن نظيفا ، أنيقا ، وقد تدلت على النوافذ المزينة ستائر صغيرة بيضاء ، وبدت الارضية غاية فى النظافة ، بينما كانت المدفأة تلمع وقد اشتعلت فيها النيران المتوهجة٠ ورأيت بيسى جالسة على أريكة بقرب المدفأة ، ترضع وليدها ، بينما كان روبرت وأخته ـ ابناها الآخران ـ يلعبان بهدوء فى أحد الاركان ٠ وعندما دخلت صاحت مسز ليفن : « ليباركك الله ! كنت أعرف أنك سوف تأتين ! » ٠٠ فقبلتها وقلت : « نعم يابيسى ، وأرجو ألا أكون قد تأخرت ٠ كيف حال مسز ريد ؟ أرجو ان تكون على قيد الحياة »
ـ نعم انها على قيد الحياة ٠ بل هى أكثر انتباها واستجماعا لقواها عما كانت ، ويقول الطبيب ان حياتها قد تطول أسبوعا أو اثنين ، ولكنه لايؤمل فى أن تشفى نهائيا
ـ هل ذكرت اسمى أخيرا ؟
ـ كانت تتحدث عنك صباح اليوم وتتمنى مجيئك ، ولكنها الآن نائمة ، أو هى كانت كذلك ، عندما كنت بالطابق العلوى منذ عشر دقائق ٠ وهى تغرق عادة فى سبات عميق طوال النهار ، ولا تصحو قبل السادسة أو السابعة ٠ هل تستريحين هنا ساعة يا آنسة ثم أصعد معك ؟
وعندئذ دخل « روبرت » ـ زوجها ـ فوضعت طفلها النائم فى مهده ، ومضت لتستقبله ، ثم ألحت فى ان أخلع قلنسوتى ، وان أتناول الشاى ، لاننى ـ كما قالت ـ كنت أبدو شاحبة متعبة ٠ وفرحت بحفاوتها ، فتركتها تخلع عنى معطف السفر ، كما كانت تفعل وأنا طفلة صغيرة ٠ وتزاحمت على رأسى ذكريات الماضى ، وأنا أرنو اليها وهى تتحرك هنا وهناك : تعد الصينية وطاقما أنيقا من الصينى ، ثم تقطع الخبز والزبد ، وتقدد الكعك ، وتربت بين الفينة والاخرى على روبرت الصغير ، أو جين الصغيرة ، بمثل ماكانت تفعل معى فى الايام السالفة ، فقد ظلت بيسى محتفظة بطابعها الرشيق وخطوها الخفيف ونظراتها الطيبة !

ولما أعد الشاى ، هممت بالاقتراب من المنضدة ، ولكنها طلبت منى - بلهجتها القديمة الحازمة - أن أجلس فى مكانى ، كى تقوم هى بخدمتى وأنا فى جلستى بجوار المدفأة • ثم وضعت أمامى منضدة صغيرة يعلوها قدح وطبق به الخبز المقدد •• تماما كما اعتادت أن تتوفر على راحتى ، وتقدم لى بعض الطعام اللذيذ الخاص ، الذى كانت تسرقه وتحمله الى ! فابتسمت وأذعنت كما كنت أفعل فى الايام الخالية

وأرادت أن تعرف هل كنت سعيدة فى قصر (ثورنفيلد) ، وكيف كانت مخدومتى ، فلما أخبرتها بأن سيد القصر أعزب ، سألتنى عما اذا كان ظريفا ، وهل ملت اليه ، فقلت لها انه رجل دميم ، ولكنه سيد بالمعنى الصحيح ، وانه يعاملنى برفق ، مما يجعلنى راضية • ثم أخذت أصف لهـا المدعوين المرحين الذين كانوا يقيمون فى القصر منذ عهد قريب ، فراحت تصغى الى التفاصيل باهتمام لانها كانت من الموضوعات التى تحبها وتبتهج لسماعها •• وسرعان ما انقضت ساعة فى مثل هذا الحديث ، فقامت تلبسنى قلنسوتى ، ومعطفى ، ثم غادرت مسكن البواب الى القصر وأنا فى رفقتها ، كما كنت أرافقها منـذ تسع سنوات ، يوم هبطت الممر - الذى أخذت أصعده الآن - مغادرة القصر فى صباح يوم غائم قارس من أيام يناير ، وقلبى زاخر بالالم والمرارة لذهابى الى ملجأ (لو وود) البعيد ، كما لو كنت مذنبة أو منبوذة • ومرة أخـرى نهض أمامى ذلك السقف الذى كان يخيم على أعداء لى ، فاذا الشك يملأ قلبى والالم يحز فى نفسى ، فأشعر بأننى شريدة تهيم على وجـه الارض • ولـكن سرعان ماعاودتنى الثقة بالنفس ، وبقدرتى ، فخفت حدة الشعور بالظلم ، والتأم جرح الشرور التى نزلت بى ، وانطفأت نيران السخط المتأججة فى صـدرى • وقالت بيسى وهى تتقدمنى خلال البهو : « ستذهبين أولا الى حجـرة الافطـار لان السيدتين الصغيرتين ستكونان هنالك »

★ ★ ★

◆ ودخلت الحجرة بعد لحظة ، فوجدت كل شيء بها كما كان يوم قدمت لاول مرة الى مستر بروكلهيرست ، ولكنى وجدت أهل القصر قـد تغيروا حتى كدت لا أعرفهم •• فقد ظهرت امامى شابتان ، احداهما فارهة الطول - فى قامة مس انجرام تقريبا - مسرفة فى النحافة ، ذات وجه شاحب زاده ثوبها الاسود البسيط شحوبا ، وقد علقت فى صـدرها مسبحـة وصليبـا كاحـدى الراهبات ، فأيقنت أنها « اليزا » ، وان لم أعثر على شيء من وجوه الشبه بينها فى حاضرها وبين ما كانت عليه وهى طفلة صغيرة •• وكانت الاخرى جورجيانا ، بلا ريب • ولكنها لم تكن « جورجيانا » الفتاة النحيلة التى أتذكرها عندما كانت فى الحادية عشرة من عمرهـا ، وانما صـارت شـابة بدينة ، جميلة

الاسارير ، ذات عينين ناعستين زرقاوين ، وشعر ذهبى . وكانت ترتدى ثوبا اسود كذلك ، ولكنه من طراز حديث ، غير طراز ثوب أختها المحتشم . وكان فى كل من الفتاتين شبه بأمهما . واذ تقدمت نحوهما ، قامتا لتحيتى ، وخاطبتنى كلتاهما باسم « الآنسة اير » . ونطقت اليزا تحيتها بصوت مقتضب دون أن تبتسم ، ثم عادت فجلست وراحت تحدق فى الموقد وكأنها نسيتنى . أما « جورجيانا » فقد أضافت الى قولها : « كيف حالك ؟ » ، وبضعة أسئلة عادية عن رحلتى والطقس وغير ذلك بصوت متراخ ، بطىء ،وهى ترمقنى من زاوية عينها ، وتتفحصنى من مفرقى الى أخمص قدمى

ولقد كان للفتاتين طريقة خاصة فى التهكم على دون أن تعبرا عن ذلك بالكلام ، وذلك بالاستعانة بنظرة خاصة متعجرفة ، وبلهجة باردة تزخر بعدم الاكتراث ، دون الالتجاء الى كلمة أو عمل ينم عن فظاظة . على أن السخرية لم تعد تؤثر فى ـ سواء كانت مستترة أو صريحة ـ كما كانت تؤثر من قبل .. وأدهشنى ـ اذ جلست بين ابنتى خالى ـ أن أتبين كيف احتملت فى يسر اهمال احداهما لشأنى ، وسخرية الاخرى منى . ذلك لاننى كنت افكر فى أشياء أخرى : فقد استيقظ فى نفسى خلال الشهور الاخيرة من المشاعر ما لا يقوى أى شىء آخر على اثارته .. واهتاجت فى صدرى من الآلام والمسرات ماكان يفوق أى شىء فى وسعهما ان يهيجاه .. ومن ثم فلم أحفل بما كان يبدو منهما من طيبة أو شر . وما لبثت ان التفت الى جورجيانا متسائلة فى هدوء : « كيف حال مسز ريد ؟ » .. فقالت : « مسز ريد ؟.. آه ، تعنين ماما !.. انها فى حال سيئة ، وما أظنك ستتمكنين الليلة من رؤيتها ! »

ـ أكون شاكرة لو صعدت الى غرفتها وأبلغتها اننى قد وصلت

فارتجفت وأمعنت فى النظر الى بعينيها الزرقاوين .. واستطردت أقول : « الذى أعلمه انها ترغب فى رؤيتى بصفة خاصة ، ولا احب ان أؤجل رغبتها هذه ما استطعت » .. فقالت اليزا : « ان والدتى تكره أن يقلق راحتها انسان فى المساء » .. وسرعان مانهضت فتناولت قلنسوتى وقفازى بهدوء ، قائلة اننى سأذهب الى بيسى التى أتوقع وجودها فى المطبخ ، لاسالها عما اذا كان فى وسعى أن أقابل مسز ريد فى تلك الليلة . واذ وجدت بيسى بعثت بها فى تلك المهمة ، وبدأت فى اتخاذ اجراءات أخرى . ولقد كنت فيما مضى أجفل من التحدى ، ولو اننى قوبلت منذ عام بمثل هذه المقابلة الفاترة لكنت قد غادرت (جيتسهيد) فى الصباح التالى .. ولكننى ـ فى هذه المرة ـ رأيت ان مثل هذا التفكير ينطوى على حماقة ، لاسيما بعد ان قطعت مائةميل لارى خالتى ، ومن ثم كان لابد من ان امكث حتى تتحسن حالها او تموت .

أما صلف ابنتها أو حماقتها فمسألة كان من الواجب ان أدعها جانبا وألا أفكر فيها ، ولذلك خاطبت مدبرة المنزل ، وطلبت اليها أن تعد لى حجرة ،وأخبرتها بأننى قد أظل ضيفة هنا لمدة اسبوع أو اثنين ، ثم امرت بان تحمل حقيبتى الى حجرتى وتبعتها الى هنالك • ولكننى التقيت ببيسى عند رأس الدرج فلما رأتنى قالت : « ان السيدة مستيقظة ، وقد أخبرتها بقدومك • تعالى لترى هل تعرفك الآن ! »

★ ★ ★

◆ ولم أكن فى حاجة الى من يقودنى الى الغرفةالمعروفة التى طالما استدعيت اليها فى الماضى ، لاستمع الى كلمات التأنيب والتقريـــع • فتقدمت بيسى ، وفتحت الباب بهدوء •• ورأيت مصباحا تحيط به ظلة على المنضدة ، اذ كان الظلام قد بدأ يرخى أستاره • وكان السرير الكبير ، ذو الاعمـــدة الاربعة ، والستائر العنبرية اللون ، قائما كما عهدته منذ زمن بعيد •• كذلك شاهدت منضدة الزينة ، والمقعد ذا المسندين ، والمقعد الصغير الذى كثيرا ماحكم عـــلى بأن أركع عليه وأطلب المغفرة والصفح عن الذنوب التى لم أرتكبها !••وتطلعت الى ركن قريب ، وأنا أتوقع ان أرى جسدا نحيلا بغيضا يقبع فيه ، فىارتقاب أن ينقض على كالعفريت ويوثق يدى المرتعدة أو عنقى •• وأعنى جسد جون ريد كما كان فى الماضى !•• ثم اقتربت من الفراش ، وفتحت الستائروانحنيت على الوسائد العالية



وكنت أذكر وجه مسز ريد ، فنظرت فى لهفة الى صورتها المـألوفة • ومن بواعث الغبطة ان الزمن يطفىء الرغبة الجامحة فى الانتقام ، ويخمد جذوةالحقد والكراهية •• فلقد فارقت هذه المرأة وقلبى زاخر بالمرارة والبغضـاء ، ولكنى عدت اليها الآن وليس فى نفسى سوى الاسى لآلامها والرغبة القوية فى ان

انسي واصفح عن كل أذاها ، وأن نتصافى وامسك يدها في حب ومودة ٠٠ ورايت الوجه المألوف بصرامته وقسوته ٠ وشاهدت عينيها الغريبتين اللتين لم يكن أي شيء يقوى على أن يلين نظراتهمـــا ٠٠ ورايت الجبين المرتفع الآمر المستبد ، الذى طالما قطب في وجهي متوعدا ، ناقما ٠٠ وعادت الى ذاكرتي فظائع الطفولة وأحزانها وأنا أرقب ذلك الجبين !٠٠ ومع ذلك فانني ملت عليها وقبلتها ، فنظرت الى وقالت : « أهذه جين اير ؟ »

ـ نعم ياخالتي ريد ٠ كيف حالك ياخالتي العزيزة ؟

وكنت قد أقسمت ذات مرة ان لا أدعوها خالتي ، ولكنني لم أر ذنبا في ان أنقض هذا القسم الآن ٠ وكانت أصابعي قد أطبقت على يدها ، التي أبرزتهـــا فوق الغطاء ، ولو أنها أطبقت بدورها على أصابعي لشعرت بغبطة صـــادقة ، ولكن يبدو ان الطبائع الجافة ، لاتلين بتلك السرعة ، وان البغضاء الطبيعية لا تجتث بسهولة ٠ اذ أن مسز ريد سحبت يدها بعيدا ، وأشـــاحت عني بوجهها ، وقالت ان الليـــل حار ، ثم عادت ترمقني بنظرات باردة كالجليد ، فأدركت في الحال أن رأيها في وشعورها نحوى لم يتغـيرا ولا يمكن أن يتغيرا ، كما أدركت من عينها الجامدة المتحجرة التي لاتلين أو تدمع ، انها مصممة على أن تتهمني بالشر الى النهاية ، لانها اذا اعتقدت انني طيبة فلن تصيب سرورامن ذلك وانما سيتولاها شعور بالكمد والغم !٠٠ وأحسست بألم ، ثم بغيظ ، ثم بعزم على اذلالها ٠٠ على أن أكون سيدتها برغم طبيعتها وارادتها معا ٠ وكانت دموعي قد طفرت كعادتي في الطفولة ، ولكنني سرعان ما رددتها الى مآقي ، وجئت بمقعد الى جوار الفراش ، وجلست ثم انحنيت على الوسادة قائلة : « لقد أرسلت في طلبي ، وهأنذى وقد اعتزمت البقاء حتى أرى كيف تتطور حالتك»

ـ أوه ٠ بالطبع ٠ هل قابلت ابنتي ؟

ـ نعم

ـ حسنا ٠٠ يمكن ان تخبريهما انني أريد ان تبقى هنا الى أن أتمكن من محادثتك في أمور تدور برأسي ٠ لقد تاخر الوقت الليلة ، واني لاجد مشقة في أن أتذكرها ، ولكن ثمة شيئا واحدا أريد ان أقوله ٠ دعيني أرى ٠٠٠

★ ★ ★

وتبين لى من نظرتها الحائرة وتغير لهجتها مبلغ ما أصاب جسمهاالقوى من ضعف وهزال ٠ وفيما كانت تتقلب في فراشـها ، جذبت الغطاء حـــول جسمها ، ولكن مرفقي كان مرتكزا على طرف منه ، فاهتاجت وقالت :

ـ اعتدلي في جلستك ٠ لاتضايقيني بالتشبث بالغطاء ٠ هل انت جين اير ؟

ـ انا جين اير

ـ لقد لاقيت من هذه الطفلة ما لا يتصوره انسان، فيالها من عبء ثقيل على كاهلي ، ويا للمضايقات التي كانت تحدثها في كل يوم وفي كل ساعة ، بما

كانت تبديه من نزعات غير مفهومة ، ونوبات فجائية من العنـاد والهياج ، ومراقبة دائما لكل حركة من حركاتنا .. بل اننى لاجهر بأنها خاطبتنى ذات مرة وكأنها مجنونة أو شيطانة !.. أبدا لم تحـدثنى طفلة أو تنظر الى فى حياتى كما فعلت هذه الطفلة ، ولذلك فقد اغتبطت عندما تخلصت منهاوأبعدتها عن القصر . ماحالهم معها فى (لو وود) ؟ لقد تفشت الحمى هنـاك ومات كثير من التلميذات ، ومع ذلك فانها لم تمت . ولكننى قلت انها ماتت .. وأتمنى ان تموت !

قلت : « يالها من رغبة عجيبة يامسز ريد ! لماذا تكرهينها الى هذا الحد ؟»

– لقد كنت أكره أمها دائما ، لانها كانت شقيقة زوجى الوحيدة ، وكان يحبها . وقد عارض ارادة الاسرة كلها عندما تبرأت منها لزواجها الوضيع . وعندما جاءه خبر موتها بكى كالمعتوه ، وأرسل فى طلب الطفلة رغم توسلاتى اليه ان يعهد بها الى مربية ويدفع نفقات تربيتها .. ولقد كرهتها عندماوقعت عليها عيناى لاول مرة ، اذ كانت مخلوقة سقيمة دائبة العويل والبكاء ..تبكى طوال الليل فى مهدها ، ولم تكن تصرخ من قلبها كغيرها من الاطفال ، وانمـا كانت تنشج وتتأوه وتبكى بصوت خافت . ولقد رثى « ريد » لهـا ، فكان يعطف عليها ويرعاها بنفسه ، ويعنى بها كما لو كانت ابنته .. بل وأكثر مما كان يعنى بأولاده حين كانوا فى سنها . . وكان يحاول أن يغرى أولادى على التودد لهذه المتسولة الصغيرة ، ولكن أطفالى الاعزاء لم يكونوا يطيقونها ، فغضب منهم عندما أظهروا نفورهم منها . ولقد اعتاد – أثناء مرضه الاخير – أن يرقدها معه فى فراشه ، حتى اذا لم يبق على موته الا ساعة ، أكرهنى على أن أقسم له على ان أكفلها .. وكنت أوثر ان يعهد الى بطفل مسكين من أبناء الملاجئ ، على أن يعهد الى بهذه المخلوقة !.. ولكنه كان ضعيفا .. كان ضعيفا بفطرته !.. ان جون لايشبه أباه ، وانما يشبهنى ، ويشبه اخوتى ، فهو يشبه آل جيبسون ، لا آل ريد .. آه ، كم أتمنى ان يكف عن تعذيبى بخطاباته التى يرسلها يوميا فى طلب نقود !.. لم يعد لدى مال أمنحه اياه ، فنحن ننحدر الى الفقر ، ولابد من أن أسرح نصف الخدم ، وأن أغلق جزءا من القصر ، أو أن أؤجره !.. ولست أحتمل ذلك ، ولكن ماحيلتى ؟.. ان ثلثى مواردى يذهبان فى تسديد فوائد الديون ، فان جون يقامر بدرجة بشعة ، ويخسر دائما .. مسكين ولدى !.. انه فريسة للمحتالين .. لقد انحط وتدهور .. أصبحت نظرته فظيعة ، ومظهره .. اننى لاشعر بالخجل عندما أراه !

وكان الانفعال قد استبد بها ، فقلت لبيسى التى كانت تقف عند الجانب الآخر من الفراش : « يحسن ان نتركها الآن »

– ربما يحسن بك ذلك يا آنسة ، ولكنهـا كثيرا ماتتحدث هكذا عندما يقترب الليل ، فاذا جاء الصباح هدأت

وعندما نهضت صاحت مسز ريد : « قفى ٠٠ لدى شىء آخر أود ان أقوله: انه يتهددنى ٠٠ يتهددنى دائما بموته أو موتى ، وقد حلمت به أحيانا كثيرة وهو ملقى وفى عنقه جرح ، أو بوجه منتفخ ، أسود ٠ لقد غدوت فى مأزق وثقلت همومى فماذا أفعل ؟ وكيف أحصل على نقود ؟!

فاخذت بيسي تغريها بتناول جرعة مهدئة ٠ وتمكنت من ذلك بصعوبة شديدة ، فلم تلبث مسز ريد ان هدأت ، ثم استغرقت فى النوم ٠ واذ ذاك فارقتها

★ ★ ★

❖ وانقضى أكثر من عشرة أيام قبل ان أستطيع مخاطبتها مرة أخرى ٠فقد ظلت تهرف أو تستغرق فى سبات عميق ، فأمر الطبيب بمنع كل ماقد يثير أعصابها ٠ واستطعت فى خلال هذه الفترة أن أوثق علاقاتى مع اليزا وجورجيا ٠ وكانتا تبديان فى أول الامر برودا شديدا نحوى ، فكانت اليزا تقضى سواد يومها فى الحياكة والتطريز ، أو فى القراءة والكتابة ، وهى لاتكاد تخاطبنى أو تخاطب أختها بحرف٠أما جورجيانا فكانت توجه اذ ذاك حديثا فارغا الى عصفورها « الكنارى » ، دون أن تكترث بى ! ولكننى كنت قد عقدت العزم على أن لا أدع الحيرة والحرج يتوليانى لافتقارى الى مايشغلنى ويسلينى ، فجئت معى بأدوات الرسم ، ووجدت فيها ما أنشد ٠ ورحت أحمل أقلامى وأوراقى وأجلس بجوار النافذة بعيدا عنهما ، وانهمك فيما يعن لى من مناظر تتمثل لخيالى ، الى أن شرعت صباح يوم فى رسم وجه انسان لم أحفل بشكله ولا بماهيته ، بل تناولت قلما اسود طريا ، شحذت سنه ، وعكفت على العمل، وسرعان مارسمت على الورق جبينا بارزا ، عريضا ، ووجها شبه مربع ٠٠ وسرنى هذا الشكل ، فراحت أصابعى تعمل مسرعة لتملأ الوجه بالملامح ،وكان لابد من حاجبين مستقيمين ، ثقيلين ، تحت هذا الجبين ٠٠ وتلا ذلك ـ بحركة طبيعية ـ أنف بديع الشكل ، مستقيم ، واسع الفتحتين ، ثم فم مرن ،ليس ضيقا ، فذقن تدل على العزم ، تتوسطها ثغرة غائرة ٠٠ وكان لابد من شاربين اسودين ، وبعض الشعر الاسود المسدل على الصدغين ، تتهدل منه خصلات على الجبين ٠٠ وبقيت العينان ، اذ تركتهما للنهاية ، لانهما كانتا تتطلبان عناية وجهدا ، فرسمتهما واسعتين جميلتين ، بأهداب طويلة ، سمراء ، وانسانين مؤتلقين ، كبيرين ٠ وقلت لنفسى : « بديع !٠٠ ولكنه ليس دقيق الشبه ٠ ٠ لاتزال الملامح بحاجة الى مزيد من القوة والعزم ! » ٠٠ فضاعفت من دكنة الظلال السوداء ، حتى تزداد الملامح البيضاء اشراقا ٠٠ وما لبثت لمسة أو لمستان حتى حققتا النجاح المنشود ٠٠ واذا أمامى وجه صديق ، ففيم كان يعنينى ان تولينى هاتان الفتاتان ظهريهما ؟٠٠ وتاملته ، ثم ابتسمت لهذا

الشبه الناطق ، واستغرقت فى التامل ، مغتبطة
واقتربت منى اليزا دون أن أشعر بها وسألتنى : « هل هذه صورة لانسان تعرفينه ؟ » .. فاجبتها بانها مجرد صورة رأس من وحى الخيال ، ثم بادرت أخفيها تحت الاوراق الاخرى . ومن الطبيعى اننى كذبت ، لان الصورة كانت فى الواقع تمثل مستر روشستر تمثيلا أمينا جدا ، ولكن ماذا كان يهمها أو يهم أحدا سواى من أمرها ؟.. وتقدمت جورجيانا بدورها ، فالقت نظرة .. وسرتها الرسوم الاخرى ، ولكنها وصفت الصورة الاولى بأنها : « رجل دميم ».. وتبدت الدهشة والعجب عليهما لمهارتى ، فعرضت ان أرسم لكل منهما صورة، فجلست كل منهما بدورها أمامى ، حتى رسمت لها صورة تخطيطية . وعند ذلك أخرجت جورجيانا مجموعة من صورها فى (ألبوم) ، فوعدتها بأن أضيف اليها بعض الالوان المائية ، فسرعان ماصفت نفسها ، واقترحت ان نتمشى فى الحديقة .. وقبل ان تنقضى ساعتان آخريان ، خضنا معا فى أمور خاصة وحديث شخصى ، وأتحفتنى بوصف الشتاء الذى قضته فى لندن منذ عامين ، والاعجاب الذى أثارته فى قلوب الناس هناك ، وما لقيته من ضروب الرعاية والاهتمام ، بل لقد ألمعت الماعا الى بعض غزواتها . وفى أثناء العصر والمساء ، توسعت جورجيانا فى هذه الموضوعات ، فذكرت لى أحاديث عـديدة متباينة ناعمة ، ووصفت لى وقائع غرامية . وقصارى القول قصت على رواية ضخمة عن الحياة العصرية الراقية .. وأخذت الاحاديث تتتابع يوما بعديوم ، وكانت تدور دائما حول موضوع واحد .. حول نفسها ، وعشاقها ، وشجونها .ومن عجب انها لم تشر بكلمة واحدة الى مرض أمها ، ولا الى وفاة شـقيقها ، ولا الى الحال السيئة التى تردت فيها الاسرة ، اذ كان يبدو أن أفكارها لم تكن منصرفة الا الى ذكريات المرح الماضى ، والامل فى العودة الى المباذل!.. أما أمها المريضة ، فكانت لاتراها فى اليوم سوى بضع دقائق ، لا أكثر !

★ ★ ★

◆ وظلت اليزا لاتتحدث الا لماما . وكان جليا ان ليس لديها وقت للكلام، فاننى لم أر فى حياتى انسانا أكثر انهماكا منها فى العمل ، ومع ذلك فقد كان من العسير معرفة ماتعمله ، أو بالاحرى اكتشاف ثمرة كدها واجتهادها ! وكانت تنبه الى وجوب ايقاظها فى ساعة مبكرة ، وان لم أدر فيم كانت تشغل نفسها قبل تناول الافطار .. على انها كانت بعد الفطور ، توزع وقتها أجزاء منتظمة ، وتجعل لكل ساعة مهمة معينة ، فكانت تخصص ثلاث حصص من يومها للمطالعة والقراءة فى كتاب عرفت بعد البحث والتنقيب انه كان كتابا للصلاة . واذ سألتها عن أهم ماراقها فيه ، قالت : « قواعد الصلاة » .كذلك كانت تخصص ثلاث ساعات لتطريز قماش قرمزى مربع بخيوط من القصب.

ولما سألتها عن هذا القماش الذى كان فى حجم السجادة ، قالت انه غطاء لمحراب فى كنيسة جديدة أقيمت حديثا فى (جيتسهيد) . كما انها كانت تكرس ساعتين لكتابة مذكراتها ، وساعتين للعمل بنفسها فى حديقة المطبخ ، حيث كانت تزرع الخضر . وكانت تخصص ساعة لتنظيم حساباتها ... وبدا انها كانت بذلك فى غنى عن أى زمالة أو أى حديث . واعتقد انها كانت سعيدة بطريقتها الخاصة فى الحياة ، وانها كانت مكتفية بهذه المعيشة الرتيبة التى كانت تسير على وتيرة واحدة ، فلم يكن يغضبها سوى أمر واحد ، هو ان يقع حادث عارض يحملها على تغيير نظامها الدقيق !

وأخبرتنى ذات مساء ـ وهى أكثر رغبة فى التحدث معى عن عادتها ـ ان سلوك جون وما كان يتهدد الاسرة من خراب ، قد سببا لها حزنا شديدا ، ولكنها حزمت أمرها ، لتعنى بتأمين مستقبلها .. فاذا ما ماتت أمها ـ اذ لم يكن من المحتمل أن تشفى ، أو أن تبقى طويلا على قيد الحياة ، كما قالت فى هدوء ـ فسوف تبادر الى تحقيق أمنية طالما تاقت اليها ، وهى ان تأوى الى مكان تسوده عادات منتظمة ، ولا تنفذ اليه المتاعب أبدا ، حيث تقيم بينها وبين العالم المستهتر سياجا . واذ سألتها عما اذا كانت جورجيانا سترافقها ، قالت : « بالطبع لا ! » .. فما كانت تجمع بينها وبين جورجيانا مشارب مشتركة فى أى يوم من عمريهما .. وما كانت لتحتمل معاشرتها مهما تكن الاعتبارات ، ومن ثم فلجورجيانا ان تسير فى طريقها الخاصة ، ولها ـ اليزا ـ ان تنطلق فى الطريق التى اختارتها

وكانت جورجيانا ـ عندما لاتفضى الى بدخيلتها ـ تقضى معظم وقتها فى الاضطجاع على الاريكة وهى متبرمة باكتئاب القصر ، متلهفة على ان تتلقى من خالتها دعوة الى المدينة ، قائلة : « آه لو استطعت ان أبتعد شهرا أو اثنين ، حتى ينتهى كل شىء ! » .. ولم أشأ أن أسألها عما كانت تعنيه بقولها : « حتى ينتهى كل شىء » ، ولكنى أحسبها كانت تشير الى موت أمها المنتظر ، والفترة الكئيبة التى تستغرقها مراسم الجنازة . ولم تعد اليزا تكترث عموما ببلادة أختها وشكاواها ، ولكنها حملت عليها ذات يوم بعد أن فرغت من دفتر حساباتها ، وطوت تطريزها ، اذ قالت لها : « لم يدب على الارض قط ياجورجيانا حيوان أسخف وأشد عجرفة منك ، وليتك لم تخلقى لانك لاتستفيدين من الحياة .. وبدلا من ان تعيشى من أجل نفسك وفى نفسك ومع نفسك ـ كما ينبغى لكل عاقلة ان تعيش ـ تسعين لان تكونى عالة على غيرك ! .. واذا لم تجدى من يرضى بحمل هذا العبء السمين ، الواهن ، الغث ، العديم الجدوى ، رحت تصرخين شاكية من سوء المعاملة والاهمال وسوء الحظ !.. ثم انك ترين العالم سجنا بغيضا ، اذا لم تكن حياتك مشهدا دائم التغير والاثارة !.. انك لتحتمين على الناس أن يعجبوا بك ، ويتوددوا اليك ،

ويتملقوك ، كما تحتمين وجود الموسيقى والرقص والمجتمعات والا تولاك الخمول وأدركك الموت !٠٠ أليس لك عقل يساعدك على ابتداع وسيلة تجعلك مستقلة عن كل جهد وعزيمة الا جهدك وعزيمتك ؟٠٠ خذى يوما وقسمى ساعاته بنظام، وخصصى لكل ساعة منها عملا تؤدينه ، ولا تتركى ربع ساعة ، بل ولا عشر دقائق ، ولا خمسا دون ان تفيدى منها ، وأدى كل مهمة فى موعدها وفقا للجدول ، وبنظام دقيق ، فاذا اليوم ينقضى قبل أن تفطنى الى أنه بدأ ، ولا تدينين لاحد بفضل مساعدتك على التخلص من لحظة خالية ٠٠ ولسوف تجدين انك لم تحتاجى الى أن تنشدى صحبة أحد ، ولا حديثه ، ولا عطفه ، ولا مواساته ٠٠ ستجدين ـ بايجاز ـ انك عشت كما ينبغى لاى امرىء مستقل ان يعيش ٠ خذى هذه النصيحة ـ وهى الاولى والاخيرة التى أقدمها لك ـ فلا تعودى محتاجة الى ، ولا الى أى امرىء آخر ، مهما يحدث ٠٠ أما اذا أهملتها، فامضى فى توسلاتك ، وشكواك ، وخمولك ، وتحملى نتائج حماقتك مهما تسؤ وتقسو ٠ والآن دعينى أحدثك ببساطة وصراحة ، فاستمعى الى : لسوف أنفض يدى منك بعد موت أمنا ٠٠ ومنذ اليوم الذى ينقل فيه جثمانها الى القبو ـ فى كنيسة (جيتسهيد) ـ سنفترق ، وكأن كلا منا لم تعرف الاخرى ٠٠ ولا داعى لان تحسبى اننى سأدعك ترتبطين بى بأى رباط يثقلنى، مهما يكن تافها ، لمجرد أن القدر شاء ان نولد من أم واحدة وأب واحد ٠٠ ألا دعينى أخبرك بأنه لو قدر للجنس البشرى بأسره ان يفنى ، فيما عدانا ـ أنت وانا ـ واننا مكثنا وحيدتين على ظهر الدنيا ، فسوف أتركك فى هذا العالم القديم ، واذهب الى العالم الجديد »

وأغلقت شفتيها بعد ذلك ، فردت عليها جورجيانا قائلة : « ماكان أغناك عن هذه الحملة القاسية ، فان كل انسان يعرف انك أكثر المخلوقات الكائنة أنانية وجحودا ، كما اننى أعرف كراهيتك الخالدة لى ، فقد جربتها من قبل فى الدور الذى لعبته فيما يتعلق باللورد ادوين فير ، اذ لم تطيقى أن ارتفع الى مستوى أرفع من مستواك ، أو يكون لى لقب رفيع ، أو أقابل بمظاهر الاعجاب فى الاوساط التى لاتجرئين على الظهور فيها بوجهك هذا ،فلعبت دور الجاسوسة والواشية ، وقضيت على آمالى الى الابد ! » ٠٠ وأخرجت جورجيانا منديلها ، فراحت تتمخط باكية زهاء ساعة ، بينما جلست اليزا باردة جامدة منهمكة فى التطريز بجد واجتهاد

* * *

◆ ان بعض الناس لايقيمون وزنا كبيرا للشعور الصادق الكريم ، ولكن ها هما نفسان جعلهما الافتقار الى هذا الاحساس جد مختلفتين ، فكانت احداهما

لاذعة لاتطاق ، والاخرى تافهة تستوجب الازدراء ٠٠ ذلك لان الشعور المجرد من التفكير والتمييز ليس فى الحقيقة سوى جرعة خفيفة ، بينما التفكير الذى لا يتخلله شعور ولا احساس ، لايعدو ان يكون لقمة شديدة المرارة ، عسيرة المضغ ، يشق على الانسان ان يزدردها

وكان الاصيل مطيرا شديد الرياح ، فما لبثت جورجيانا ان نامت على الاريكة وهى تتصفح احدى الروايات ، بينما ذهبت اليزا الى الكنيسة الجديدة، لحضور قداس بمناسبة عيد أحد القديسين ، فقد كانت محافظة فى أمورالدين على الشكليات والرسميات ، لايصدها أى طقس عن ان تؤدى ماتعتبره من واجباتها الدينية ٠ وكانت تذهب الى الكنيسة ثلاث مرات فى يوم الاحد ـ وفى الايام التى تقام فيها الصلوات ـ سواء أكان الجو جميلا أو رديئا

ورأيت من واجبى ان أصعد الى الطابق العلوى ، فأتفقد حال المريضة التى رقدت فى فراشها مهملة من الجميع تقريبا ، حتى من خدمها ومن ممرضتها التى كانت تتسلل من الغرفة ما استطاعت ٠ ولقد كانت بيسى أمينة حقا ، ولكنها كانت مضطرة الى العناية بأسرتها ، فكانت لا تأتى الى البهو الا اذا سنحت لها الفرصة ٠ وصح ماتوقعت فعلا ، فاذا المريضة لم يكن يرعاها أحد، ولا تقف بجانبها ممرضة ٠ وكانت نائمة وقد غاص وجهها الشاحب بين الوسائد ، وبدأت النيران فى المدفأة تخمد وتنطفىء ، فجددتها ورتبت الفراش، ثم وقفت أحدق النظر فيمن لم تعد تقوى على أن تحدق فى ٠٠ وما لبثت ان مضيت الى النافذة ، فاذا الامطار تصفع زجاجها ، والرياح تهب قوية مزمجرة ، فقلت فى نفسى : « هنا ترقد مخلوقة سرعان ماسوف تبتعد عن حرب العناصر الارضية ، فالى أين تذهب الروح التى تناضل الآن لتغادر مسكنها المادى بعد أن تنطلق متحررة ؟ »

وفيما كنت أفكر فى هذا السر العظيم ، تذكرت هيلين بيرنز ـ زميلة الدراسة ـ وكلماتها الاخيرة ، وهى على فراش الموت ، عن ايمانها واعتقادها فى المساواة بين الارواح التى تحررت من أجسادها ٠ وكنت لا أزال أصغى بفكرى الى لهجتها التى مازلت أذكرها ، كما كنت أتمثل وجهها الشاحب الواهن ، ونظرتها السامية وهى راقدة فى فراش الموت تتعجل العودة الى رب الارباب ، حين سمعت خلفى فى الفراش غمغمة صوت واهن : « من هذا ؟ » ٠٠ وكنت أعلم أن مسز ريد لم تتكلم منذ أيام ، فهل تراها أفاقت ؟٠ وذهبت اليها وقلت : « أنا ٠٠ أيتها الخالة ريد ! » ٠٠ فكان جوابها : «من ٠٠ أنا ؟ ٠٠ من انت ؟ »

وتطلعت الى فى دهشة ، ونوع من الفزع وان لم يبلغ حد الذعر المهتاج ، ثم قالت : « انك غريبة عنى تماما ٠ أين بيسى ؟ »

ـ فى المبنى الخارجى يا خالتى

ـ خالتك ؟٠٠ من ذا الذى يدعونى خالته ؟٠٠ أنت لست من آل جيبسون ! ٠٠ انني أعرف هذا الوجه وهاتين العينين وهذا الجبين ٠ انك تشبهين ٠٠ تشبهين « جين اير » !

ولم أقل شيئا مخافة أن أسبب لها صدمة اذا أنا أفصحت لها عن شخصيتى ٠٠فاسترسلت :« ومع ذلك أخشى ان أكون مخطئة لان أفكارى تخدعنى ٠٠ اننى أريد أن أرى جين اير ، ومن ثم أتوهم فيك شبها ، حيث لا شبه بينكما ! هذا الى أنها لابد قد تغيرت كثيرا فى الاعوام الثمانية التى مضت ! » ٠٠ فأخذت أؤكد لها فى رفق اننى « جين اير » التى تريد رؤيتها ٠ حتى اذا أدركت انها وعت ماقلت تماما ، أخبرتها كيف أرسلت بيسى زوجها الى (ثورنفيلد) ، وكيف لبيت الدعوة وجئت على عجل ، فقالت بعد قليل : « أنا أعلم اننى جد مريضة ، فقد حاولت منذ دقائق ان أتقلب فى فراشى ، فوجدتنى لا أستطيع الحراك ٠ يجدر بى ان أريح ضميرى قبل ان أموت لان ما نستخف به ونحن فى صحة جيدة ، يثقل كاهلنا فى مثل هذه الساعة التى أنا فيها الآن ٠٠ هل الممرضة فى الغرفة ؟٠٠ هل هناك أحد غيرك فى الغرفة ؟ »

★ ★ ★

◆ واذ أكدت لها اننا كنا وحدنا ، قالت : « حسنا ٠ لقد أخطأت فى حقك مرتين ، خطأ أندم عليه الآن ٠ فأنا أولا نكثت بالعهد الذى قطعته على نفسى لزوجى ، وهو أن أربيك كما لو كنت ابنتى ٠ وثانيا ٠٠ » ثم سكتت وراحت تحدث نفسها قائلة : « وعلى كل فليس لهذا الامر أهمية ٠٠ اننى قد أشفى ، فيكون شعورى بأننى أذللت نفسى لها ، مبعث ألم لى »

وحاولت عبثا أن تتقلب على الجنب الآخر ، فتبدلت أساريرها ، ولاح انها كانت تعانى من احساس داخلى ، لعله كان نذيرا بآخر آلامها فى الحياة ٠ اذ انها لم تلبث ان قالت : « يجب أن أتغلب على ذلك ، لان العالم الآخر أمامى ، ويحسن بى أن أخبرها ٠٠ اذهبى الى صوان ملابسى وافتحيه ، واخرجى منه خطابا ترينه هناك » ٠٠ فأطعت أوامرها ٠٠ ثم قالت : « اقرئى الخطاب ! »٠٠ وكان قصيرا ، جاء فيه :

« سيدتى

هل تتكرمين بأن ترسلى عنوان ابنة أخى جين اير ، وان تخبرينى كيف حالها لان فى نيتى أن أكتب فى القريب العاجل طالبا اليها ان تأتى الى فى ماديرا ، بعد أن بارك الله جهودى وأصبحت فى سعة ٠ ولما لم يكن لى زوجة ولا ولد ، فاننى أرغب فى أن أتبناها فى حياتى ، وأوصى لها عند موتى بكل ما أتركه

وتفضلى ياسيدتى ٠٠ الخ

جون آير ـ ماديرا »

وكان تاريخ الخطاب يرجع الى ثلاث سنوات فسألتها : « لماذا لم اسمع بهذا من قبل ؟ »

ـ لاننى كنت أكرهك كراهية بالغة ، حالت دون ان أمد لك يدا تنتشلك وترفعك . ولن أنسى سلوكك معى ياجين ولا الحقد الذى عصفت به فى وجهى ذات يوم ، ولا اللهجة التى صارحتنى بها بأنك تمقتيننى وتعتبريننى شر مخلوقة فى الوجود ، ولا النظرة والصوت اللذين لم يكونا يناسبان طفولتك عندما أكدت لى أن مجرد التفكير فى يسقمك ، واننى عاملتك بقسوة شديدة . لم يكن فى وسعى أن أنسى احساساتى عندما هببت ونفثت سموم ذهنك . لقد خفت وكأنك كنت وحشا ضاريا ، ضربته أو دفعته ، فتأملنى بعينين آدميتين ، وراح يلعننى بصوت انسانى !.. اعطينى بعض الماء .. هيا اسرعى !

فقلت وأنا أقدم لها جرعة الماء التى طلبتها : « لا تعودى يامسز ريدالعزيزة الى التفكير فى كل هذا ، دعيه ينجاب عن رأسك ، واغفرى لى حدة اللسان ، لاننى كنت يومذاك طفلة فى الثامنة أو التاسعة من العمر » .. فلم تكترث لشىء مما قلت ، وانما تنهدت ـ بعد أن تذوقت الماء ـ ثم استطردت تقول : « أقول لك اننى لم أستطع ان أنسى ما مضى ، ولكنى انتقمت لنفسى ، لاننى لم أطق ان أرى عمك يتبناك ، أو أن أراك فى راحة وهدوء ، فكتبت اليه اننى آسفة اذ أخيب رجاءه ، فان جين اير قد توفيت بحمى التيفوس فى (لو وود) ! والآن .. لك أن تكتبى ماتشائين ، وأن تكذبى قولى ، وان تكشفى عن زيفى بأسرع ماتستطيعين .. لقد ولدت ـ على ما أظن ـ لتكونى سببا فى تعذيبى ، ولولاك لما اقترفت الجرم الذى تنغص ذكراه ساعاتى الاخيرة ! »

ـ ليتك تكفين عن هذه الافكار ياخالتى وتنظرين الى بعين العطف والغفران

ـ ان لك طبعا رديئا ياجين .. طبعا لا أستطيع الى اليوم ان أفهمه ، اذ كيف استطعت الهدوء والصبر تسع سنين على معاملتنا ، ثم هببت فى السنة العاشرة كالنار العاتية العنيفة ؟ هذا ما لم أستطع ادراكه !

ـ ليست طباعى سيئة بمثل ماتتوهمين . أنا فعلا عصبية ، ولكنى لست حقودا أو محبة للانتقام . ولكم كان يسعدنى ـ فى طفولتى ـ ان أحبك لو انك هيأت لى السبيل ، وكم أتمنى الآن فى اخلاص ان أكون معك على وئام وصفاء .. هيا قبلينى ياخالتى !

وقدمت لها خدى حتى التصق بشفتيها ، ولكنها لم تقبله قائلة اننى اضايقها بالاتكاء على الفراش . ثم رغبت مرة أخرى فى أن تشرب .. ولما أسندتها بذراعى ، أمسكت يدها الباردة كالثلج ، فجذبت أصابعها الواهنة ، ونأت بنظراتها عنى .. وأخيرا قلت : « سواء أأحببتنى أم كرهتنى ، فاننى قد صفحت عنك كل الصفح ، فاطلبى من الله غفرانه ، واهدئى بالا ! »

مسكينة هذه المرأة المعذبة ! لقد ضاعت الفرصة أمامها لمحاولة تغيير طباعها

وأفكارها . وما دامت قد عاشت تكرهنى ، فسوف تقضى وهى لاتزال تكرهنى.
ودخلت الممرضة اذ ذاك تتبعها بيسى ، فتمهلت لعلى ارى دليلا على حبها ، ولكنها لم تبد شيئا من ذلك ، ثم اشتدت بها الغيبوبة فلم تفق منها حتى أسلمت الروح فى منتصف الليل . ولم أحضر موتها لاغمض عينيها ، ولا حضرته واحدة من ابنتيها ، ولكنهما أخبرتانى فى الصباح ان كل شيء قد انتهى ، فذهبت مع اليزا لنراها ، بينما انفجرت جورجيانا فى بكاء عال ، وقالت انها لاتجرؤ على الذهاب معنا . وهناك .. كانت سارة ريد مسجاة .. سارة ريد - التى كانت ذات يوم قوية نشيطة - أصبحت جامدة ساكنة ، وقد غطى جفنها البارد عينها المتحجرة . وكان جبينها وملامحها الصارمة لاتزال تكسوها مسحة الروح المتصلبة التى لا تلين ، فكانت جثة عجيبة كئيبة . ورنوت اليها فى أسى وألم ، دون ماشعور رقيق أو رثاء ، أو رجاء ، أو قنوط .. مجرد ألم من أجل همومها وشقائها ، لا لمصابى فيها ، واكتئاب وحزن - بغير دموع - أمام رهبة الموت على هذه الصورة !

ونظرت اليزا الى امها فى صمت ، ثم قالت فى النهاية : « كان يمكن بنيتها القوية ان تبلغ من العمر أرذله ، لولا ان قصف عمرها الهم والكدر ! » .. ثم امسكت لسانها نوبة من البكاء للحظة ، حتى اذا انقضت ، تحولت وغادرت الحجرة . فتبعتها دون ان تذرف احدانا دمعة واحدة !

الفصل الثانى والعشرون

❖ لم يكن مستر روشستر قد منحنى اجازة لغير اسبوع واحد ، ومع ذلك انقضى شهر قبل أن أغادر (جيتسهيد) . ولقد اردت أن أسافر بمجرد تشييع الجنازة ، ولكن جورجيانا توسلت الى أن أبقى الى ان تتمكن من السفر الى (لندن) حيث دعاها خالها مستر جبسون الذى كان قد جاء ليشرف على دفن اخته ويسوى امور العائلة . وحدثتنى جورجيانا عن خوفها من أن تترك وحدها مع اليزا ، التى لاتلقى منها عطفا فى حزنها ، ولا عونا على مخاوفها ، ولا مساعدة فى استعداداتها للسفر ، فاحتملت من ولولتها وتأوهاتها الانانية قدر ما وسعنى ، وبذلت قصارى جهدى فى حياكة ملابسها وحزمها ، ولو أنها كانت تؤثر الكسل والخمول وتتركنى أعمل وحدى ، حتى لقد قلت لها فى سريرتى : « لو قدر عليك وعلى أن نعيش معا على الدوام - يا ابنة الخال - لوجب أن نبدأ حياتنا على أساس جديد ، فما كنت أقبل فى استخذاء ان احمل العبء وحدى ، بل كنت اعين لك نصيبك من العمل ، واضطرك الى أدائه ، وإلا بقى



كما هو بلا اداء ٠٠ وكنت أصر أيضا على ان تكتمى فى صدرك بعض هذا التشدق بالكلام ، وهذه الشكاوى غير الصادقة ! ولولا أن قرابتنا هذه مؤقتة وزائلة ، ولولا ان هذا الظرف محزن ، لما رضيت من ناحيتى بهذا الوضع وهذا الاذعان ! »

وأخيرا ، ودعت جورجيانا عند سفرها ٠٠ ولكن جاء دور « اليزا » ، اذ طلبت منى هى الاخرى أن أبقى معها أسبوعا آخر ، لان خططها كانت تحتاج الى كل وقتها واهتمامها ٠ وكانت تعتزم الرحيل الى بلد غير معروف ، فكانت تقضى نهارها فى حجرتها وقد أغلقت عليها بابها بالمزلاج ، وراحت تملأ حقائبها وتفرغ ادراجها وتحرق أوراقها ، دون أن تتصل بأحد ، تاركة لى شؤون المنزل ومقابلة الزوار والرد على خطابات التعزية ٠ ثم جاءتنى صباح يوم تخبرنى أننى مطلقة الحرية ٠٠ وقالت: « اننى أشكر لك خدماتك الغالية ، وسلوكك الرشيد !٠٠ وانه لفارق كبير بين أن يعيش الانسان معك وبين أن يعيش مع مخلوقة مثل جورجيانا ! ٠٠ انك تؤدين واجبك فى الحياة بنفسك ، دون أن تكونى عالة على غيرك» ٠٠ ثم استرسلت قائلة : «غدا سأقلع الى أوروبا ٠ وسأقيم بالقرب من مدينة (ليل) فى دار دينية ، لك أن تسميها ديرا ٠ وهناك سأقضى العمر فى راحة بال وهدوء ٠ وسوف اكرس نفسى بعض الوقت لاداء الامتحان فى المبادىء الكاثوليكية الرومانية ٠٠ ثم لدراسة نظمها ، حتى اذا وجدتها ـ كما أكاد أعتقد ـ خير ما يهيىء العمل بنظام وترتيب ، اعتنقت المذهب الرومانى ، وربما دخلت الدير »

ولم أبد دهشتى ازاء ما اعتزمته ، كما لم أحاول أن أثنى ارادتها ، لاعتقادى بان هذا ربما ناسبها ، وربما كان أجدى لها ٠ وعندما ودعتنى قالت :« استودعك الله يا ابنة العمة ٠ أرجو لك أطيب التمنيات ، فانك ذات عقل لا باس به » ٠٠ فأجبتها قائلة : «وانت لست مجردة من العقل يا ابنة الخال ليزا ، ولكنك بعد عام واحد سوف تقبرين نفسك فى دير فرنسى ، وان كان هذا ليس من شانى ولا

يهمنى مادمت تجدين فى عملك هذا مايلائمك »

ـ انك على حق !

ثم سارت كل منا فى طريقها الخاص . وبما انه لن تسنح فرصة اخرى لذكرها ثانية ، أو الاشارة الى شقيقتها ، ففى وسعى أن أذكر أن جورجيانا اقترنت برجل غنى طاعن فى السن ، وان اليزا التحقت فعلا بالدير وهى الآن رئيسته ، بعد ان اجتازت المراحل الدينية ، وقد وقفت عليه حياتها .

★ ★ ★

◆ باى شعور يعود الناس الى أوطانهم بعد غياب طويل أو قصير ؟.. لست أدرى لاننى لم أجرب هذا الشعور من قبل .. ولقد خبرت فيما مضى شعورى عند العودة الى (جيتسهيد) ـ وأنا طفلة ـ بعد نزهة طويلة على الاقدام ، لالقى التقريع والتأنيب بسبب ما كان يبدو على من برودة أو اكتئاب !.. كما عرفت فيما بعد ، شعورى وأنا عائدة من الكنيسة الى (لو وود) متلهفة على وجبة طيبة ونار قوية فلا أجد هذه أو تلك !.. وما شعرت فى عودتى الى احداهما بسرور واشتياق ، اذ لم تكن هنالك جاذبية تتضاعف كلما اقتربت .. أما العودة الى (ثورنفيلد) فاننى لم أكن قد جربتها بعد !

وبدت رحلتى شاقة .. شاقة جدا ، اذ قطعت فى اليوم الاول خمسين ميلا ، ثم خمسين أخرى فى اليوم الثانى .. وكانت أفكارى تدور فى اليوم الاول حول مسز ريد وساعاتها الاخيرة ، وموتها وجنازتها .. وحول جورجيانا التى تمثلتها فى خاطرى تمرح فى قاعة الرقص .. وحول اليزا وقد قبعت فى احدى حجرات الدير الموحشة .. ثم رحت احلل ما كان عليه سلوك كل منهما ، وما كان لديها من شذوذ ، الى أن جن الليل فتبددت هذه الافكار . حتى اذا رقدت على فراش السفر ، عاودتنى من جديد ..

كنت عائدة الى (ثورنفيلد) ..ولكن : كم كان مقدورا لى ان أمكث هناك؟.. مدة قصيرة كما اعتقد جازمة ، فقد علمت من الخطابات التى أرسلتها مسز فيرفاكس ان الضيوف غادروا القصر ، وان مستر روشستر سافر الى لندن منذ ثلاثة اسابيع ، ولكنه لن يلبث أن يعود بعد اسبوعين . وقد استنتجت مسز فيرفاكس من سفره ، انه ذهب ليعد العدة لحفلة زواجه ، اذ تحدث عن شراء عربة جديدة . وكانت ترى فى زواجه بالآنسة انجرام شيئا غريبا ، ولكنها بعد كل ماسمعته من الناس ، وما رأته بعينى رأسها ، لم تعد تشك فى ان هذا الزواج واقع بعد قليل . ولما تذكرت هذه الاقوال ـ أثناء رحلتى ـ قلت فى نفسى أن لها ان تشك ماشاءت ، ولكنى لايساورنى أدنى شك أو ارتياب وكان السؤال الذى تلا ذلك هو : « الى أين أذهب ؟ » .. لقد حلمت أمس

بالآنسة انجرام ورأيتها تغلق أبواب (ثورنفيلد) فى وجهى ، وتشير الى طريق آخر ، كما رأيت مستر روشستر فى منامى وقد عقد ذراعيه على صدره ،وراح يبتسم منها ومنى ، ابتسامة زاخرة بالسخرية والاستخفاف

ولم أكن قد ذكرت لمسز فيرفاكس موعد عودتى بالضبط ، لاننى لم أشأ ان تنتظرنى العربة فى (ميلكوت) ، بل عولت على أن اقطع الطريق سيرا على الاقدام فى صمت وهدوء . وفعلا ، غادرت فندق « جورج » - بعد ان تركت حقيبتى لدى حارسه - فىحوالى الساعة السادسة مناحدى آمسيات شهريونيو . واتخذت الطريق القديم الى (ثورنفيلد) ..وكان طريقا يمتد الشطر الاكبر منه خلال الحقول ، وكان قليلا ما يجتازه أحد . ولم تكن الليلة من ليالى الصيف الصحوة ولا البديعة ، وان كان الهواء عليلا .. وكان الفلاحون منهمكين فى الحصاد على طول الطريق.. ومع ان السماء لم تكن خالية من السحب ، الا انها كانت تبشر بجو طيب الى فترة طويلة ، فان زرقتها - حيثما كان من الممكن رؤية الزرقة - كانت خفيفة ، وثابتة .. كما كانت سحبها عالية ، ورقيقة .. كذلك كان الغرب دافئا ، لايبين فيه مطر ولا رطوبة .. وكان يلوح وكانما اشتعلت فيه نار .. أو كأنه معبد أوقدت فيه النار ، خلف ستار من البخار المرمرى .. وخلال ثغرات السحب ، كانت أشعة الشمس الراحلة ، تبدو ذهبية مشوبة باحمرار ..

ورحت أشعر باغتباط كلما قصر الطريق امامى .. وقد بلغ من عنفوان غبطتى ان توقفت مرة عن السير لاسائل نفسى عن سر هذا الفرح ، ولاذكرعقلى بان هذا الذى كنت أسعى اليه ليس منزلى ، ولا هو بمقر دائم لى ، ولا هو بمكان يضم أصدقاء مشغوفين بى ، يترقبوننى وينتظرون وصولى . وقلت : « من المؤكد ان مسز فيرفاكس ستقابلنى باسمة ، وستصفق اديل وتجرى لاستقبالى ، ولكنك تعرفين جيدا انك انما تفكرين فى شخص آخر غيرهما ، وان هذا الشخص لايفكر فيك ! »

ولكن ما أشد عنادالشباب ، وما أشد العمى الناشىء عن قلة التجارب ! لقد أكد لى الشباب وقلة التجربة اننى سوف اغتبط كل الاغتباط اذ أحظى برؤية مستر روشستر مرة اخرى ، سواء أنظر الى باهتمام أم لم ينظر . وراحا يهيبان بى قائلين : « اسرعى . اسرعى . كونى الى جانبه بضعة الايام أو الاسابيع القليلة الباقية ، قبل أنتفارقيه الى الابد » !.. وكظمتاذ ذاك فى صدرى ألما متجددا مبرحا ، وأسرعت فى طريقى لا ألوى على شىء

★ ★ ★

* وكان العمال يحصدون فى أراضى (ثورنفيلد) ، أو بالاحرى كانوا قد فرغوا من عملهم وبداوا يعودون الى منازلهم . ولم يعد امامى سوى حقل أو

اثنين اجتازهما ثم أعبر الطريق الى أبواب القصر الخارجية ٠٠ وكانت الزهور كثيرة ، متناثرة على طول الطريق ولكن الوقت لم يكن يتسع لاقطف شيئا منها ، فقد أردت الوصول الى القصر بأسرع ما كنت استطيع ٠٠ واخيرا عبرت الطريق، لاجد مستر روشستر جالسا على مقعده فوق سلم السياج ، وفي يده قلم ودفتر يكتب فيه !٠٠ ولم يكن شبحا ، ومع ذلك فقد خارت أعصابى ، وبقيت لحظة لا أملك زمام حواسي٠٠ فما معنى هذا ؟٠٠ لم يكن يخطر لى ببال قط اننى سوف أرتجف هكذا عندما أراه ، وأننى سوف أفقد القدرة على الكلام والحراك فى حضرته ٠ اذن فلا بد لى من العودة - متى استطعت التحرك من مكانى - حتى لا أضع نفسي أمامه موضع السخرية والتهكم ! وكنت أعرف طريقا آخر الى المنزل ٠٠ ولكن ما كان ليجدينى ان اعرف عشرين طريقا ، اذ ان عينى مستر روشستر وقعتا على ، فسرعان ما القى دفتره وقلمه جانبا ، ثم هتف قائلا :
« هالو ٠٠ هل عدت ؟! تقدمى ٠٠ من فضلك ! »

واحسبنى تقدمت وان لم ادر كيف تقدمت ، لاننى لم أكد أفطن الى حركاتى ، بل قصرت همى على التظاهر بالهدوء ، وعلى السيطرة على عضلات وجهى التى شعرت بها تتمرد فى قحة على ارادتى ، وتحاول جاهدة ان تطبع على اساريرى صورة كنت معولة على اخفائها ٠ ولكننى كنت احمل قناعا ، فأسدلته على وجهى وتقدمت من السيد فابتدرنى قائلا : « وهاهى ذى جين اير ؟ هل أنت قادمة من (ميلكوت) ٠٠ سيرا على الاقدام ؟٠٠ نعم فهذه احدى حيلك ٠٠ لم ترسلى فى طلب العربة وتاتى كغيرك من الناس العاديين ، ولكنك آثرت المجىء خفية فى الغسق مثل حلم أو خيال ! بالله ماذا فعلت طوال هذا الشهر ؟ »

- قضيته مع زوجة خالى التى توفيت ، ياسيدى

- هذا جواب من اجاباتك المأثورة عنك ياجين ! احفظينى ياملائكة ، لقد جاءت جين اير من العالم الآخر ٠٠ من مدينة الموتى ٠٠ وبادرت تخبرنى بذلك بمجرد أن لقيتنى هنا وحيدا وسط الظلام !٠٠ لو اننى أوتيت الجرأة للمستك بيدى لاتبين هل أنت جسم أو خيال ياشيطانة !٠٠ ولكنى لو وجدت الجرأة فلن أمسك بغير سراب خادع ، أزرق اللون ٠ يالك من شاردة ٠٠ وأية شاردة ! »

وتوقف لحظة عن الكلام ، ثم استرسل قائلا : « لقد غبت عنى شهرا كاملا ونسيتنى كل النسيان ٠٠ أقسم على ذلك ! »

وكنت اعلم أن فى لقاء سيدى مرة اخرى سرورا وابتهاجا ، رغم انه لن تنقضى فترة وجيزة حتى تنقطع صلتى به ، ورغم ايمانى باننى لست شيئا مذكورا لديه ٠ ولكنه أوتى قوة غريبة ، كانت تبعث السعادة حتى فى الفتات الذى يتناثر من مائدته الدسمة ، وتبتهج به الطيور الضالة الغريبة من أمثالى ٠ والواقع أن كلماته الاخيرة كانت بلسما دلنى على أنه كان يعلق أهمية كبيرة على أن أذكره

أولا ، ثم هاهو ذا يشير الى (ثورنفيلد) على أنه منزلى فياليته كان كذلك !
ولم يبارح السيد مكانه عند السلم ، ولم أجد بى ميلا الى مغادرته ،فسألته هل كان فى لندن فأجاب: « نعم ٠٠ واحسبك استنتجت هذا بثاقب فكرك ؟ »
– لقد أخبرتنى به مسز فيرفاكس فى احدى خطاباتها
– وهل أخبرتك بسر سفرى ؟
– أوه ٠ نعم ياسيدى فكل انسان يعرف مهمتك
– يجب أن تشاهدى العربة ياجين لترى هل توائممسز روشستر ،وهلا تبدو فيها كالملكة وهى تضطجع بين الوسائد الارجوانية ٠ كم أود ياجين أن أكون بمظهرى الخارجى ندا لها ٠ اخبرينى ياساحرة ، هل فى وسعك ان تزودينى بتعويذة أو بجهاز ترشيح ، أو أى شىء يجعلنى رجلا جميلا !
– ان هذا فوق أية قوة ساحرة ياسيدى !
ثم قلت فىنفسى : « ان عين المحب هىكل السحر المنشود ، فأنت جميلفيها، ولعبوسك فى نظرها قوة دونها قوة الجمال ! » ٠٠ وكانت لمستر روشستر القدرة على انيقرأ أحيانا مايدور بخاطرى ببراعة لا أستطيع ادراكها ، فلم يعن فى هذه المرة بالجواب الذى نطق به لسانى ، بل ابتسم ابتسامة ذات معنىلم تكن تبدو على فمه الا فيما ندر ٠ واخيرا افسحلى الطريق قائلا : « سيرىياجانيت واصعدى الى المنزل ، وضعى قدمك المتعبة الصغيرة الجوالة على عتبة قصر احد أصدقائك ! »

★ ★ ★

♦ ولم يكن فى وسعى الا ان اطيعه فى صمت ، دون حاجـة الى مزيد من الكلام ، فعبرت السياج معتزمة أن أمضى فى طريقى ، ولكننى سرعان ما استدرت –أو بالاحرى اكرهتنى قوة قاهرة على ان استدير – ثم نظرت اليـه وقلت : « أشكرك يامستر روشستر على عطفك ٠ اننى فى منتهى السعادة لعودتىاليك، وان دارى لهى حيث توجد انت ٠٠ دارى الوحيدة ! » ٠٠ ثم هرعت بسرعة ما كان ليستطيع معها أن يلحق بى لو انه شاء !٠٠ وجنت أديل الصغيرة عندما شاهدتنى ، واستقبلتنى مسز فيرفاكس بحفاوتها المعتادة ، الصادقة ، بينمـا ابتسمت لياه ، وقالت لى صوفى « طابت ليلتك » وهى بادية السرور !٠٠ كان ذلك ممتعا يدعو للبهجة اذ ليس ثمة سعادة أكبر من أن تكون محبوبا منزملائك واقرانك وان تشعر بأن حضورك قد زادهم راحة وتسلية ٠
وفى ذلك المساء ، أغمضت عينى حتى لا ارى المستقبل ٠ وسددت اذنىعامدة كى لا أسمع الصـوت الذى لم يكن ينفك ينذرنى بالفراق القريب والاحزان القادمة ٠ فجلست بعد تناول الشاى مع مسز فيرفاكس – وأديل تلعب امامنا –

الى ان دخل علينا مستر روشستر دون سابق انذار • فلما رآنا على تلك الحال ، بدا عليه السرور • ورحت بدورى أتوسل الى الله ان لايفرق بيننا بعد زواجه ، وأن نعيش معا فى مكان واحد تحت رعايته وفى حمايته ، والا نحرم دفء وجوده معنا

وانقضى على عودتى الى (ثورنفيلد هول) شهران كانا زاخرين بالهدوء المريب المشوب بالغموض •• فلم نتحدث بشيء عن زواج سيد الدار ، ولم أشهد أية استعدادات لمثل هذه المناسبة •• ولم يكن يمضى يوم تقريبا دون أن أسأل مسز فيرفاكس عما اذا كانت قد سمعت شيئا ، فكانت تجيبنى دائما بالنفى •• بل لقد وجهت اليه المرأة سؤالا صريحا عن موعد قدوم عروسه فلم يجبها الا بكلمة مازحة ، وبابتسامة من ابتساماته الغامضة التى لاتدرك منها شيئا على الاطلاق •• على ان شيئا واحدا فى مسلكه أثار دهشتى بوجه خاص •• ذلك هو انقطاعه عن الرحلات وعدم زيارته لقصر انجرام •• صحيح ان المسافة الى ذلك القصر لم تكن تقل عن عشرين ميلا ، ولكن ماقيمتها فى نظر العاشق ، وكيف يهتم رجل اشتهر بركوب الخيل ـ مثل مستر روشستر ـ بمسافة كهذه ؟ • لذلك أخذت تجيش فى صدرى آمال ما كان من حقى أن انعم بها ! وخيل الى أن أحد الفريقين أو كليهما قد عدل عن الزواج وغير رأيه • واعتدت أن اتفرس فى وجه مخدومى أحيانا ، لعلنى اقرأ فيه مايدل على الحزن أو الاكتئاب القاسى، ولكننى لم أكن اذكر ان هذا الوجه بدا صافيا يوما من السحب او مشاعر السوء! وكنت اذا قضيت وتلميذتى لحظات معه ، أشعر بأن قواى قد خارت ، وباننى غرقت فى بحر من الاكتئاب ، فيبتهج هو لهذه الظاهرة •• ثم راح يكثر من دعوتى الى حضرته ، ويضفى على من حنانه ، ولكن •• وأسفاه ، اننى لم احبه من قبل كما أصبحت أحبه اذ ذاك !

الفصل الثالث والعشرون

• انتصف الصيف فى انجلترا مشرقا بسماء صافية ، وشمس متألقة ، ظلا يتتابعان فى توال قليلا ـ بل نادرا ـ ماتحظى به بلادنا التى تطوقها الامواج • فكأنما وفدت من الجنوب زمرة من أيام ايطاليا ، كما يفد سرب من الطيور الرحالة البديعة ، فيحط على قمم تلال (البيون) المشرفة على البحار • وكان التبن قد نقل الى المخازن بعد الحصاد ، وازدهرت الحقول حول (ثورنفيلد) ، وقد انبثت خضرة النباتات الجديدة فى جنباتها •• وابيضت الطرق ولوحتها



الشمس بحرارتها . وكانت الاشجار فى عنفوانها ، فبدا الفرق واضحا بين السياج والغابة المورقة المزدهرة ، وبين المراعى الخاوية ، التى لفحتها الشمس حتى تشققت أرضها !

وكانت أديل قد أوت الى فراشها مع غروب الشمس فى احدى أمسيات الصيف ، بعد ان نال منها التعب اذ ظلت نصف النهار تقطف التوت .. فعنيت بها حتى استغرقت فى النعاس ، ثم غادرتها وسعيت الى الحديقة .. وكانت تلك أحلى ساعات اليوم الاربع والعشرين ، اذ « خبت نيران النهار المشبوبة » ، وأخذ الندى يتساقط على السهول التى كان الحر يخنق أنفاسها ، وعلى القمم العالية التى حرقتها الشمس .. وحيث غربت الشمس فى بساطة، لاتشيعها مواكب السحب ، انتشرت أرجوانية بديعة ، تتألق بوميض كوميض جوهرة حمراء ، وتتوهج كنار الفرن على قمة أحد التلال ، ثم تمتد نحو السماء وفى الفضاء ، وهى ترق وتخف ، حتى تكسو نصف السماء .. وكان للشرق فتنة هو الآخر .. فتنة بديعة ، داكنة الزرقة ، يشيع فيها تألق جوهرة متواضعة ، ويبرز خلالها نجم وحيد .. ولن يلبث أن يزدهى بالقمر ، ولكن القمر كان لايزال - فى تلك الساعة - محتجبا وراء الافق !

وسرت برهة فى الممر المرصوف ، ثم شممت عبيرا مألوفا .. دخان سيجار كان يتسلل من احدى النوافذ .. ولمحت نافذة المكتبة وقد فرق بين مصراعيها فراغ بعرض الكف ، فخشيت ان يرانى أحد من خلفها ، ومن ثم اختصرت الطريق الى جوف البستان .. ولم تكن فى الضيعة بأسرها بقعة أكثر حمى وعزلة ، وأقرب الى الجنة ، من هذه البقعة . فقد كان يفصلها عن فناء القصر - من أحد الجوانب - جدار شاهق ، ويفصلها عن المروج - من جانب آخر - طريق تحف به أشجار الزان .. وفى أقصاها ، كان ثمة سياج منخفض ، هو

الفاصل الوحيد بينها وبين الحقول الموحشة .. وفيما كنت أتنقل بين الزهور اليانعة ، تحت ضوء القمر وقد بزغ من ناحية الشرق ، توقفت ، لا لانني رأيت أحدا أو سمعت صوتا ، ولكن لانني شممت عبيرا نبهني .. عبيرا طغى على شذى الورود والياسمين والقرنفل والزهور البرية .. ولكنه لم يكن عبير ورد ولا عبير زهور .. بل عرفت بجلاء انه كان دخان سيجار مستر روشستر ، فوقفت أتلفت حولى ، وأرهف السمع . فلم أر غير الاشجار المحملة بثمارها ، ولم اسمع سوى تغريد الطيور .. لم أر جسما يتحرك أو اسمع وقع قدمين ، ولكن رائحة الطباق كانت تشتد .. فكان لابد لى من أن أفر !..وبادرت الى الباب المفضى الى الادغال ، فرأيت مستر روشستر قادما !.. ووقفت جانبا ، أحدث نفسى بأنه لن يلبث أن يرتد عائدا من حيث أتى ، وانه لن يرانى اذا لم أتحرك من مكانى . ولكن كلا .. كان قد وجد مثلى فى السماء مبعث اغتباط وسرور ، ولم يكن تأثير هذه الحديقة القديمة فى نفسه بأقل من تأثيرها فى نفسى ، فأخذ يتمشى خطوة فخطوة ، وهو يتطلع تارة الى ثمار الاشجار ، وتارة اخرى يقطف بعض الزهور .. الى ان عثر على فراشة كبيرة فانحنى فوقها ليتأملها وهو يولينى ظهره . واذ ذاك خطر لى أن أتسلل بخطوات خفيفة لعلى أستطيع الافلات دون أن يرانى وهو منهمك فى تأمل الفراشة

وسرت على العشب خشية أن يفضحنى وقع حذاءى على الارض المرصوفة بالحصى . وكان السيد واقفا بين أحواض الزهور ، على مسافة ياردة أو اثنتين من حيث كان يجب ان اجتاز الطريق ..ولكنى لم أكد اجتاز ظله ، حتى خاطبنى بصوت هادىء دون أن ينظر الى : « تعالى ياجين فانظرى الى هذه الفراشة! » .. وعجبت كيف أحس بى مع اننى لم احدث صوتا ، فارتجفت فى البداية ، ولكنى تقدمت اليه فقال : « انظرى الى جناحيها .. انها تذكرنى بحشرة كبيرة فى جزر الهند الغربية .. وقلما يرى الانسان بين هوام الليل فراشة كهذه فى انجلترا . ها هى قد طارت ».. وحلقت الفراشة بعيدا ، فأخذت بدورى أتراجع مجفلة ، ولكن مستر روشستر تبعنى الى ان بلغنا الباب فقال : « ارجعى فلا يحسن أن يأوى الانسان الى المنزل فى مثل هذه الليلة الجميلة . ولا شك فى أن أحدا لايحب أن يمضى الى فراشه فى وقت تغرب فيه الشمس مع طلوع القمر ! »

* * *

◆ من العيوب التى اعترف بها ، عجزى عن الكلام اذ يصيبنى العى فى وقت الحاجة ، على الرغم من زلاقة لسانى فى بعض الاحيان . وهذا العى لايداهمنى الا حين أقع فى مأزق أو أزمة ، وأغدو فى حاجة الى كلمة أو عبارة تخرجنى منهما .. ولقد كنت فى ذلك الوقت زاهدة فى التمشى مع مستر روشستر فى الحديقة ، فى مثل تلك الساعة ، ولكنى لم أجد عذرا لمغادرته وتركه ، فتبعته

بخطوات ثقيلة ، بينما كانت أفكارى تعمل دائبة لعلها تهتدى الى وسيلة للخلاص . على ان الرجل كان فى حالة من الهدوء والرزانة اخجلتنى من محـــاولاتى .. وخاطبنى قائلا : « ان ثورنفيلد مكان يشرح الصدر ويبهـج النفس فى فصــل الصيف . أليس كذلك ياجين ؟ » .. فقلت : « هو ذلك ياسيدى »

ـ لاشك أنك تعلقت بثورنفيلد بعض الشىء ، ويشجعنى على هذا الاعتقاد ما أعرفه من حبك للطبيعة والجمال

ـ الواقع اننى متعلقة بها

ـ وأرى كذلك انك متعلقة بتلك الطفلة الرعناء أديل والسيدة الطيبة القلب فيرفاكس

ـ نعم أحبهما ياسيدى

ـ هل يحزنك أن تفارقيهما ؟

ـ نعم !

فتنهد وقال : « واحسرتاه ! » . ثم سكت برهة ، وعاد يقول : « هذه سنة الحياة دائما ، فما ان يستقر بك المقام فى مكان طيب ، حتى يناديك صوت الى القيام واستئناف السير ، لان ساعة الراحة قد انتهت ! »

ـ وهل لابد لى من استئنـاف السـير ياسـيدى ؟.. هل لابد من مغـادرة ثورنفيلد ؟

ـ هذا ما أظنه ياجين ، وهو من دواعى اسفى ، ولكن لامفر منه

وكانت كلماته ضربة قاصمة ، ولكنى لم أدعها تسلبنى قواى أو تهدم عزيمتى ، فقلت : « حسنا ياسيدى . سأكون مستعدة متأهبة ، متى صدرت الاوامر لى بالرحيل » .. فقال : « بل آن الاوان ، ويجب أن أصـدر الامـر بذلك .. الليلة ! »

ـ اذن فقد عولت على الزواج ؟

ـ تماما .. بالضبط ! .. لقد أدركت الحقيقة بما عرف عنك من فطنة وذكاء

ـ حالا ياسيدى ؟

ـ حالا يا .. آنسة . انك تذكرين أننى أشرت الى رغبتى فى ان أضـع عنقى فى انشوطة الزواج المقدسة ، وان أدخل فى زمرة المتزوجين ، وان أضم الى صدرى مس انجرام .. وانها لتفوق سعة الذراعين ، ولكن هــــذا خارج عن موضوعنا ، والانسان لايجد بكثرة مخلوقات فى بهاء بلانش الحسناء . آه ، كنت أقول .. اصغى الى ياجين !.. أحب ان اذكرك بأنك انت التى اقترحت أولا ـ بما لك من فطنة أحترمها ، وببعد النظر ، والحكمة ، والتواضع .. التى تلائم مكانتك ـ ان ترحلى انت وأديل الصغيرة عن القصر اذا ماتزوجت من مس انجرام . وانى لاتجاوز عما فى اقتراحك من تعريض بمحبوبتى ، ومن المؤكـد اننى سأنساه عندما تبعدين ياجانيت عن القصر ، ولن أذكر منه سوى ماانطوى

عليه من حكمة اتخذتها قانونا أتصرف بموجبه..لابد من الحاق أديل بمدرسة.. اما انت يامس اير ، فلا بد لك من مركز جديد !

فقلت : «اجل ياسيدى .. سأعلن فى الصحف فورا عن وظيفة . وفى خلال ذلك اظن .. » ، وهممت بأن أقول : « اظن ان بوسعى أن أقيم فى القصر حتى اجد لنفسى مأوى آخر » . ولكننى أمسكت ، ولم أمض فى حديثى خشية أن يخوننى صوتى فلا أقوى على النطق بجملة طويلة كهذه .. وعاد مستر روشستر الى حديثه فقال : « اننى أرجو أن أزف بعد شهر تقريبا . وفى هذه الاثناء ، سأبحث لك عن عمل ومأوى »

ـ شكرا ياسيدى . ويؤسفنى أن أسبب لك ..

ـ كلا . لاتعتذرى ، فانى أعتقد ان لمن تقوم مثلك بعملها خير قيام ، حقا فى ان تطلب العون منمخدومها فى أمر بسيط كهذا . والواقع اننى سمعت من حماتى القادمة الليدى انجرام عن وظيفة اظنها تلائمك ، وهى أن تتولى تعليم خمس بنات لمسز « ديونيسيوس اوجال » سيدة قصر « بيترنت » بمقاطعة (كونوت) بايرلندا .. واعتقد انك ستحبين ايرلندا ، اذ يقولون ان أهلها طيبو القلب

فقلت : « انها بعيدة ياسيدى » .. ولكنه قال : « لا بأس فى ذلك ، فان فتاة راجحة العقل مثلك لاتعارض في السفر » . فقلت : « ليس السفر هو الذى يهمنى ، وانما .. المسافة . ثم ان البحر يفصل .. » ، وأمسكت فقال: « يفصل ماذا ؟ »..فقلت : « ايرلندا عن انجلترا ، وعن ثورنفيلد ، وعن.. » ، فتساءل : « وماذا ؟ » .. فقلت : « وعنك انت ياسيدى ! »

★ ★ ★

ونطقت بذلك على الرغم منى ، وطفرت الدموع من عينى دون ارادتى ، ولكنى لم أبك بصوت يسمع ، بل تجنبت النهنهة .. كانت فكرة « مسز اوجال » و (بيترنت) قد أشاعت فى قلبى برودة قارسة .. وكانت فكرة الامواج التى تفصل بينى وبين السيد الذى كنت أتمشى الآن الى جانبه ، اشد برودة . وعدت أقول : « انها مسافة بعيدة ياسيدى »

ـ لاشك فى بعد المكان . وفوق هذا ، متى وصلت الى هناك فاننى لن أراك ياجين . هذه حقيقة لاريب فيها لاننى لم أزر ايرلندا ولا أميل الى الذهاب اليها. لقد كنا صديقين حميمين ياجين . أليس كذلك ؟

ـ نعم ياسيدى

ـ ومتى كان الاصدقاء على وشك الفراق فانهم يقضون معا ودائما وقتهم القصير الباقى . فتعالى نتكلم نحو نصف ساعة عن السفر وما سوف يتلوه من

فراق ٠٠ تعالى نستجلى محاسن هذه الكواكب التى شرعت تأتلق فى السماء٠٠ هاهى ذى شجرة البندق ٠٠ وهاهو ذا المقعد بجانب جذعها ، فتعالى نجلس الليلة فى هدوء وسلام ، فقد لايتاح لنا ان نجلس معا مرة أخرى

ثم أجلسنى على المقعد وجلس بجانبى ، واستطرد يقول : « ان المسافة الى ايرلندا طويلة ياجين ٠ وانه ليحزننى حقا أن أبعث صديقتى الصغيرة فى هذه الرحلة الشاقة ، ولكن اذا لم يكن فى وسعى ماهو خير من ذلك ، فما حيلتى ؟ أتعتقدين أن بينى وبينك صلة من القرابة ياجين ؟ » ٠٠ وكان قلبى زاخرا بالاسى فلم أقو على الرد بكلمة واحدة ٠ فقال : « ذلك لاننى أشعر أحيانا بشعور غريب نحوك ، لاسيما عندما تكونين قريبة منى بمثل ما انت الآن ٠٠ بل يخيل الى أن تحت أضلعى اليسرى خيطا ربط رباطا وثيقا بخيط يماثله مشدود الى أضلعك الصغيرة ، ولذلك أخشى ان ينقطع هذا الرباط الوثيق اذا فصلت بيننا هذه المسافة الشاسعة ، وعندئذ قد تدهم الآلام قلبى وتدميه ٠ أما انت فسوف تنسيننى » ٠٠ فهتفت : « لن يكون هذا قط ياسيدى فانك تعلم ٠٠ » ، ولم استطع المضى الى أكثر من ذلك فقال : « هل تسمعين ياجين هذا البلبل الذى يغرد هنالك فى الغابة ؟ اصغى اليه » ٠٠ وفيما كنت اصغى ، رحت انشج بالبكاء ، لاننى لم أعد احتمل اكثر من ذلك ٠٠ كنت مضطرة الى الاستسلام لاحزانى فراحت تعصف بكيانى من رأسى الى أخمص قدمى ٠ وأخيرا ٠٠ عندما استطعت الكلام قلت : « ليتنى لم أولد ولم تقع عيناى على ثورنفيلد !! » ، ٠٠ فسألنى : « أذلك لانك آسفة على فراقها ؟

واستبد بى الانفعال الشديد ، وقد أهاجه فى نفسى الحزن والحب الذى كان بين جنبى يحاول أن يفرض سلطانه ، ويناضل لكى تكون له السيطرة والغلبة ، ولكى يعيش ، وينهض ، ويتحكم أخيرا ، و ٠٠ يتكلم ، فقلت : « يحزننى ان أغادر ثورنفيلد لاننى أحب ثورنفيلد ٠٠ أحبها ، لاننى عشت فيها عيشة راضية ممتعة ٠٠ فى بعض الاحيان على الاقل ، فلم يدسنى أحد ، ولم يرعبنى مخلوق، ولم أدفن مع عقول وضيعة ، ولم أحرم من التمتع بكل ما يأتلق ويسمو ٠ وفيها تحدثت وجها لوجه مع من أحبه وأجله وأجد فيه البهجة والسرور ٠٠ مع العقل الوثاب الاصيل الواسع الافق ٠٠لقد عرفتك يامستر روشستر ،فمن دواعى حزنى العميق وجزعى الشديد أن أجدنى مضطرة الى فراقك الى الابد ، بل اننى أرى الرحيل ضرورة ٠٠ وانها لتبدو محتومة كضرورة الموت !»٠٠فسألنى على الفور: « فيم تجدين هذه الضرورة ؟ » ٠٠ فقلت : « فيم ؟٠٠ انك انت الذى وضعتها أمامى ياسيدى »

فتساءل : « فى أى شكل ؟ » ٠٠ وقلت : « فى صورة مس انجرام ٠٠ امرأة نبيلة وجميلة ٠٠ عروسك ! »

وهتف : « عروسي ؟ أى عروس ؟! انا لا عروس لى » ، فقلت : « ولكنك لن تلبث ان تحظى بعروس » .. فصرف باسنانه وقال : « ساحظى .. اجل .. ساحظى ! » .. فقلت : « واذن فلا بد من أن أذهب .. لقد قلت ذلك بنفسك » .. فقال : « كلا ، بل يجب ان تبقى .. أقسم لك وسأبر بقسمي ! » .. فقلت والانفعال يكاد يثيرنى : « اقول لك يجب أن أذهب . أتعتقد أن في وسعى البقاء حتى لا أصبح شيئا فى نظرك ؟ .. أتظننى آلة لا حس لها ولا شعور؟ .. أتحسبنى اطيق ان يخطف خبزى من فمى ، وأن تنسكب من وعائى قطرة حياتى ؟ .. أوتخالنى مخلوقة بلا روح ولا قلب ، لاننى فتاة فقيرة ، نكرة ، خالية من الجمال ؟ . كلا ياسيدى ، انك مخطىء فى ذلك ، فان لى روحا لايقل عن روحك وقلبا يحس كقلبك .. ولو ان الله وهبنى شيئا من الجمال ، وبعضا من المال ، لجعلتك تشعر لفراقى بمرارة كتلك التى اشعر بها لفراقك .. اننى لا أتحدث اليك كما يقضى العرف والتقاليد المصطلح عليها ، ولا عن طريق الجسد الفانى ، ولكنها روحى هى التى تخاطب روحك وكأنهما اجتازتا القبر ووقفتا متساويتين عند قدمى الله .. كما هو الوضع الحقيقى ! » .. فكرر مستر روشستر قولى : « كما هو الوضع الحقيقى ! » .. ثم أضاف وهو يحتوينى بين ذراعيه ويضمنى الى صدره ، ويضغط شفتيه على شفتى : « هكذا ! » .. فقلت : « اجل ، هكذا ياسيدى .. ومع ذلك ، فهو ليس كذلك ! .. لانك رجل متزوج أو فى حكم المتزوج ومخطوب لفتاة دونك شأنا .. فتاة لاتعطف عليك ، ولا أظنك تحبها حبا صادقا لاننى سمعتك ورأيتك تسخر منها . اننى احتقر مثل هذه الرابطة ولذلك فانا أفضل منك .. دعنى اذهب ! »

- الى أين ياجين ؟ الى ايرلندا ؟



– نعم الى ايرلندا ، فقد صارحتك بما في نفسي ، وفي وسعي الآن ان أذهب الى أي مكان

– هدئي روعك ياجين ولا تناضلي هكذا ، كطائر برى جن ذعرا فراح يشد ريشه من يأسه !

– لست طائرا ، ولا توجد ثمة شبكة لاقتناصي ، وانما أنا انسانة حرة ، ذات ارادة مستقلة تفرض على أن أتركك

★ ★ ★

◆ وبذلت مجهودا آخر خلصني منه ، ثم وقفت أمامه منتصبة القامة ، فقال: « ان ارادتك سوف تقرر مصيرك . وأنا أقدم لك قلبي ويدي وجزءا من ممتلكاتي » .. فقلت : « هذه خدعة منك لايسعني الا أن اسخر منها ! » .. فقال : « بل انني أسألك أن تقضي حياتك الى جانبي ، وان تكوني روحي الثانية وخير شريكة لي على الارض » .. فقلت : « لقد اخترت فعلا من تجعلها كذلك ، فعليك ان تحترم قرارك وتتمسك به ! » .. فهتف قائلا : « اهدئي قليلا ياجين ، فانك شديدة الانفعال ! »

وهبت اذ ذاك ريح خفيفة على طريق اشجار الغار ، فهزت غصون شجرة البندق ثم راحت تبتعد وتبتعد حتى تلاشت ، فلم يبق غير صوت البلبل ، ورحت ابكي وانا اصغي اليه ، بينما جلس مستر روشستر هادئا ينظر الى في رفق واهتمام . وانقضت فترة قبل أن يقول : « تعالي الى جانبي ياجين ، تعالي نتصارح ليفهم كل منا الآخر ! » .. فقلت : « لن آتي الى جانبك مرة أخرى ، فقد انتزعت نفسي منك ولا استطيع العودة » .. قال : « ولكنني ادعوك ياجين كزوجتي ، لانك أنت التي اعتزم أن أتزوج بها » .. فأخلدت للصمت ظنا مني انه يسخر بي ، ولكنه قال : « تعالي ياجين .. تعالي هنا »

فقلت : « ان عروسك تحول بيننا »

واذ ذاك غادر مقعده ، وبخطوة واحدة صار بجانبي ، ثم جذبني اليه قائلا : « ان عروسي هنا .. شبيهتي . هل تتزوجينني ؟ »

وكنت لا أزال في شك من قوله فبقيت على صمتي وأنا أحاول التخلص من قبضته .. الى ان قال : « هل ترتابين في ياجين ؟ » .. فقلت : « كل الارتياب » .. وسألني : « الا تثقين بي ؟ » .. فأجبت : « ولا مثقال ذرة » .. واذ ذاك قال محتدا : « هل أنا كذاب في عينيك ؟ .. لسوف تؤمنين بي يا ملحدة ! .. أي حب أكنه في قلبي لمس انجرام ؟ .. لا شيء ، كما تعلمين .. ثم اى حب تكنه هي لي في قلبها ؟ .. لاشيء ! ولقد تجشمت عناء اثبات ذلك ، فرحت أروج اشاعة بلغت مسامعها ، وفحواها ان الثروة التي أمتلكها لاتساوى ثلث قيمتها الظاهرية ، ثم زرتها بعد ذلك لارى مبلغ أثر هذه الاشاعة على نفسها ،

فوجدت فتورا منها ومن والدتها . أما أنت .. أنت أيتها المخلوقة الغريبة العجيبة التى لاتمت الى الارض بصلة .. فاننى أحبك كما لو كنت من لحمى. انك أنت .. أيتها الفقيرة المغمورة الضئيلة البسيطة .. انت هى التىأتوسل اليها آن تقبلنى زوجا ! »

فصمت وقد رأيت لهجة الجد فى صوته وآمنت بصدقه : « ماذا ! أنا ! أنا التى ليس لها صديق فى العالم سواك ؟.. اذا كنت صديقا لى فاعلم اننى لا أملك من المال الا ما أعطيتنيه » .. فقال : « انت ياجين التى يجب ان احظى بها لنفسى .. لذاتى . فهل تقبلين ان تكونى لى ؟ قولىنعم ، بسرعة !» .. فقلت : « دعنى اتطلع الى وجهك يامستر روشستر . تحول نحو ضوء القمر ! » ، فتساءل : « لماذا ؟ » ، فقلت : « لاننى أريد أن أقرأ أساريرك .. استدر ! » .. واستدار نحو الضوء قائلا : « اليك .. ولن تجدى على وجهى سوى صورة ليست أوضح من صفحة مغضنة مشوشة ، مكتوبة بخط لايقرأ .. هيا اقرئى ولكن اسرعى لاننى أتألم ! »

ورأيت على وجهه المتضرج بحمرة الخجل آيات الاضطراب والانفعال ،وشاهدت فى عينيه بريقا عجيبا . وسرعان ما صاح : « انك تؤلميننى ياجين !.. انك تعذبينني بهذه النظرة المتفحصة رغم اخلاصها وكرمها » .. فقلت : « كيف أقوى على ان أؤلمك ؟.. اذا كنت صادقا وجادا فى طلبك ، فان شعورىالوحيد نحوك هو الامتنان والوله .. وليس فى ذلك تعذيب لك أو ايلام ! » .. فصاح ثائرا : « الامتنان !.. اقبلينى بسرعة ياجين ، وقولى : « سوف اقترن بك يا ادوارد » .. ناديني باسمي ! » .. فسألته : « أجاد أنت ؟.. اتحبنى حقا ؟.. هل بك رغبة صادقة فى ان أكون زوجتك ؟ »

- كل الرغبة .. واذا كانت هناك يمين تقنعك اقسمتها !
- اذن سأتزوجك ياسيدى
- ناديني باسمي « ادوارد » يازوجتى الصغيرة

فغمغمت : « ياعزيزى ادوارد ! » .. واذ ذاك قال : « اذن تعالى الى .. تعالى كلك الى ! » .. ثم ضمنى الى صدره وهمس فى أذنى وقد الصق خده بخدي : « اسعديني ، وسأوفر لك سعادتك » .. وما لبث ان هتف بعد فترة وجيزة : « عفوك يا الهى !.. امنع ياربى من يتطفل علينا ، فقدظفرت بها ، وسوف أتشبث بها ! »

- ليس هناك من يتطفل علينا ، فليس لى أقارب يتدخلون فى شئوننا
- كلا .. وهذا خير ما هنالك

ولو كان حبي له اضأل مما كان يملأ قلبي ، لرأيت في لهجتـــه ومظهره

طربا وحشيا عنيفا ، ولكننى كنت أجلس بجانبه ، وقد انجاب عنى كابوس الفراق ، ودعيت الى جنة الارتباط به ، فلم أعد أفكر فى غير كأس السعادة التى كنت أشربها مترعة • وراح يسألنى مرارا : « هل أنت سعيدة ياجين ؟» •• فكنت أجيبه المرة بعد الاخرى : « نعم » ، فيغمغم بعدها قائلا : « هذه هى التوبة •• لسوف تكون كفارة !•• ألم أجدها يتيمة ، عديمة الصديق ، محرومة من الراحة ؟•• ثم ، ألن أرعاها ، وأحبها ، وأواسيها ؟•• الا يملأ الحب قلبى ، والعزم الراسخ قرارى ؟•• انها تكفير عن خطاياى ، ولسوف يتقبلها الله كفارة ، فانى أعلم عن يقين ان خالقى يتقبل أعمالى • أما حكم الدنيا على عملى ، فانى أنفض يدى منه•• وأما رأى الانسان ، فانى أتحداه !»

* * *

ولكن ما الذى أصاب الليل ؟•• لم يكن القمر قد اختفى بعد وراء الافق ، ومع ذلك فقد شملنا ظلام ، حتى كدت لا أتبين وجه سيدى رغم قربه منى •• وما الذى ألم بشجرة البندق ؟•• لقد راحت تتلوى وتتأوه ، بينما أخذت الرياح تزأر فى الطريق التى تحف بها الاشجار ، ثم تهب علينا مجتاحة •• وقال مستر روشستر : « يجب أن ندخل فقد انقلب الطقس •• لولا ذلك لجلست معك حتى الصباح ياجين ! » •• فقلت فى نفسى : « وأنا أيضا»

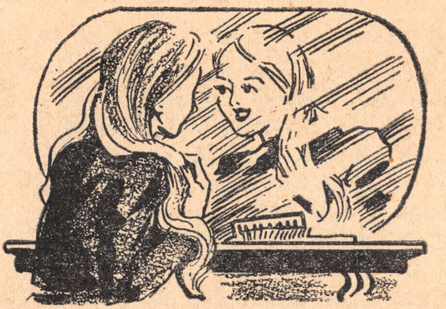
ولعله كان يحسن أن أجيبه بهذا القول ، ولكن السماء سرعان ما ابرقت ، وأرعدت ، وأمطرت ، حتى اضطررت الى اخفاء عينى الزائغتين فى كتف مستر روشستر •• وتدفقت الامطار ، فدفعنى مستر روشستر الى الممر ، ثم خلال الحديقة ، الى المنزل ، وقبل ان نبلغ عتبته ، كانت ملابسنا قد ابتلت تماما• وفيما كان ينتزع شالى فى البهو ، وينفض الماء عن شعرى ، أطلت مسز فيرفاكس من باب حجرتها ، فلم أرها فى البداية ولم يرها مستر روشستر كذلك • وكان المصباح مضاء والساعة تدق الثانية عشرة فقال : « اسرعى الى خلع ملابسك المبللة ، وقبل انتذهبى ••طابت ليلتك••طابت ليلتك ياحبيبتى!»

ثم قبلنى مرارا • ولما استطعت أن أفلت من ذراعيه وأرفع عينى ، شاهدت المرأة الارملة واقفة وعلى وجهها آيات الشحوب والتجهم والدهش ، فلم افعل سوى ان ابتسمت لها ، وبادرت أرقى الدرج وأنا أقول فى نفسى : «أستطيع ان أوضح لها الامر فى وقت آخر ! » •• ومع اننى لم أكد أبلغ حجرتى حتى شعرت بالالم للفكرة التى ستفسر بها ما رأته ، ولكن سرعان ما انمحى كل شعور آخر أمام سعادتى وابتهاجى •• وكانت الرياح تهب بقوة ، والرعد يقصف قريبا ، عميقا مدويا ، والبرق يومض فى حدة وبلا انقطاع ، والامطار تهطل هادرة كالشلال أثناء العاصفة التى دامت ساعتين • ومع ذلك ، لم يساورنى أتفه خوف أو فزع ، لان مستر روشستر اقترب من بابى ثلاث مرات

أثناء ذلك ليسألنى هل أنا فى أمان وسلام وهدوء بال ، فكان فى ذلك عزاء وقوة أواجه بهما كل شيء !

وقبل ان أغادر فراشى فى الصباح التالى ، قدمت أديل الصغيرة مهرعة لتخبرنى بأن صاعقة انقضت خلال الليل على شجرة البندق الكبيرة ، فى نهاية البستان ، فأطاحت بنصفها !

الفصل الرابع والعشرون



◆ عندما نهضت من فراشى وارتديت ملابسى ، رحت أقلب الفكر فيماوقع وأتساءل : أكان حلما من الاحلام ؟ ولم استوثق من انه حقيقة حتى قابلت مستر روشستر ثانية وسمعته يجدد لى حبه وعهوده

وفيما كنت أنسق شعرى ، تطلعت الى وجهى فى المرآة فشعرت بأنه لم يعد خاليا من البهاء ، اذ رأيت الامل على محياه ، والحياة على صفحته ، وخيل الى ان عينى قد رأتا نبع السعادة واستمدتا من أمواجه الرقراقة المشرقةوميضهما المؤتلق . ولقد طالما خفت انأتطلع الى عينى سيدى خشية ان لا تروقه نظرتى، اما الآن فلم يعد يساورنى شك فى اننى أستطيع ان أرفع وجهى اليه دون ان يفتر حبه بما يراه على أساريره . ثم ارتديت ثوبا بسيطا ، ولكنه خفيف وفاتح اللون . ويبدو انه كان أنسب ثوب لجسمى ، لاننى لم ألبس غيره بهذه الفرحة وهذا الابتهاج .. ولم أدهش ـ عندما جريت هابطة الى البهو ـ من ان ارى أن صباحا مشرقا ، قد أعقب عواصف الليل ، ومن ان أحس ـ خلال الباب الزجاجى المفتوح ـ بنسيم منعش يحمل عبير الزهور ، اذ أيقنت من ان

الطبيعة تشاطرنى سعادتى .. ولمحت امرأة متسولة تقبل فى الطريق مع طفل صغير ، وقد لاحا شاحبين ، هزيلين ، مهلهلى الثياب ، فهرعت اليهما ، ومنحتهما كل ما وجدت فى كيسى ، وكان حوالى ثلاثة أو أربعة شلنات .. وسواء قل هذا المبلغ أو كثر ، فانه كان كل مامعى ، وقد أحببت ان يشاركانى فرحتى ! وكانت الطيور تشقشق ، والبلابل تغرد مبتهجة ، ولكن شيئا لم يكن يعادل قلبى فى طربه وموسيقاه .. على اننى لم ألبث ان فوجئت بمسز فيرفاكس تطل من النافذة بأسارير واجمة ، وقالت تخاطبنى بلهجة جادة :

يا آنسة جين .. هل تتفضلين بالمجىء لتناول الافطار ؟ » . وظلت أثناء الطعام صامتة ، فاترة ، فلم أشأ ان أبدد مابها ، وقلت ـ لنفسى ـ يجب ان أنتظر حتى يبسط لها سيدى الامر ، ويجب أن تنتظر بدورها .. وتناولت ما استطعت من طعام ، ثم أسرعت الى الطابق العلوى حيث التقيت بأديل خارجة من غرفة الدراسة فسألتها : « الى أين أنت ذاهبة ؟ حان وقت الدرس»

ـ أمرنى مستر روشستر بالذهاب الى غرفة الاطفال

فتساءلت : « وأين هو ؟ » .. فأشارت الى الحجرة التى خرجت منها وقالت: « هناك ! » .. ودخلت الغرفة فوجدته واقفا ، وبادرنى قائلا : « تعالى حيينى تحية الصباح ! » ، فتقدمت مغتبطة .. ولم يكن ما تلقيته مجرد كلمة باردة ، أو مصافحة باليد ، وانما كان عناقا وقبلة .. ولاح لى أن من الطبيعى، وان من المبهج ان أحظى بحبه وعناقه . وقال : « انك ياجين تبدين فى هذا الصباح متألقة ، باسمة ، جميلة .. انك جميلة حقا فى هذا الصباح .. أفهذه شيطانتى الشاحبة الذابلة ؟.. أحقا تحولت الى هذا الوجه المشرق ، والخدين اللذين تتوسطهما غمازتان ، والشفتين الورديتين ، والشعر الكستنائى الاملس ، والعينين العسليتين المتألقتين ؟ » .. ولقد كانت عيناى خضراوين ، ولكن ، ليتجاوز القارىء عن هذا الخطأ ، فقد لاحتا فى نظره مصطبغتين بلون جديد !

ـ انها جين اير ياسيدى

ـ ستصبح عما قريب « جين روشستر » .. بعد أربعة أسابيع ياجانيت.. لا أكثر ! هل تسمعين ؟

أجل ، سمعت قوله وان لم أفقه معناه ، اذ شعرت برأسي يدور ، فان الشعور الذى بعثه هذا القول فى نفسى كان أقوى من الفرح والاغتباط .. كان شعورا أذهلنى وكاد يرسل الخوف الى قلبى . فسألنى مستر روشستر : « لقد تضرج وجهك ثم امتقع فلماذا ياجين ؟ »

ـ لانك أطلقت على اسما جديدا له وقع عجيب فى أذنى

ـ نعم يامسز روشستر .. الصغيرة !.. عروس فيرفاكس روشستر

ـ لن يكون هذا ياسيدى ولا يحتمل ، لان البشر لاينعمون بالسعادة الكاملة

المطلقة فى هذا العالم .. وأنا لم أولد ليكون حظى مخالفا لحظوظ بنات جلدتى .. ان مجرد تصور اننى سأصيب كل هذا الحظ ، يبدو لى أشبه بخرافة أو حلم يراودنى فى يقظتى

ـ ولكن فى وسعى أن أحققه وسأحققه !.. وقد قطعت اليوم الخطوة الاولى ، فكتبت الى وكيل أعمالى فى لندن كى يبعث الى ببعض لآلىء يحتفظ بها .. انها ميراث تتداوله سيدات (ثورنفيلد) ، وآمل ان ألقى به فى حجرك ،لاننى سأوليك كل اهتمام كنت خليقا بأن أوليه أية فتاة كان يحتمل ان أتزوجها من بنات النبلاء

ـ أوه ياسيدى . دعك من اللآلىء .. لا أريد ان أسمع عنها شيئا ، لان اللآلىء لجين اير شىء له فى السمع وقع غريب غير طبيعى ، ولذلك فلست اريدها !

ـ سوف أضع بيدى عقد الماس حول جيدك ، والاساور حول هذين المعصمين، وازين هذه الاصابع الصغيرة بالخواتم !

ـ كلا .. كلا .. ياسيدى .. فكر فى موضوع آخر وتكلم فى أمور غير هذه الامور ، ولا تخاطبنى كما لو كنت حسناء .. لاتنس اننى مربية بسيطة فى خدمتك !

ـ انك حسناء فى عينى .. حسناء يتمناها قلبى ، رقيقة كالنسيم !

ـ تافهة لا وزن لها .. هذا ماتعنيه ! أأنت تحلم ياسيدى ، أو انك تسخر منى ؟.. بالله لاتمعن فى تهكمك !

★ ★ ★

◆ ولكنه استرسل دون أن يحفل بقولى : « سأحمل العالم على أن يعترف بجمالك أيضا .. سأكسوك بالدانتلا والحرير ، وستزينين شعرك بالورود والزهور ، وسأغطى الرأس الذى أحبه بوشاح أميرة من الاميرات » ..وشعرت بأنه يتعمد ان يغرر بى أو بنفسه فقلت : « انك لن تعرفنى اذ ذاك .. ان أكون جين اير ، بل سأصبح قردة ترتدى ثوب مهرج !.. اننى لا أدعى انك جميل وان كنت أحبك حبا طاغيا يمنعنى من تملقك ، فلا تتملقنى ! » .. ولكنه لم يحفل بقولى ، بل استطرد قائلا : « سأرافقك اليوم فى العربة الى (ميلكوت) لكى تختارى بعض ثياب لك ، فقد سبق ان أخبرتك بأننا سوف نتزوج بعد أربعة أسابيع ، وسيتم زواجنا ـ فى الكنيسة القريبة من هنا ـ فى هدوء ، ثم نسافر فورا الى لندن ، وبعدها بفترة وجيزة ، سأحملك يادرتى الى مناطق أقرب الى الشمس .. الى كروم فرنسا ، وسهول ايطاليا . وسترى عندئذ كل ماذاع ذكره فى التاريخ القديم ، وكل ماعرف فى العصر الحديث . وسوف نتذوق كذلك طعم الحياة فى المدن ، وستعرف جين

كيف تقدر قيمتها بمجرد مقارنة نفسها بالاخريات !

ـ هل سأسافر ؟٠٠ ومعك انت ياسيدى ؟

ـ ستقضين فترات فى باريس وروما ونابلى وفلورنسا والبندقية وفيينا » ٠ كل أرض جبتها أنا ، ستطئينها أنت بقدميك ٠٠ أينما حللت ستذهبين ياملاكى ٠ لقد فررت الى أوربا منذ عشر سنوات ، ورحت أتنقل فى ارجائها كالمجنون ، دون ما رفيق سوى ماكنت أحمله فى قلبى من النقمة والكراهية والحنق ، وسأعود الآن لزيارتها بقلب شفى وتطهر ، ومعى « ملاك » حقيقى يرفه عنى !

فضحكت منه وقلت : « لست من الملائكة ، ولن أكون حتى أموت ٠٠لاتتوقع ولا تطلب منى شيئا سماويا لانك لن تحصل عليه كما اننى لن أحصل عليه منك لو نشدته منك !٠٠ ولذلك فلست أتوقع منك ان تكون ملاكا ! » ٠٠ فقال : « وماذا تتوقعين منى ؟ » ٠٠ قلت : « ربما ظللت كما أنت الآن لفترة قصيرة ، ثم لن تلبث أن يتولاك الفتور وتغدو متقلبا،ثم صلبا ، وعندئذ سأحاول ما استطعت ان أرضيك ٠ ومتى ألفتنى جيدا فربما عدت تميل الى مرةأخرى٠٠ أقول « تميل الى ، ولا أقول تحبنى » ، لان حبك سوف يتبخر بعد ستةأشهر أو أقل ٠ فقد قرأت فى الكتب التى ألفها الرجال ان هذه الفترة هى أقصى مدة يبقى فيها الزوج على حبه ٠٠ ومع ذلك فاننى أرجو ـ باعتبارى صديقة سيدى ورفيقته ـ ان لاتسأمنى وتملنى الى هذا الحد »

ـ أسأم !٠٠ أميل اليك ثانية !٠٠ لسوف أجعلك تعترفين بأننى لا أميل اليك ، وانما أحبك حبا صادقا عارما

ـ ومع ذلك ، أفلست متقلب الاهواء ياسيدى ؟

ـ مع النساء اللائى يرضيننى بوجوههن وجمالهن الظاهرى فقط ٠٠ اننى أصبح شيطانا عندما اكتشف انهن بلا أرواح أو قلوب ، وعندما يظهرن لى السخف والتفاهة وربما الغباء والفظاظة وسوء الطبع ، ولكننى محب حنون ، صادق ، للعين الصافية واللسان الفصيح والروح المتأججة والطبع الذى يلين ولكنه لاينكسر ٠٠ فهو تارة مرن مطواع ، وتارة صلب يابس !

ـ هل صادفت مثل هذا الطبع ياسيدى ؟٠٠ هل أحببت فى حياتك واحدة من هذا الصنف ؟

فهتف : « اننى أحبها الآن » ٠٠ قلت : « أعنى قبل ، اذا كنت انا قد بلغت حقا ذلك المستوى الشاق الذى تنشده » ٠٠ فقال : « لم أصادف مثيلا لك من قبل ياجين ٠ انك تبعثين الغبطة فى نفسى وتسيطرين على ٠ انك تظهرين بمظهر الخضوع والامتثال ، فأحب فيك هذا اللين ٠ وعندما أداعب جدائل شعرك الناعم بأصابعى تسرى النشوة الى قلبى ٠ لقد غلبت على أمرى وقهرت ، ومع ذلك فاننى أشعر فى اندحارى بحلاوة يعجز لسانى عن الافصاح

عنها ، والمس فى قهرى لذة دونها أعظم ظفر وانتصار · لماذا تبتسمين ياجين ؟ ·· ما معنى هذه الصورة المبهمة الساذجة التى أراها على وجهك وسحنتك ؟ »

ـ كنت أفكر (واغفر لى الفكرة لاننى لم أتعمدها) فى هرقل وشمشون وساحرتيهما

ـ أهكذا أيتها الشيطانة الصغيرة ؟

ـ صه ياسيدى فانك لاتتحدث الآن بحكمة تفوق ما أبداه كل من هذين الرجلين فى أعمالهما · ومع ذلك فلو انهما كانا متزوجين لعوضا بقسوتهما كزوجين ، ما أبدياه من رفق وحنان كعاشقين ، وهو ما أخشى ان تفعله ·· وانى لاتساءل بماذا تجيبنى اذا جئتك بعد عام وسألتك ان تسدى الى معروفا ليس من مصلحتك أن تسديه ؟

قال : « سلينى الآن ماشئت ياجين ! » ، فقلت : « سأفعل ياسيدى ، فالواقع اننى أعددت ملتمسى »

ـ تحدثى !·· أما اذا رفعت عينيك وابتسمت بهذه الاسارير ، فسوف أقسم ان أجيبك قبل أن أعرف سؤالك · · وفى هذا مايجعلنى أحمق !

ـ عفوا ياسيدى ·· انما أطلب اليك ان لا ترسل الى عميلك فى طلب اللآلىء ، والا تتوج رأسى بالورود والزهور ، والا وجب أيضا ان تضع شريطا من الدانتلا الذهبية على طرف منديلك هذا البسيط !

ـ وفى وسعى كذلك أن أطلى الذهب النقى بطبقة أخرى من الذهب اذا طلبت!·· ان طلبك مجاب اذن فى الوقت الراهن ، وسأرسل الى وكيلى أسحب أوامرى الاولى ·· ولكنك لم تطلبى شيئا حتى الآن ، بعد ان توسلت الى ان أسحب الهدية التى أردت تقديمها اليك · هيا جربى ثانية !

ـ اذن تكرم على ياسيدى بمنحة أخرى ·· أريد الوقوف على أمر يريح بالى

فتبدى على وجهه القلق ثم قال من فوره : « ماذا ؟ ماذا ؟ ان هذا التماس خطير ، وكان يجدر ألا أقطع على نفسى عهدا بأن أجيب كل ماتطلبين » ·· فقلت : « ليس فى اجابة طلبى أى خطر ياسيدى »

ـ اذن قولى ماذا تريدين ؟·· اننى أوثر ان تطلبى نصف مقاطعتى على أن تسألينى عن سر من الاسرار

ـ ماذا أعمل بنصف ماتمتلك ؟·· اننى أوثر الظفر بثقتك · ترى هل تقصينى عن ثقتك اذا فتحت لى مغاليق قلبك ؟

ـ أهلا بك موضعا لثقتى التامة فيما يستحق ياجين ، ولكن لاتطلبى لنفسك بالله عبئا ثقيلا ، ولا تتلهفى على السم ، ولا تتحولى على يدى الى مجرد امرأة·· حواء !

ـ لم لا ياسيدى ؟·· لقد أخبرتنى لتوك بانك تحب كثيرا أن تقهر وتجد لذة فى الالحاح والاغراء ، فهلا ترى جديرا بى أن أفيد من هذا الاعتراف ،

فأشرع فى التزلف والتضرع ، بل وفى البكاء والغضب عند اللزوم لتوطيد سلطانى ؟

ـ اننى أشفق عليك من مثل هذه التجربة · جاوزى حدك ·· استرسلى وسوف تنالين بغيتك !

ـ أحقا ياسيدى ؟·· أتستسلم على الفور ؟·· ما أشد عبوسك الآن !·· لقد أصبح حاجباك فى كثافة اصبعى ، وغدا جبينك ـ على حد قول الشعراء ـ « كعاصفة مدلهمة » !·· وهكذا سيكون مظهرك بعد الزواج ·· أليس كذلك ياسيدى ؟

ـ اذا كان هذا سيغدو مظهرك انت الاخرى بعد الزواج ! ولكن ماذا تريدين ان تسأليني ·· هيا افصحى أيتها المخلوقة !

ـ انك تنتقص الآن من ظرفك ولطفك ، ولكنى أوثر الخشونة كثيرا على الملق ·· ولذلك أفضل أن أكون « مجرد مخلوقة » على أن أكون « ملاكا » ! أما سؤالى فهو : لماذا كبدت نفسك العناء لتحملنى على الاعتقاد بأنك تريد الزواج من مس انجرام ؟

فهتف : « أهذا كل شيء ؟·· أحمد الله على انه لم يكن أسوأ من ذلك ! » ·· وانبسطت أساريره ثم نظر الى باسما ، وأخذ يداعب شعرى ، وكأنما سره أن يفلت من خطر كان يتهدده · ثم استرسل يقول : « أظن من واجبى ان أعترف لك ، وان كان فى اعترافى ماقد يثير غضبك بعض الشيء ياجين ، بعد ان تبينت أية روح متقدة تتملكك عندما تغضبين ·· فقد اتقدت غضبا فى ضوء القمر فى الليلة الماضية ، عندما تمردت على القدر وطالبت بأن تكونى ندا لى فى مركزى · وعلى ذكر هذا أقول انك انت التى تقدمت بهذا العرض ياجانيت » ·· فقلت : « هو ذلك فعلا ، ولكن لاتخرج عن الموضوع ياسيدى ، أرجوك · ماذا لديك عن مس انجرام ؟ » ·· واذ ذاك قال : « حسنا · لقد تظاهرت بمغازلة مس انجرام رغبة منى فى ان أجعلك تجنين بحبى ، كما انا مجنون بحبك · وكنت أعلم ان الغيرة خير حليف أستطيع اللجوء اليه حتى أصل الى ما أهدف اليه ! »

ـ مدهش !·· انك الآن تتضاءل حتى لاتعدو قلامة ظفرى ! والحق ان تصرفك كان يدعو للخزى والفضيحة ·· ألم تفكر قط فى شعور مس انجرام ياسيدى ؟

ـ كان شعورها مركزا فى شيء واحد ، هو الكبرياء ··وهو مايجب اذلاله· هل أحسست بالغيرة ياجين ؟

ـ دعنا من هذا يامستر روشستر ، فانه لايعنيك فى شيء · واجبنى الآن فى صدق وأمانة للمرة الثانية : ألا تعتقد ان مس انجرام لن تتألم لنقضك عهدها ولغزلك غير الصادق ؟ ألا تشعر المسكينة بأنها مهجورة منبوذة ؟

ـ مستحيل ! لقد اخبرتك بانهـا هى التى هجرتنى ونبذتنى ـ فى لحظة واحدة ـ بعد ان اخمدت نارها فكرة اعسارى وافلاسى !

ـ ان لك يامستر روشستر عقلية غريبة ٠٠ وأخشى ان تكون مبادئك فى بعض الامور شاذة كل الشذوذ

ـ ان مبادئى لم تهذب ولم تطبق بعد ياجين ، ولعلهـا تنحرف فى بعض الاحيان نتيجة افتقارها الى الرعاية والعناية

ـ اخبرنى مرة أخرى بجد وصدق : هل فى وسعى ان أنعم بالخير العميم الذى أغدقته على ، دون ان أخشى ان يقاسى غيرى الالم المرير الذى قاسيته منذ قليـل

ـ اطمئنى أيتها الفتاة الصغيرة الطيبة ، فليس فى العالم انسـان آخر يحمل لى فى قلبه حبا نقيا مثل حبك ٠٠ اننى أبسط على روحى ذلك البلسم الناعم ، وأعنى به الايمان بحبك !

فحولت شفتى الى اليد التى وضعها على كتفى وقبلتها بدافع من حب كنت أعجز عن تصديقه ، وتعجز الكلمات عن وصفه ٠ وما لبث ان قال : « اسألى المزيد ، فانه يلذ لى ان أتقبل السؤال فأطيع » ٠٠ فتأهبت مرة أخرى لسؤاله، وقلت : « أرجو ان تبلغ مسز فيرفاكس ما استقر عليه رأيك ياسيـدى ، فقد رأتنى بالامس فى البهو معك ، فهالها ما رأته !٠٠ فسر لها موقفناقبل انأراها ثانية لانه يؤلمنى ان تظن بى الظنون سيدة صالحة مثلها ! »

ـ اذهبى الى غرفتك وضـعى قبعتك على رأسـك ، لاننى أريد أن أرافقك الى (ميلكوت) فى هذا الصباح ٠ وسأنتهز فرصة استعدادك للخروج ،فأذهب لمقابلتها وأشرح لها الامر ٠ أترينها ياجانيت تعتقد انك بعت الدنيا من أجل الحب ؟

ـ بل اعتقد انها حسبتنى قد نسيت مركزى ومركزك ياسيدى

ـ مركزك ! مركزك !٠٠ ان مركزك فى قلبى وعلى أعناق من يهينونك الآن أو فيما بعد ٠٠ هيا !

★ ★ ★

◆ وسرعان ما ارتديت ملابسى ٠ وعندما سمعت مستر روشستر يغـادر حجرة مسز فيرفاكس ، هبطت اليها مسرعـة ، فاذا السـيدة العجوز تقـرأ درسها اليومى فى كتاب الصلاة ، لان التوراة كان مفتوحا أمامها ، وعليـه نظارتها ٠ وكانت قد توقفت عن قراءتها بعد زيارة مستر روشستر ، وأخذت تحملق شاردة اللب فى الجدار المقابل ، وقد بدت عليها الدهشة التى أثارتها الانباء غير المتوقعة ٠ فلما رأتنى ، أفاقت من تأملاتها ، وحاولت ان تبتسم ،

ثم غمغمت ببعض كلمات هنأتني بها ٠ ولكن الابتسامة ما لبثت ان غاضت ، وجفت الكلمات ، ثم وضعت نظارتها على عينيهـــا وطوت الكتاب ، ودفعت مقعدها الى الخلف بعيدا عن المنضدة وخاطبتني قائلة : « انني أشعر بالدهشة، ولا أكاد أدرى ماينبغي ان أقوله لك يامس اير !٠٠ لا شك في انني كنت أحلم ٠ أليس كذلك ؟٠٠ لقد تأخذني أحيانا سنة من النوم ، فأتصور أشياء لم تحدث على الاطلاق ، وكم خيل الى في غفواتي ان زوجي العزيز ــ الذي قضى منذ خمسة عشر عاما ــ قد جاء وجلس بجانبي ، وأخذ يناديني باســمي (أليس) ، كمــا اعتاد ان يفعل ، فهل في وســعك الآن أن تؤكدي لي ان مستر روشستر طلب الزواج منك ؟٠٠ لاتضحكي مني ، لانني واثقة من انه جاءني فعلا منذ خمس دقائق وأخبرني انك سوف تصبحين زوجته بعد شهر واحد ! » ٠٠ فأجبتها : « لقد قال لي نفس الشيء ! » ٠٠ فهتفت : « حقا ؟ ٠٠ وهل تصدقينه ؟٠٠ وهل قبلت ؟ » ٠٠ واذ قلت : « نعم » ، نظرت الى في عجب وحيرة ، وقالت : « لم يخطر لي ذلك ببال ، لانه رجل متكبر ككل آل روشستر ، ولان اباه على الاقل كان محبا للمال ٠ ثم انه يوصف دائما بالدقة والحذر ، فهل يقصد فعلا ان يتزوجك ؟ »

ــ هذا ما يقوله

وراحت تتأملني ، فقرأت في عينيها انها لا تجد في فتنة تكفي لتبرير هذا اللغز ٠٠ ثم استرسلت تقول : « هذا ما لا أتصوره ! ولكن لاشــك في صحة الخبر لانك تؤيدينه ٠٠ أما كيف يكون هذا ، فلست أدرى ، ولا أستطيع ان أجزم ، لان من الامور التي يحبذها الناس في مثل هذه الاحوال : المساواة في المركز والثراء ٠٠ ثم ان هناك عشرين عاما بينك وبينه ، فهو أجدر بأن يكون لك بمثابة الاب ! » ٠٠ فصحت مستاءة : « كلا يامسز فيرفاكس ٠٠ انه لايكبرني الى الدرجة التي تجعله بمثابة الاب ٠ ولا يخطر هذا برأس من يرانا معا ، بل انه يبدو كشاب في الخامسة والعشرين »

فسألتني : « أهو الحب الذي جعله يقدم على الزواج منك حقا ؟ »

وتألمت لبرودها وشــكوكها ، فاغرورقت عينـــاى بالدموع ٠٠ واسترسلت الارملة تقول : « يؤسفني ان أكدر خاطرك ، ولكنك صــغيرة قليلة الخبرة بالرجال ، فأردت أن أحذرك ، لان المثــل القديم يقول : « ماكل لامع بذهب»٠ وأخشى في هذه الحالة ان يوجــد شيء يختلف عما تتوقعينه وأتوقعــه » ٠٠ فتساءلت متألمة : « ولماذا ؟٠٠ هل أنا غريبة الخلقة ؟ هل يستحيل أن يشعر نحوى مستر روشستر بحب خالص ؟ » ٠٠ فقالت : « لا ٠٠ انت على خــير حال ، بل انك تحسنت كثيرا في المدة الاخيرة ٠ واعتقد ان مستر روشستر مغرم بك ، اذ طالما لحظت أنه يدللك ، وقد مرت بي أوقات ساورني فيهــا القلق بسبب ايثاره اياك ، وأحببت أن احذرك ، ولكنني لم أشــأ ان أفترض

احتمال وقوع أى شيء ، كما كنت أعلم ان مثل هذه الفكرة قد تغضبك .. ونظرا لما أعهده فيك من التبصر بالامور ، وشدة الحياء والحساسية ، فقد ساورني الامل فى انك ستعرفين كيف تصونين نفسك . اننى لا أستطيع ان أصف لك ما قاسيته ليلة أمس من الآلام عندما بحثت فى جميع ارجاء القصر فلم أجدك ولم أجد السيد .. وأخيرا رأيتك قادمة معه فى منتصف الليل ! »

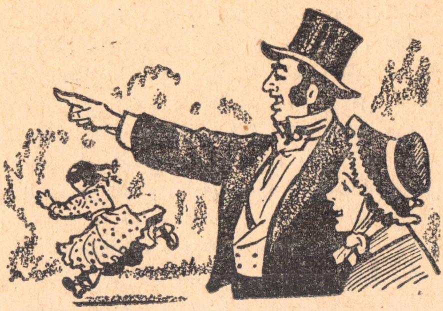
فقاطعتها بصبر نافد : « لا تبالى هـذا الآن .. يكفيك ان تعلمى ان كل شيء سار فى طريق سليمة » .. فقالت : « وآمل ان ينتهىأيضا نهاية سليمة. ولكن .. تأكدى انك لاتستطيعين ان تكونى مفرطة فى الحذر والانتباه .. حاولى ان تقصى عنك مستر روشستر ، ولا تثقى بنفسك ولا به ، لان السادة الذين فى مثل مركزه لايتزوجون عادة من مربيات أطفالهم » .. والحق اننى ازددت سخطا وانفعالا ، ولكن أديل أقبلت اذ ذاك ـ لحسن الحظ ـ وهى تصيح : « دعينى أذهب .. دعينى أذهب أنا كذلك الى (ميلكوت) . ان مستر روشستر لايريدنى مع ان بالعربة الجديدة فراغا فسيحا .. توسلى اليه ان يدعنى أذهب يا آنسة ! » .. فقلت متلطفة : « سأفعل يا أديل » .. ثم أسرعت معها وقد ابتهجت لتخلصى من ذلك الوحش الكئيب . وكانت العربة قد أعدت ، واقتيدت لتقف أمام المدخل ، بينما كان السيد يذرع الافريز ومن خلفه كلبه بايلوت يسير معه هنا وهناك ، فقلت أسأله : « تستطيع أديل ان ترافقنا .. أليس كذلك ياسيدى ؟ » ، فصاح : « قلت لها : كلا .. لست أريد ثرثارات ، وانما أريدك انت فقط »

ـ دعها تذهب معنا يامستر روشستر ، أرجوك .. يحسن ذلك

ـ كلا .. سوف تضطرنا الى أن نلزم الحذر والتحفظ.

وكان غاية فى الحزم سواء فى نظرته أو لهجته . واستبدت بى تحذيرات مسز فيرفاكس وشكوكها ، فشعرت بشيء من القلق يغالب آمالى ، واحسست بأننى فقدت نصف نفوذى عليه ، واننى أكاد أخضع برغمى لارادته .. ولكنه نظر الى وجهى عندما ساعدنى على ركوب العربة وسألنى : « ما الذى جرى ؟ .. لقد تبدد منك اشراقك فهل حقا تريدين هذه الثرثارة معنا ؟ » .. فقلت: « أوثر أن تأتى معنا ياسيدى » .. فصاح يخاطب أديل : « اذن اسرعى وهاتى قبعتك بسرعة البرق ! » .. فأطاعته بأقصى سرعتها .. بينما قال يحدثنى : « لا بأس من ان نجد من يعكر علينا صفونا فى هذا الصباح ، مادمتسأحظى بك عن قريب .. بك وبأفكارك وأحاديثك ورفقتك .. طيلة العمر ! »

ولما عادت أديل واستقلت العربة ، جعلت تقبلنى اعترافا بجميلى ، ولكن مستر روشستر أجلسها بجانبه من الناحية الاخرى ، فلم تجرؤ على التكلم أو مطالبته بشيء .. بيد أنها أخـذت تسترق النظر الى ـ حيث جلست ـ وهى متبرمة بجارها المتجهم ، فقلت أضرع اليـه : « دعها تأت الى حتى لاتزعجك



ياسيدى . وهنا فى هذه الناحية متسع » . فرفعها وناولنى اياها كأنها جرو صغير ثم قال وهو يبتسم : « هل ألحقها بمدرسة ؟ » .. وسمعته اديل ، فسألت : أتذهب بدون الآنسة . وكان جوابه : « نعم بدون الآنسة لاننى سآخذها الى القمر حيث أبحث عن كهف فى واد من الاودية البيضاء بين قمم البراكين . وهناك ستعيش الآنسة معى وحدى ! »

فاعترضت الصغيرة قائلة : « انك لن تجد ما تأكله وسوف تقتلها جوعا » .. فقال : « بل سأجمع لها المن فى الصباح والمساء ، لان السهول وسفوح التلال فى القمر زاخرة بالمن يا أديل »

ـ انها ستحتاج الى أن تدفىء نفسها .. فمن أين تأتى لها بالنار ؟

ـ تخرج النار من جبال القمر ، فاذا شعرت بالبرد حملتها الى قمة عالية ، ووضعتها على حافة فوهته

ـ ستسوء حالها لقلة الراحة ، وسوف تبلى ملابسها ، فمن أين تأتى بغيرها؟ وتجلت على مستر روشستر الحيرة فسعل وقال : « ماذا كنت تصنعين انت يا أديل ؟ فكرى جيدا .. هل تنفع سحابة بيضاء أو قرنفلية لعمل جلباب ؟.. وهل يمكن صنع وشاح جميل من قوس قزح ؟ » .. فأجابته بعد تفكير : « انها أحسن حالا كثيرا .. فى وضعها الراهن ، وفوق ذلك فانها لن تلبث أن تمل الحياة معك وحدك فى القمر . ولو كنت فى مكانها لما رضيت بالذهاب معك ! » .. قال : « ولكنها رضيت وقد عاهدتنى على ذلك »

ـ ولكنك لاتستطيع أخذها الى القمر ، لانه لايوجد طريق الى هناك ، كما أنكما لاتستطيعان الطيران

وكانت العربة قد خرجت من بوابات (ثورنفيلد) وسارت خفيفة فى الطريق

المرصوف الى (ميلكوت) ، حيث تراكمت الاتربة بعد العاصفة ، وبدت الاشجار الشامخة على الجانبين لامعة خضراء وقد أنعشها المطر ، فقال مستر روشستر:
« أنظرى الى هذا الحقل يا أديل • لقـــد كنت أتمشى فيه ذات مســاء منذ أسبوعين ، عندما تولانى التعب ، فجلست أستريح على السياج • وهنـــاك أخرجت دفترا صغيرا وقلما ثم أخذت أكتب عن حادث سىء أصابنى منذ زمن بعيد ، وعن رغبتى فى التمتع بأيام سعيدة مقبلة •• وفيمـــا كنت أكتب بسرعة ـ وعلى الرغم من الظلام ـ رأيت مخلوقة تقف أمامى على بعد خطوتين ! •• ونظرت اليها فرأيتها ضئيلة الجسم ، وقد أسدلت على وجهها خمارا !•• وأشرت اليها أن تتقدم ففعلت ، ووقفت على الفور عنـد ركبتى •• ولم أتكلم معها قط ، ولا تحدثت هى الى بصوت مسموع ، ولكننى قرأت كلامها فىعينيها كما قرأت هى حديثى فى عينى •• وكان مضمون حديثنا باللغة المألوفة هو :
« كانت جنيـــة قدمت من أرض الاقزام • وكانت مهمتهــا أن تســعدنى ، ومهمتى ان أذهب بها بعيدا عن العالم الارضى الى مكان منعزل كالقمر مثلا • فأومأت برأسها نحو التـــل ، ثم حدثتنى عن الـكهف المرمرى والوادى الفضى اللذين نستطيع الاقامة فيهما ، فقلت اننى أود الذهاب ، ولكننى ذكرتها ـ كمــا ذكرتنى الآن يا أديل ـ بأننى لم أوت أجنحة أطير بها فقالت الجنية :
ـ أوه • هذا لايهم ! هاك تعويذة تزيل كل العقبات
« ثم ناولتنى خاتما بديعا من الذهب وقالت : « ضعه فى سبابة يسراك تجدنى ملكا لك وتصبح ملكا لى ! وسوف نغادر الارض ونقيم فى جنتنا بعيــدا عن هنا ! » •
« ثم أومأت نحو القمر مرة أخرى •• وهذا الخاتم يا أديل فى جيبسترتى متنكرا فى صورةجنيه ذهبى ، ولكننى أعتزم حالا أن أحوله الى خاتممرة أخرى ! »
•• فقالت الصغيرة :
ـ ولكن ما شأن الآنسة بذلك ؟•• لايهمنى أمر الجنية •• فقد قلت انهاهى التى ترغب فى ان تأخذها الى القمر ! » • فقال وهو يهمس همسا يثيرفضول الفتاة : « الآنسة جنية ! »

★ ★ ★

❖ ودعوت أديل اذ ذاك الى أن لا تعير مزاحه أهمية ، بينما أظهرت هى من جانبها ذخيرة من التشكك ، ودمغتمستر روشستر بأنه «كذاب حقيقى !» ، وأكدت له انها لا تبالى بقصصه عن العفاريت ، وانه لا وجود للعفاريت الآن على الاقل ، وانها واثقة من انهم لايمكن أن يظهروا أو أن يعطوه خواتم ، أو يعرضوا عليـه ان يعيش معهم فى القمر • وكانت الساعة التى قضيتهـــا فى (ميلكوت) مضجرة بالنسبة لى ، اذ أكرهنى مستر روشستر على ان أختـار

ستة « فساتين » .. وهى مهمة أكرهها ، فتوسلت اليه ان يعفينى منهـا ، ولكنه أبى الا أن ننتهى من ذلك فورا . على اننى استطعت بتوسلات هامسة ان أنقص العـدد الى اثنين أقسم أن يختارهما بنفسه . ورحت أرقبه فى قلق وهو يتنقل بعينيه فى المتاجر ، الى أن وقع اختياره على ثوبين . ولكنى وجدت لونهما زاهيا لامعا الى درجة لا أجرؤ معها على ارتدائهما . وبعد عناء شديد استطعت أن اغريه على ان يستبدل بهما ثوبا اسود من الحرير ، وآخر فضيا فى لون اللآلىء

وسررت عندما غادرت متجر الملابس ثم محل المجوهرات بعد ذلك . وكان وجهى يتضرج بحمرة الحنق والمذلة كلما ابتاع لى شيئا ، حتى عدت الى العربة واتخذت فيها مكانى كالمحمومة المنهـوكة ، فتذكرت ـ وسط دوامة الاحداث قاتمها ومشرقها ـ اننى نسيت خطاب خالى الى مسز ريد واعتزامه أن يتبنانى ويجعلنى وريثته ، وقلت أحدث نفسى : « سيكون فى ذلك عزاء لى فى الواقع ، فلو أن لدى شيئا من الاستقلال ، لما قبلت أن يلبسنى مستر روشستر كمـا لو كنت دمية ! » . وعقدت العـزم على ان أكتب الى (ماديرا) بمجرد عودتى الى القصر ، فأزف لخالى خبر زواجى القريب .. ولما كان من المحتمل ان يصبح مستر روشستر وريثا لبعض ثروتى القادمة ، فقد رأيت أن أتركه الآن ينفق على . وبهذه الفكرة ارتحت نفسا ، وجسرت على أن أقابل نظرات سـيدى وحبيبى التى كانت تبحث دائما عن نظراتى ، فى حين اننى كنت دائما أتحاشى وجهه وعينيه !.. وابتسم فخيل لى انها ابتسامة سلطان يلقيها عـلى جارية أغدق عليها ذهبه ومجوهراته ، فشددت على يده بكل قوتى ـ وكانت دائمـا تبحث عن يدى ـ ثم دفعتها اليه وقد بدت عليها آثار ضغطى الشديد المنفعل ، وقلت : « ليس ثمة مايدعوك الى النظر الى هكذا ، واذا فعلت فلن أرتدى الى النهاية غير ثوبى الذى كنت أرتديه فى (لو وود) ، ولن أتزوج الا مرتدية هـذا الثـوب المصنوع من التيـل الابيض . أما انت ففى وسـعك أن تصنع لنفسك جلبابا من الثوب الفضى وعددا لا حصر له من الصدارى من الثـوب الحريرى الاسود ! » .. فقهقه عاليـا وفرك يديه ثم صاح : « ها . ها . ما أجمل أن أراك وأن أسمعك !.. انك شاذة الاطوار ، لاذعة اللسـان ، ولكننى أؤثرك على جوارى السلطان من الحور ذوات العيون الغزلانية »

وآلمتنى هذه الاشارة للشرق مرة أخرى فقلت : « أنا لا أحتمـل قط ان تشبهنى بحريم السلطان ، واذا كانت لديك شهوة من هـذا القبيل فلتذهب ياسيدى الى أسواق (استامبول) فورا ولتدفع لاحد تجار الرقيق جانبا من أموالك التى لاتدرى فيم تنفقها هنا ! »

ـ وماذا تفعلين ياجانيت عندما أساوم فى شراء مثل هذه القناطير العديدة

من اللحم ، ومن هذه العيون النجلاء ؟

ـ أعد نفسي للسفر مبشرة بالحرية بين من وقعن أسيرات فى أغلال الرق، بما فيهن جواريك ياسيدى ، وسأعرف كيف أصل اليهن وأشعل فىصدورهن نار الثورة ، وأبث فى قلوبهن روح العصيان ، فلا تلبث ان تجد نفسكرازحا بين أيدينا فى الاصفاد والاغلال ، أما أنا فلن أرضى بتحطيم قيودك حتى توقع عهدا ، يصبح أعظم عهد وقعه حاكم مستبد من حيث الكرم والسخاء والتساهل

ـ يرضيني ان أكون تحت رحمتك ياجين

ـ لن أعرف معنى للرحمة والشفقة مادمت تنظر الى بهذه العين ٠٠ومادامت هذه نظرتك ، فلا شك عندى فى ان أول ماسوف تعمله بعد اطلاق سراحكهو نقض العهد الذى قطعته مكرها على نفسك !

ـ ماهذا ياجين ؟٠٠ اخشى ان تضطرينى الى القيام بحفلة زواج خاصة غير تلك التى تقام عادة أمام المذابح !٠٠ أراك ترمين الى شروط خاصة غريبةفماهى؟

ـ لا أطمع فى غير راحة البال ياسيدى ٠٠ لا أريد ان ترهقنى بالالتزامات المتعددة ٠ هل تذكر ماقلته عن « سيلين فارنس » ؟ ٠٠ عن اللآلىء والكشمير وغير ذلك مما كنت تغدقه عليها ؟ لن أكون « سيلين » الثانية ، بل أفضل ان أظل معلمة لاديل وأن أكتسب بذلك طعامى ومسكنى وثلاثين جنيها فى السنة. وان أشترى من هذا المرتب ما أريد من ثياب ٠ أما أنت فلا أطمع منك فى غير ٠٠

ـ فى غير ماذا ؟

ـ فى غير الاحترام ٠٠ واذا منحتكاحترامى فىمقابل احترامك لى ، فلن يبقى احد منا مدينا للآخر بشىء

فقال مستر روشستر : « ليس لك مثيل فى فطنتك الباردة المعتدة ، وفى كبريائك الغريزية المحضة »

وكنا قد اقتربنا اذ ذاك من ثورنفيلد فسألنى : « هل يسرك ان تتناولى العشاء معى الليلة ؟ »

ـ كلا ٠٠ شكرا ياسيدى

ـ هل لى ان أسألك عن معنى « كلا ٠٠ شكرا ياسيدى » ؟

ـ لم أتناول معك طعام العشاء من قبل ياسيدى ، ولا أرى الآن مايدعونى الى ذلك حتى ٠٠

ـ حتى ماذا ؟ انه يسرك دائما ان تنطقى بالجمل ناقصة !

ـ حتى يصبح هذا أمرا محتوما على !

ـ أتحسبين اننى التهم طعامى كالغول ، وانك لذلك تخشين مشاركتى فى تناول الطعام ؟

ـ لم اكون بعد فكرة ما فى هــذا الشأن ياسيدى ، ولكنى أريد أن أظل على طريقتى المألوفة لشهر آخر

ـ بل ستتحررين من عبودية تربية الاطفال فى الحال

ـ معذرة ياسيدى · الواقع اننى لن أفعل ، بل سوف استمر فى عمــلى ، وسأتحاشى طريقك طوال النهار كعادتى · ولك أن ترسل فى طلبى فى المساء اذا ما لمست فى نفسك رغبة فى مقابلتى ، وعندئذ سأتى حالا ولكنى لن أفعل أكثر من ذلك !

ـ أنا فى حاجة الى التدخين أو الى قليل من السعوط ياجين لتهدئة خواطرى أمام كل هذا ، ولكنى للاسف لا أحمل معى سجائر أو سعوطا فاصغى الى · هذا وقتك أيتها الطاغية الصغيرة ، ولكن ســـوف لاتنقضى فترة وجيزة حتى يكون الامر أمرى ، ومتى قبضت على زمامك فسوف أشدك بسلسلة كهذه ـ وأشار الى سلسلة ساعته ـ نعم سألبسك فى صدرى مخافة أن تضيع جوهرتى!

قال ذلك وهو يساعدنى على مغادرة العربة · وفيما كان منشغلا مع أديل، انتهزت الفرصة وأسرعت الى حجرتى · وعندما جاء المساء ، أرسل يدعونى · وكنت قد أعـــددت له مايشغله ، اذ اعتزمت ان لا أقضى معه الوقت كله فى حديث مقصور علينا نحن الاثنين فقط ·· ولقد تذكرت صوته الرخيم ،وكنت أعرف انه يحب أن يغنى شأنه فى ذلك شأن من يجيد الغناء ·· ولم أكن ذات صوت جميل ، كما اننى كنت ـ فى حكمه القاسى ـ لا أجيد الموسيقى ، ولكنى كنت أغتبط بسماع الصــوت الرخيم ·· لذلك لم تكد الظلمة ترخى أستارها فى ذلك المساء ، حتى نهضت من مكانى وفتحت البيانو ، ثم توسلت اليه أن يغنى · فقال لى اننى ساحرة ماكرة ، ووعدنى بالغناء فى فرصة أخرى ، ولكنى أكدت له ان ليست هناك فرصة أكثر ملاءمة من الوقت الحــاضر · فسألنى هل أحب صوته ؟·· وكنت غير مشغوفة باشباع زهوه المفرط ،ولكنى رضيت لمرة واحدة ـ تمشيا مع مقتضيات المناسبة ـ ان أتملق غروره ، بل أن أثيره فقلت : « أحبه جدا » ·· واذ ذاك قال : « اذن عليك ان تعزفى فى مصاحبتى » ، فقلت : « حسنا ياسيدى ·· سأحاول ! »

وفعلا حاولت ، ولكنه سرعان مادفعنى عن مقعدى فى غير لطف أو دماثة ، واغتصب مكانى ـ وهذا ماكنت أرغب فيه ـ ثم راح يعزف لنفسه ، لانه كان ماهرا فى العزف مهارته فى الغناء ، بينما بادرت أنا الى فراغ النافذة ·وفيما كنت جالسة هناك أطل على الاشجار الساكنة والمروج المظلمــة ، شرع يغنى المقطوعة التالية بصوت رخيم وأنغام حلوة :

ان أخلص الحب الذى يمس سويداء القلب المتقدة ·· قد سرى منى فى كل شريان ·· وانطلق مسرعا ·· يتدفق فى مجرى الحياة !

كان قدومها أملى فى كل يوم .. وكان فراقها مبعث آلامى .. فاذا تمهلت فى خطوها .. فكأنما الثلج يجرى فى عروقى ويهدىء هواجسى !

حلمت بأننى أعيش فى نعيم مقيم .. وبمثـــل ما أحببت أردت ان أكون محبوبا .. وبهذا الامل الحلو أسرعت .. فى لهفة الاعمى ونشوته

ولكن الشقة بين حياتينا .. كانت واسعة وعرة المسالك .. خطيرة خطورة الامواج المزبدة .. فى المحيط الثائر

وكانت هذه الشقة بيننا ، كطريق يعيث فيها اللصوص .. لايدعون منهـــا بيداء ولا غابة .. فقد كانت تحول بين روحينـــا : القـــوة والشريعـــة والويل والثبور !

فاقتحمت الاهوال وسخرت بالعقبات .. وتحديت نذر السحر .. بل حيث تكمن الاخطار والمضايقات ، وينبغى الحذر .. كنت أمضى متهورا

وطرت كأننى فى حلم .. نحو قوس قزحى المندفع فى سرعة البرق .. حتى تجلى لناظرى فى أبهى صوره .. هذا القوس : وليد البرق والمطر !

وعلى سحب الظلام المداهمة .. ظل يأتلق السرور الرقيق .. فلم أعـــد أحفل بمدى تكاثف وقتام .. المصائب المتجمعة !

ولم أعد أبالى فى هذه اللحظة الحلوة .. بأن كل ما اجتحته وغلبتـــه .. لن يلبث ان يأتى على جناح الطير قويا مسرعا .. ينشد الثأر الذريع !

واذا كانت بغضاء التعالى صرعتنى .. والى محكمة الحق قدمتنى .. ثم بقواها الطاحنة العابسة هددتنى .. بالعداوة الازلية الى الابد

فقد وضعت حبيبتى يدها الصغيرة .. فى يدى باخلاص نبيل .. وأقسمت على أن رابطة قدسية لاتنفصم .. سوف تربط بين روحينا !

وقد أقسمت حبيبتى وهى تختم حبها بقبلة .. أن تعيش معى وتموت معى .. وبذلك نعمت أخيرا بالفردوس المقيم .. لان حبها لى لم يكن أقل من حبى لهـــا !

★ ★ ★

◆ ثم نهض وتقدم نحوى ، فرأيت وجهه متقدا وعينيه تلتمعان ، وقد ارتسم الحنان والوجد على كل أساريره ، فأجفلت لاول وهلة ، ثم استجمعت قواى . ووجدتنى ازاء مشهد ناعم ، وعرض غرامى جرىء لم أكن أحبه ، فقلت لنفسى : يجب ان أهيىء وسيلة للدفاع . وكان أن شحذت لسانى ، حتى اذا اقترب منى سألته فى حدة وخشونة ، من هى هذه التى يعتزم أن يتزوجها الآن ؟..

فقال : « ياله من سؤال عجيب ·· من حبيبتي جين ! »

– حقا ! انني أعتبره سؤالا طبيعيا وضروريا بعد أن تكلم الشاعر عن زوجته المستقبلة التي ستموت معـه ، فماذا يعني بهـذه الفكرة الوثنية ؟·· انني لا اعتزم الموت معه ، وله أن (يتأكد) من ذلك !

فقال ان كل ماكان ينشده ويصلي من أجله ، هو ان أحيا معه ، لان الموت ليس مما يرجى لمخلوقة مثلي · فقلت : « بل ان الموت حق علي ، كما هو حق عليه ، متى حانت المنية ، ولكنني لا أتعجله ، بل أرتقبه على مهل »··فسألني ان أصفح عن فكرته الانانيـة ، وان أؤكد غفراني بقبلة ، ولكنني رفضت ، وسـألته ان يعفيني ·· واذ ذاك ، سمعت نفسي ترميني بالقسوة والجمود ، وتقول ان أية امرأة أخرى في مثل هذا الموقف كانت تذوب وجدا أمام هـذا الاطناب والاطراء !·· ورحت أؤكد له انني جامدة بطبيعتي ، وانه سوف يجدني على هذا الطبع في كثير من الاوقات · والواقع انني قررت أن أبدي له –في طباعي– كثيرا من المواضع الخشنة ، قبل أن تنتهي الاسابيع الاربعة ، كي يعرف جيدا أية صفقة كان مقدما عليها ، قبل ان يتم ابرامها ، لعله أن يرجع عنها ·· ولكنه ما لبث ان سألني : « هل ألتزم الهدوء وأتكلم بالمنطق والحكمة ؟ »

– حبذا لو أردت الهدوء ·· أما من ناحية التكلم بالحكمة ، فانني أطري نفسي ، لانني فعلت ذلك

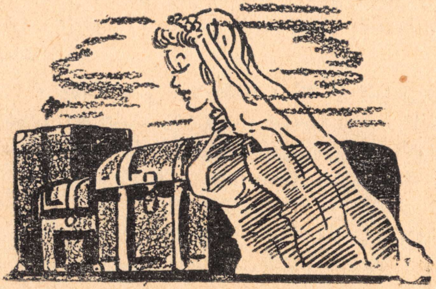
فأرغى وأزبد !·· وقلت لنفسي : « حسنا · لك ان تتململ وأن تتبرم كما تشاء ، ولكن هذه – كما أعلم – خير وسيلة اسلكها معك ، فانني أحبك فوق مايقوى لساني على التعبير ، ولكنني لا أريد الغرق في بحر العواطف · وأريد بهذا الوخز ان أبعد بك عن شفا الهوة ، وأجعل بيني وبينك حدا فاصـلا لخيري وخيرك ! » ·· وبهذه الطريقة أخذت أثير مرجل الغضب في نفسه –في الليالي التالية – فكان يسير الى نهاية الحجرة · · واذ ذاك كنت أنهض وأقول بلهجتي الطبيعية الزاخرة بالاحترام : « طابت ليلتك ياسيدي ! » ·· ثم انسل من باب الحجرة الجانبي وانصرف

وسلكت هذه الخطة طوال مدة التجربة وفترة الاختبار ، فوفقت فيها كل التوفيق ، وكنت أراه يغضب ويتكدر ، ولكنه كان يجد في ذلك لذة – بوجه عام – اذ كان يرضيه أن ألقى جبروته بوداعة الحمل وهدوء الحمائم ·· وكنت – في حضرة الغير – أبدو كالعادة : شديدة الاحترام والهـدوء · فلم أكن أعارضه أو أعاكسه الا في أحاديثنا الليلية ، اذ ظل يسـتدعيني عندما تدق الساعة السابعة من كل مساء · ولم يكن يستقبلني بألفاظ الحب والتدليل ، وانما كان يدعوني بالدمية المتمردة والشيطانة المتقلبة وغير ذلك من الالفاظ ، كما كان يدللني بتجهم من وجهه بدل الابتسام ،وبضغط يدي أو بقرص ذراعي،

أو عرك أذنى ، بدلا من أن يطبع قبلة على وجنتى !٠٠ والواقع اننى فضلت هذه المجاملات الخشنة على غيرها فى فترة الاختبار ٠ كما لاحظت أن مسز فيرفاكس قد ارتاحت لهذه الخطة ، وان قلقها من ناحيتى قد تبدد ، فادركت اننى أسلك سبيل الصواب ٠٠ فى حين كان مستر روشستر يؤكد لى اننى أضايقه ، وراح يتهددنى بالانتقام الدريع فى أقرب فرصة ، لسلوكى هذا ، فكنت أضحك من تهديداته ، وأقول فى نفسى : « لقد أمكننى ان أوقفك الآن عند حدك ، وفى وسعى ذلك فيما بعد ! واذا أعجزتنى هذه الحيلة عمدت الى غيرها ! »

ومع ذلك فان مهمتى لم تكن سهلة ميسورة ، اذ كنت أوثر فى بعض الاحيان أن أرضيه بدلا من ان أغضبه ، فقد أصبح زوجى المرتقب أغلى عندى من العالم باجمعه ، بل صار كل أملى فى الحياة !

الفصل الخامس والعشرون



● انتهى شهر مطارحة الغرام ، وكنا قد أخذنا نعد ساعاته الباقية على الاصابع ٠ ولم نرجىء مايستلزمه اليوم السابق للزفاف من استعدادات لمقدمه ٠ ولم يكن لدى — أنا على الاقل — ما أعمله بعد أن ملأت الحقائب وحزمتها وأغلقتها بالمفتاح ثم ربطتها بالحبال وصففتها فى خط طويل بجانب جدار حجرتى الصغيرة ، لتكون فى مثل تلك الساعة من اليوم التالى فى طريقها الى لندن ، وكذلك أنا بمشيئة الله ، أو على الاصح « جين روشستر » التى لم أعرفها بعد !٠٠ ولم تكن البطاقات التى تحمل عنوانى قد لصقت بعد على صناديق

السفر الاربعة ، بل ظلت فى الدرج .. وكان مستر روشستر قد كتب على كل منها بخط يده : « مسز روشستر بفندق ... لندن » . ولم استطع أن أغرى نفسى على لصقها أو تكليف أحد آخر بذلك ، فان مسز روشستر لم تكن موجودة بعد ، وما كانت ستولد قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، ومن ثم كان من الواجب أن انتظر ريثما استوثق من أنها قد أتت الى العالم حية قبل أن أعزو اليها كل هذه الامتعة ! كان يكفى أن أرى أمامى صوان الملابس وقد اكتظ بثياب لها ، حلت محل ثوبى الاسود ـ الذى كنت أقتنيه من (لو وود) وقلنسوة من القش . وكان بين تلك الملابس ثوب العرس : « فستان » فى لون اللآلىء ، وخمار فى كثافة البخار .. ووجدتنى أغلق الصوان لاحجب عن عينى هذا « الجهاز » الذى بدا لى فى هذه الساعة ـ التاسعة مساء ـ غريبا تشع منه خلال عتمة الحجرة ظلال كالاشباح !. وقلت لنفسى : « سأدعك وشأنك أيها الحلم الاغر ، فاننى محمومة ! اننى اسمع الرياح تهب وتعوى ، وسأخرج لاحس بها ! »

لم أكن محمومة لمجرد العجلة فى ترتيب المعدات اللازمة ، ولا لمجرد ترقب الانقلاب الكبير ـ وهو الحياة الجديدة التى ستبدأ غدا ـ وان كان للظرفين نصيبهما بلا ريب فى اضطرابى وثورتى التى جعلتنى أسرع فى تلك الساعة المتأخرة الى الحديقة المظلمة .. ولكن كان هناك سبب ثالث أثر فى نفسى تأثيرا اكبر : كانت فى قلبى فكرة عجيبة قلقة ! ولم يكن أحد غيرى قد علم أو رأى هذا الحادث الذى وقع فى الليلة الماضية ، فقد كان مستر روشستر غائبا فى تلك الليلة عن القصر ، ولم يكن قد عاد بعد من ضيعة صغيرة ـ تتألف من مزرعتين أو ثلاث ـ على مسافة ثلاثين ميلا ، ذهب اليها ليسوى بنفسه بعض الامور قبل سفره من انجلترا .. وفيما كنت اترقب عودته لافضى اليه بما أثقل قلبى وأسأله ايضاح اللغز الذى يبلبل أفكارى ، ولكن : انتظر أيها القارىء حتى يأتى ، ومتى كشفت له عن سرى ، شاطرتنا اياه .. وتعال اروى لك الحادث !

قصدت الى البستان تدفعنى الى الاحتماء به الرياح التى كانت تهب شديدة طوال النهار من الجنوب دون أن تحمل قطرة واحدة من الامطار . وبدلا من ان تهدأ هذه الرياح مع اقتراب الليل ، زادت فى حدتها ، وتضاعف زئيرها ، وظلت الاشجار تميل فى اتجاه واحد ، ولا تكاد تطوح بأغصانها الى غيره مرة واحدة ، بل ظلت منحنية الرؤوس نحو الشمال ، بينما كانت السحب تنتقل متتابعة متراكضة ، كتلة اثر أخرى ، بحيث لم تكن تبدو من السماء الزرقاء رقعة صغيرة فى ذلك اليوم من أيام شهر يوليو .. ولم يكن قلبى خلوا من السرور والاغتباط عندما جريت أمام الرياح لكى أسلم أفكارى المكدودة للهواء المدوى حولى فى الفضاء ، وهبطت الممر الذى تحوطه الاشجار ، لاواجه حطام شجرة البندق .. وفيما كنت أتأمل جذعها الاسود المشقوق ، شاهدت العصير قد جف

فى جوفه ، والفروع مترامية على الجانبين ميتة .. وكان من المؤكد ان عواصف الشتاء القادم ستدفع ببعض جذور الشجرة الى الارض ، فلا تلبث أن تنمو شجرة جديدة .. على انها بوضعها الراهن كانت هالكة ، فقلت أخاطبها وكأنها تسمعنى : «لقد احسنت بتماسكك . ويبدو لى رغم ما أصابك أن بك قبسا من الحياة بفضل الجذور الامينة ، وان كنت ستحرمين الاوراق الخضراء ، ولن ترى الطيور تعشش بينك أو تغنى على منابرك .. ولكنك لست فى وحشة ، لان لكل من غصونك رفيقا يواسيه فى محنته ! »

وعندما رفعت رأسى الى الفروع ، ظهر القمر فى تلك البقعة من السماء وقد احمر قرصه وكأنه كان يلقى على نظرة حائرة موحشة ، ثم اختفى ثانية وراء سحابة قاتمة .. وكانت الرياح قد سكتت حول (ثورنفيلد) بضع لحظات ، ولكنها كانت تعول بعيدا فوق الغابات والامطار بصوت حزين مروع لم يسعنى أن اصغى اليه ، فاطلقت لساقى العنان مرة اخرى .. ورحت أجوب أنحاء البستان أجمع التفاح المتساقط من أشجاره فوق الحشائش الكثيفة ، ثم انهمكت فى فرز الناضج منه وحملت ماجمعته الى مخزن القصر ، وما لبثت أن مضيت الى المكتبة ، لاجد النار مشتعلة فى المدفأة ، فوضعت المقعد الكبير ذا المسندين بجانبها ، ثم جذبت المنضدة ، وأسدلت الستار ، وأعددت الشموع للاضاءة .

بيد أننى ـ عندما أتممت هذه الترتيبات ـ وجدتنى أزداد قلقا بحيث لم أعد أطيق الاخلاد الى الجلوس فى هدوء ، ولا البقاء فى المنزل . ودقت الساعة الصغيرة فى الحجرة ، كما دقت الساعة العتيقة فى البهو ، عشر دقات ،فقلت لنفسى : « كم يمعن الليل فى سيره ! سأنزل الى البوابات الخارجية ، فان القمر يظهر بين الفينة والاخرى بحيث استطيع أن اتبين جزءا كبيرا من الطريق . ولعلنى أرى مستر روشستر قادما فى هذه الآونة ، فأقابله خارج القصر لاوفر على نفسى بعض لحظات من الانتظار ! »

وكانت الامطار قد انقطعت ، ولكن الرياح ظلت تزأر عاليا بين الاشجار الضخمة التى تظلل البوابات . أما الطريق ـ على مدى ماتبينته ـ فكان ساكنا موحشا ، لاتشاهد على يمينه وعلى يساره غير ظلال السحب التى بين الاشجار الضخمة التى تظلل البوابات ، ولكن الطريق ـ على مدىماتبينته ـ كان ساكنا موحشا ، لاتشاهد على يمينه وعلى يساره غير ظلال السحب التى كانت تجتازه من وقت الى آخر ، كلما أطل القمر من خلالها .. وفيما كنت اتطلع حوالى ، ترقرقت فى عينى دمعة سخيفة .. دمعة اليأس ونفاد الصبر .. فخجلت وجففتها ، وأخذت اتسكع فى الطريق الى ان احتجب القمر تحت ستار من السحب الكثيفة ، واشتدت ظلمة الليل ، وبدأت الامطارتهطل ثانيةوالعاصفة تسوقها أمامها بقوة وسرعة . فهتفت وقد استبدت بى الوساوس السوداء :

« الا ليته يأتى ! ليته يأتى ! » ٠٠ لقد كنت ارتقب وصوله قبيل موعد الشاى وهاهو ذا الظلام قد أرخى سدوله ، فما الذى حال دون عودته ؟! ٠٠ هل أصابه حادث ؟ ٠٠ وتذكرت حادث الليلة الماضية ، ففسرته بانه نذير لمصيبة أو كارثة٠ وخشيت أن تكون آمالى أكبر من ان تتحقق ، فقد حظيت أخيرا بنعيم كبير ، حتى خيل الى ان سعادتى قد بلغت ذروتها ووجب أن تأخذ فى الافول

وقلت لنفسى : « لن استطيع العودة الى المنزل ولا الجلوس بجوار المدفأة ، وهو لايزال فى الخارج فى هذا الطقس القاسى ! ٠٠ يجب أن انطلق لالقاه ! »٠٠ وسرت بسرعة ، ولكن دون أن ابتعد كثيرا ٠ ولم أكد اقطع ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر ، ورأيت فارسا يعدو بكل قوته والى جانبه يجرى كلب ، فقلت : « لتذهبى عنى أيتها الوساوس !٠٠ ها هو ذا على ظهر جواده « مسرور »يتبعه كلبه « بايلوت » ٠٠ وشاهدنى - لان القمر كان قد شق لنفسه ثغرة زرقاء بين السحب - فرفع قبعته ثم لوح بها حول رأسه فاسرعت لمقابلته ٠٠ ومد يده وانحنى على السرج وهو يقول : « ها انتذى ترين ان لاغنى لك عنى !٠٠ هذا واضح ! ضعى قدمك الصغيرة على طرف حذائى واعطنى يديك ٠٠ اصعدى!» ٠٠ فاطعته وقد استخفنى الفرح ، ثم وثبت الى ظهر الجواد أمامه ، فحيانى بقبلة حارة وببضع كلمات تنم عن فوزه المزهو ، احتملتها قدر ما استطعت٠ الى أن سألنى وسط مظاهر فرحته : « ماذا حدث ياجين حتى تأتى لمقابلتى فى مثل هذه الساعة؟ هل جرى شيء ؟ » ٠٠ فقلت : « كلا وانما خيل لى انك لن تأتى ابدا ، فلم اقو على احتمال انتظارك فى المنزل وخاصة مع هذا المطر وهذه الرياح ! »

- مطر ورياح ؟٠٠ آه ، حقا ! ٠٠ اجل ٠ انك تقطرين ماء كحورية البحر ٠ لفى عباءتى حولك ٠٠ولكننى أراك محمومة ياجين وقد التهب خداك ويداك ، ولذلك اسألك مرة أخرى : ماذا حدث ؟

فقلت : « لا شيء الآن ، فلست خائفة أو تعسة ! »

- اذن فقد كنت كذلك ؟

- تقريبا ٠٠ ولكنى سأقص عليك الامر شيئا فشيئا ياسيدى ٠٠وأظنك ستضحك من أسباب ما يؤلمنى !

- سأضحك منك من كل قلبى ، بعد أن ينتهى الغد بخير ، أما قبل ذلك ولا اجرؤ ، لان مكافأتى لم تتقرر بعد٠٠أنت ، أنت التى ظللت طوال الشهر الماضى تنزلقين من يدى مثل السمكة ، وتخزيننى بشوكة كالوردة ، فلا اضع يدى على جزء من جسمك حتى تدمينى ابرك ! أما الآن فيخيل الى اننى احمل بين يدى حملا شاردا من الحملان الوادعة ٠ هل غادرت حظيرتك لتقابلى راعيك ياجين ؟

- كنت مشوقة اليك ، فلا تباهى ولا تزدهى !٠٠ ها قد بلغنا (ثورنفيلد) فدعنى اهبط

* * *

وNزلت على الممر المرصوف . وعندما تناول منه جون عنان جواده ، تبعني الى البهو وأمرني بأن اسرع فارتدي ملابس جافة ، ثم أعود اليه في المكتبة . وقبل ان أبلغ الدرج ، استمهلني وطلب مني أن لا ابطيء في العودة . ولم ابطيء فقد رجعت بعد خمس دقائق لاجده يتناول العشاء . فقال : « اجلسي واحتملي رفقتي ياجين . شكرا لله على أن هذه ستكون الاكلة الاخيرة لك في ثورنفيلد لمدة طويلة » . فجلست بالقرب منه واخبرته بانني لا أستطيع أن اتناول طعاما . فقال : « وهل ذلك لانك مأخوذة بما امامك من أمل في الرحيل ياجين ؟ .. وهل التفكير في السفر الى لندن هو الذي انتزع منك شهوة الاكل ؟ »

– ان آمالي ليست واضحة لعيني الليلة ، ولا أكاد أدري ماذا يدور في رأسي من افكار ، اذ يخيل لي أن كل ما في هذه الحياة باطل زائف

– ماعداي .. أنا مادي ملموس .. المسيني بيدك !

– بل انت أقرب ما في الحياة كلها للوهم ياسيدي .. أنت مجرد حلم !

فلوح بيده قرب عيني وقال : « أهذه حلم ؟ » .. وأقصيت يده عن وجهي وقلت : « انها حلم رغم أنني مسستها .. هل فرغت من عشائك ياسيدي؟ » .. واذ أجاب « نعم ياجين » ، دققت الجرس وأمرت بحمل الصينية .. حتى اذا عدنا وحيدين ، حركت نيران المدفأة ، ثم تناولت مقعدا خفيضا ، وجلست عند ركبة سيدي ، ثم قلت : « كاد الليل ينتصف ! » .. فقال : « نعم ، ولكن تذكري ياجين انك وعدتني بأن تظلي ساهرة معي طوال الليلة السابقة للزفاف» .. فقلت : « فعلا ، وسأفي بوعدي لساعة أو اثنتين على الاقل ، اذ لا رغبة لي الآن في النوم » .

– هل فرغت من جميع ترتيباتك ؟

– جميعها ياسيدي

– وأنا الآخر اعددت كل شيء ، وسنغادر (ثورنفيلد) غدا بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة ..

– حسنا ياسيدي

– يالها من ابتسامة عجيبة هذه التي اقترنت بقولك « حسنا » ، ويا للبقعة الحمراء اللامعة التي تخضب خديك ! . وما هذا البريق الغريب الذي تاتلق به عيناك ؟ هل انت بخير ؟

– أظنني كذلك

– تظنين ؟! ماذا جرى ! خبريني ، بماذا تشعرين ؟

– لا أستطيع ياسيدي . ليست هناك كلمات تستطيع التعبير لك عما اشعر

به . بودى ألا تنتهى هذه الساعة ، فمن يدرى ماذا يأتى به القدر فى الساعة التالية ؟

ـ هذه وساوس ياجين ،فقد نال منك الافراط فى الانفعالات والمتاعب

ـ اتشعر ياسيدى بانك هادىء وسعيد

ـ هادىء ؟ .. كلا ، ولكنى سعيد .. كل السعادة ؟

وتطلعت الى وجهه لاقرأ فيه آيات النعيم التى كانت تنعكس عليه فوجدته حارا متوردا ..

ثم قال : « امنحينى ثقتك ياجين ، واقصى عن رأسك هذا العبء الذى يرهقه بان تفضى الى بما يتعبك . ماذا تخشين ؟.. أن لا اكون زوجا طيبا ؟ » .. قلت : «هذه أبعد فكرة عن رأسى! » .. فعاد يتساءل : « اذن ، فهل تخشين الدنيا الجديدة التى أنت مقبلة عليها ؟ . أو تخشين الحياة الجديدة التى تنتقلين اليها ؟ » .. فقلت : « كلا ! » .. وعندئذ هتف : « انك تحيريننى ياجين ! ان منظرك ولهجتك ينمان عن حزن واضح يربكنى ويؤلمنى ، فافصحى ! »

ـ اذن اصغ الى ياسيدى .. أما كنت بعيدا عن القصر فى الليلة الماضية ؟

ـ نعم كنت .. وقد سمعتك منذ هنيهة تشيرين الى أن أمرا وقع فى غيابى ، وربما كان امرا لا أهمية له ولكنه ـ بالاختصار ـ ازعجك ، فاخبرينى به ، هل قالت لك مسز فيرفاكس شيئا ؟.. أسمعت الخدم يتحدثون عن شىء ؟.. أو هل جرح أحد كرامتك المرهفة ؟

فأجبت قائلة : « كلا ياسيدى » .. وفى تلك اللحظة ، شرعت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ، فانتظرت حتى فرغت من دقاتها ثم مضيت أقول : « كنت منهمكة طوال نهار أمس فى عمل متصل ، ولكننى كنت غاية فى السعادة ، لاننى لم أكن أخشى دنياى الجديدة أو غيرها ، بل كنت أشعر بمنتهى الهناء فى مجرد الامل فى أن أحيا معك ، لاننى أحبك !.. كلا ياسيدى ، لاتغازلنى الآن ، بل دعنى أتكلم دون مقاطعة .. لقد أحسنت الظن فى أمسى بالاقدار ، واعتقدت ان الظروف تحالفنى وتحالفك . وكان يوما هادئا جميلا ـ ان كنت تذكر ـ مما أقصى عن رأسى كل خوف عليك أو على سلامتك فى رحلتك ، فأخذت أتمشى قليلا فى الدرب المرصوف بالحديقة بعد أن تناولت الشاى ، وأنا أفكر فيك وأراك فى خيالى قريبا منى بحيث لا أفتقد وجودك فعلا بجانبى .. ثم فكرت فى الحياة الماثلة أمامى .. حياتك ياسيدى !.. انها دنيا تفوق دنياى فى اتساعها واثارتها ، وفى عمق غورها ، حتى لتبدو مسالكها الضحلة أعمق كثيرا من أغوار البحر الذى تصب فيه الانهار . واننى لاعجب كيف يشبه كتاب الاخلاق عالمنا بالبيداء الموحشة ، فى حين اننى أراه فى عينى وردة متفتحة ؟ .. غربت الشمس فبرد الهواء وتلبدت السماء ، وعندئذ أسرعت الى القصر ،

واذا بصوفي تستوقفني لتدعوني لمشاهدة ثوب الزفاف .. ورأيت تحتــه في الصندوق هديتك .. هذا الخمار الذى دفعك تبذيرك الشديد الى أن ترسل في طلبه من لندن، لانك ـ فيما يبدو ـ قررت أن تغريني بهذه الهدية الغالية بعد أن رفضت قبول المجوهرات !.. وفيما كنت أبسط هذا الخمار أمامي، ابتسمت لانني أزمعت أن أداعبك من ناحية ذوقك الارستقراطي وفي محاولتك اظهــار عروسك الفقيرة بمظهر النبيلات.. فكرت في ان أضع على رأسي القماش البسيط غير المزركش الذى كنت قد اعددته لنفسي كفتاة متواضعة الاصــل ، ثم اذهب اليك وأسألك : « الا يكفى ذلك لامرأة لاتستطيع ان تأتى لزوجها بثروة أو جمال أو جاه ؟ » . وتصورت منظرك اذ ذاك وسمعت ردودك الصارمة ، وتنصلك في كبرياء من أية حاجة بك الى زيادة ثروتك أو رفع مستواك بالزواج من فتاة موسرة أو كريمة الحسب والنسب » .

★ ★ ★

◆ وهنا قاطعني مستر روشستر قائلا : «كيف تقرئين افكارى ياساحرة ؟.. ولكن ماذا وجدت في الخمار غير تطريزه ؟ ترى هل عثرت على سم أو خنجر حتى تتجلى عليك أمارات الحزن والاسى هكذا ؟ » .. فقلت : « كلا ياسيدى ، فانني لم أجد فوق رقة الصناعة وجمالها ، سوى ماينم على كبرياء آل روشستر . . وهذا شيء اعتدته ولم يعد يروعني ، ولكن ياسيدى .. عندما اشتدت الظلمة ، هبت الرياح .. ولكنها لم تكن كما هي الآن ، صاخبة مهتاجة ، وانما كانت « تنوح وتئن » بشكل يثير الفزع ، فتمنيت أن تكون بالمنزل . وجئت الى هذه الحجرة ، فلما وجدت مقعدك خاليا ، انتابتني رجفة .. وما لبثت أن أويت الى فراشي ، ولكنني لم استطع أن أغمض عيني ، اذ تملكني قلق غــريب ! .. وكانت الرياح لاتزال تعصف بصوت خيل الى أنه صراخ مكتوم حزين ، سواء في القصر أو خارجه . وأخيرا تبينت ان الصوت كان عواء كلب بعيد . وما لبث ان انقطع فاستراحت نفسي ! ولما استغرقت في النوم ، استرسلت في أحــلام دارت حول الليلة الرهيبة ، ثم ما لبثت ان انتقلت الى التفكير فيك ، والرغبــة في أن اكون معك ، وأحسست احساسا عجيبا بأن هناك شيئا ما يحول بيننا.. وكنت في المرحلة الاولى من نومي أسير في طريق مجهول، كثير الثنايا والتعاريج، تحيط به بقاع موحشة ، وتتساقط عليه امطار غزيرة .. وكنت أحمل بين ذراعي طفلا صغيرا ـ جد ضئيل ـ لايقوى عــلى المشي ، وقد أخــذ يرتجف مولولا بصوت حزين كان يخرق اذني. وخلتك ياسيدى في الطريق أمامي ، فاستجمعت قواى لالحق بك ، وبذلت الجهد تلو الجهد كي أناديك وأضرع اليك ان تقف ، ولكن حركاتي كانت مقيدة.. وتلاشى صوتي بينما أحسست بانك تمعن في الابتعاد عني في كل لحظة ! »

- وهل ما زالت هذه الاحلام تضايقك وتثقل عليك ياجين ، وأنا على مقربة منك ؟٠٠ يالك من مخلوقة عصبية صغيرة !٠٠ انسى هذا الهم الموهوم ولا تفكرى فى غير السعادة الحقيقية !٠٠ تقولين انك تحبيننى ياجين ٠٠ نعم لن انسى ذلك ولا يسعك انكاره ، لان هذه الكلمات لم تمت على شفتيك ، ولكننى سمعتهـا واضحة ، ناعمة ، فى حلاوة الموسيقى ، عندما قلت: « أعتقد انه شيء رائع ان أتمنى الحياة معك يادوارد لاننى أحبك! » ٠٠ أتحبيننى ياجين ؟٠٠ أعيدى ذلك على مسمعى ٠

- أحبك ياسيدى ٠ احبك من كل قلبى

فقال : « حسنا » ٠٠ واستطرد بعد صمت دام لحظات : « هذا غريب،ولكن الجملة اخترقت صدرى فى ايلام ٠ لماذا ؟ ٠٠ لانك - فيما اعتقد - قلتهابصوت حاد ، وفى تحمس المتعبد ، ولان فى نظرتك الآن الى ، روح الصدق والحق والتفانى ٠٠ وهو كثير جدا ، حتى اننى لاخال ان روحا بجانبى لا انسـانة ، فانظرى الى نظرة خبيثة ياجين ، وارسمى على وجهك ابتسامات قاسية حييـة مثيرة ، وقولى انك تكرهيننى ٠٠ عاكسينى ٠٠ كدرينى !٠٠ افعلى كل شيء يحركنى ويثيرنى ، فاننى أوثر أن تغيظينى وتثيرينى على ان تملأى نفسى بالحزن والاسى ! »

- سأرضيك بما شئت من معاكسة واثارة بعد أن أفرغ من قصتى ، فاسمعها الى النهاية ٠

- ظننتك قد فرغت من قصتك كلها ياجين ، وحسبت اننى اهتديت الى مبعث الحزن فى احلامك !

واذ هززت رأسى ، قال متسائلا : « ماذا ؟٠٠ ألديك المزيد ؟٠٠ ولكننى لن اعتقد أنه على شيء من الاهمية ٠٠ وأنبهك مقدما الى أننى لن أصدق منه شيئا ٠٠ استمرى ! » ٠٠ وأدهشنى قلقه الواضح،وما بدا عليه من نفاد الصبر ، ولكننى استرسلت أقول : « رأيت حلما آخر ياسيدى ٠٠ شاهدت قصر (ثورنفيلد) اطلالا موحشة ينعق فيها البوم والخفاش ٠ ولم يبق من واجهته الفخمة سوى جدار واحد عال متصدع ، فأخذت أتجول - فى ليلة مقمرة - وسط الحشائش التى نبتت بداخله ، واذا بقدمى تتعثران فى حافة رخامية ناتئة ٠٠ جزء من اطلال سياج ٠٠ وكنت اتلفع بشالى ، وأحمل الطفل المجهول بين ذراعى ، فلم ألقه رغم تعبى وثقله الذى كان يعرقل سيرى ٠ وما لبثت ان سمعت جوادا يركض من بعيد ، فأيقنت انك انت القادم ، لانك كنت قد رحلت منذ زمن بعيد، فأسرعت اتسلق الجدار بأمل أن المحك من قمته ، واذا بالاحجار تنهـار تحت قدمى ، واذا بالاغصان تلتوى بعد ان تعلقت بها ٠ ولف الطفل ذراعيه حول عنقى حتى كاد يخنقنى ، ولكنى وصلت فى النهاية الى القمة ، ورأيتك أشبه

بنقطة بيضاء تزداد تضاؤلا فى كل لحظة .. ثم اشتدت الرياح ، فلم أعد أستطيع الوقوف ، وجلست فوق قمة الجدار . ورحت اهدىء من روع الطفل الخائف فى حجرى ، واذا بك تدور حول منعرج فى الطريق .. وانحنيت الى الامام لالقى عليك نظرة اخيرة ، ففقدت توازنى وسقطت . ثم صحوت من نومى ! »

ـ ولكن الحلم قد انقضى وتبدد !

ـ بل هذه هى المقدمة فقط ياسيدى ، وستأتى القصة بعد ذلك : فما ان استيقظت حتى بهر عينى نور ، فخيل الى ان النهار قد أقبل .. ولكننى كنت مخطئة ، اذ لم يكن النور سوى لهب شمعة . وحدست ان « صوفى » وفدت على الغرفة .. وكانت ثمة شمعة على مائدة الزينة ، كما كان باب الخزانة ـ التى علقت فيها ثوب الزفاف والخمار قبل ان آوى الى فراشى ـ مفتوحا .. وسمعت حفيفا بداخلها ، فقلت : « ماذا تفعلين ياصوفى ؟ » .. ولم يجبنى أحد ، وانما مرق شخص من الخزانة ، فتناول الضوء ورفعه عاليا ، وراح يتأمل الثياب المعلقة .. وصرخت مرة اخرى : « صوفى !.. صوفى ! » ، ولكن الشخص ظل صامتا .. وكنت قد استويت جالسة فى سريرى ، فملت الى الامام .. ودهشت فى البداية ، ثم استولت على الحيرة والخوف .. ثم تجمد الدم فى عروقى .. لم يكن الشخص « صوفى » .. ولا « لياه » .. ولا « مسز فيرفاكس » .. لا ، لم يكن ايا منهن ، وانى لمتأكدة من هذا .. ثم ، وفوق كل هذا ، لم يكن كذلك تلك المرأة الغريبة الاطوار .. جريس بول ! »

اذن ، فمن كان ذلك الشخص ؟.. أكان انسانا أم شبحا ؟.. رجلا أم امرأة ؟.. وما سر وجوده فى مخدع جين اير ؟.. بل ماهى الاسرار والالغاز التى كانت تكتنف ردهات قصر (ثورنفيلد) وابهاءه ؟! وأخيرا ، هل تزوج روشستر من جين اير وتمت سعادتهما ، أم ان الاحداث فرقت بينهما ؟!

اقرأ التفصيلات الشائقة لتلك الاحداث كلها فى الجزء الثالث والاخير من هذه القصة الخالدة ، الذى يصدر فى منتصف سبتمبر باذن الله

هَل فاتك الجزء الأول ؟

إذا كان قد فاتك الحصول على الجزء الأول من هذه القصة الكلاسيكية الخالدة - جين اير - فلا تدع اليأس يفسد عليك فرصة مطالعتها، بل بادر إلى طلب نسخة من الجزء الأول من ادارة «كتابى» فى أقرب فرصة واحرص اليوم على اقتناء هذا الجزء الثانى الذى بين يديك فورًا، كى تستمتع أنت وأسرتك بقراءة الترجمة الكاملة الأمينة لهذه القصة الشائقة، ثم تحتفظ بها تراثًا أدبيًا ثمينًا لأولادك وأحفادك ..

فلا تدع مكتبتك تخلو من هذه التحفة



شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩